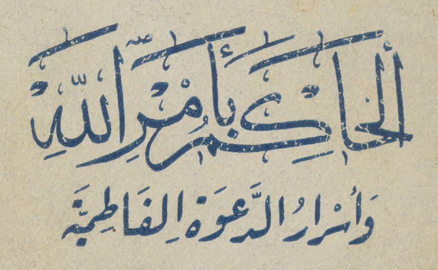


تأليف
محمد عبد الله عنان

دار النشر الحديث
القاهرة

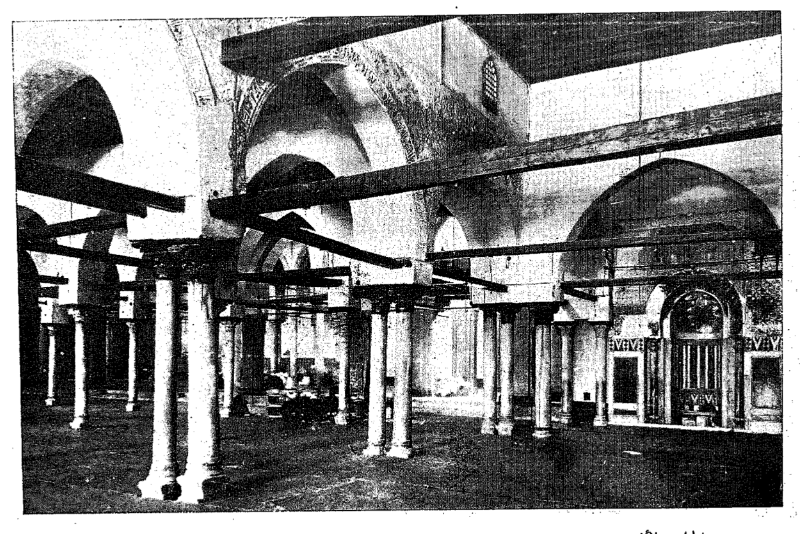


تأليف

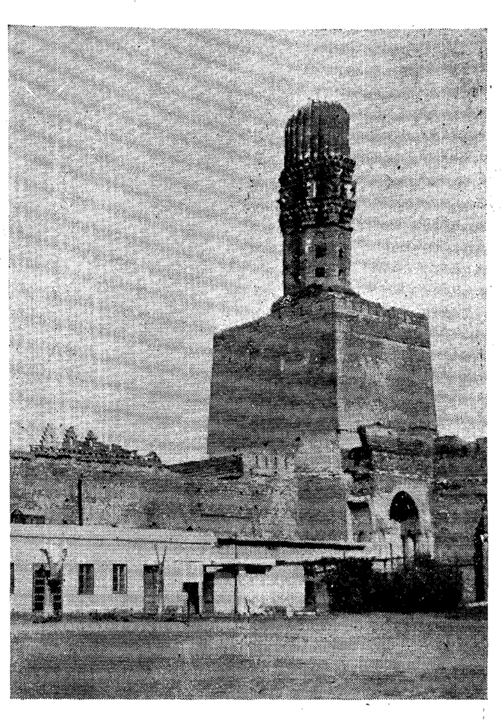
محمد عبد الله عنان

دار النشر الحديث

القاهرة

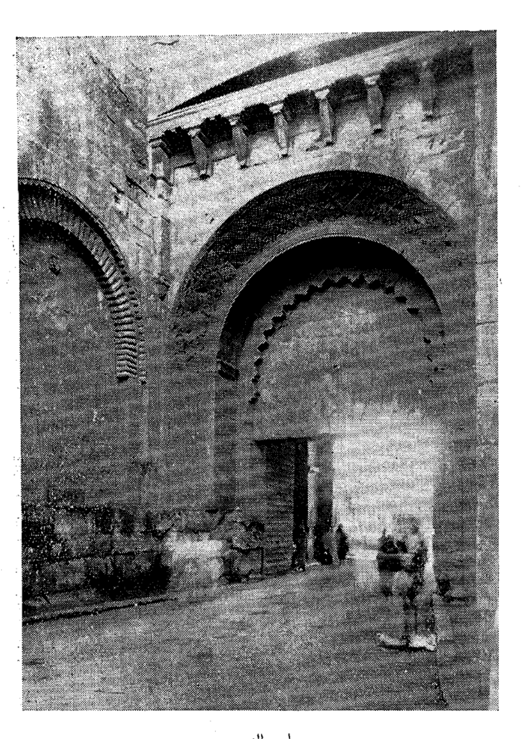


الجامع الأزهر : منظر الفناء الداخلى ، وقد ظهرت به الى اليمين القبلة الفاطمية الاولى التى أنشئت فى عهده الأول



جامع الحاكم بأمر الله

المنارة البحرية التى أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٤٠١ هـ مقابل المنارة المماثلة التى أنشأها أبوه العزيز ؛ وقد كان الجامع عند انشائه خارج السور الفاطمي ، فلما أنشيء السور جاء موقع الجامع بجواره من الداخل



باب النصر

وهو من أعظم أبواب السور الفاطمى الكبير الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى
وهو ملاصق لجامع الحاكم من ناحيته البحرية

وهو معامل عنهم وبعد ذلك وقف له جماعة من النصارى الذين اسلموا فقال لهم ماذا
تريدون قالوا له نعبد الاله ما قال لكل واحد منهم ابن تبارك وصليبك
وعفا عنك فاخرجوهم له من حبس سائرهم فانزعهم لباسهم بين يديه وانفذ مع كل
واحد ركابي كتب له سجلا بيده بان لا يعرض فعادوا كثيرا ممن اسلم الى دينهم. وكان
من جملة من اسلم راهب اسمه بمن عاد الى دينه وسال الحاكم ان يسكنه في عمارة دير خارج
مصر على اسم سيدة المسيح ماري مرقوريس وهو دير بهنا ابناه وسكنه مع اخوه له رهبان
وكان الحاكم يجي الى عندهم دفعات كثير ويقيم هناك وياكل من طعامهم الخفيف
وكان كلمن له حاجه عند الحاكم يمضي الى يمين الراهب يخاطبه عليها وقد
حصون عنده بقضيها له. فلما علم بمن انه قد صار له عنده قولا مقبول اذكره بحالة
انبا زخارياس البطرك وساله الاذن في بناء البيع فوعده بذلك فانفذ احضر البطرك
من دير ابو مقار واخفاه عنده في دير مرقوريس بشهران فلما اتاه الحاكم كما جرت
العاده اخرج له البطرك فسلم عليه بسلام الملوك وبارك عليه ودعا له فقال الحاكم
ليمين الراهب من هذا قال هو ابونا البطرك انفذت احضرته كما امرت فاومى بانه
اليه وسلم عليه وكان معه جماعة من الاساقفه فقال من هولاء قال له يمين هولاء
خلفاه في البلاد ومن الاساقفه فاسلم الحاكم وتعجب منه وكان حقيرا في
العين معانا في النفس وكان قصير القامه كوسج دميم الخلقه وراى الاساقفه
الذين معه شيوخ ذوي مناظر حسنه وشخوص بهيه وقامات تامه. فقال
لهم هذا مقدمكم كلكم قالوا له نعم يا مولانا الرب ثبت ملكك
فعجب وقال لهم الى اين ينتهي حكمه فقالوا له يمتد حكمه في ديار مصر والحبشه
والنوبه والخمس مدن في الغرب افريقيه وغيرها فازداد تعجبه وقال له كيف
يطيعوا هولاء كلهم بلا عساكر ولا مال ينفقه فيهم قالوا له بصليب واحد
يطيعه هذه القبائل كلهم. قال لهم وايش هو هذا الصليب قالوا له مثال الذي صلب
عليه المسيح فمهما اراد منهم كتب اليهم وجعله بين سطور الكتاب موضع علامه
الملك ويقول لهم اصلوا كذا وكذا والا علكم الصليب فيطيعوا قوله ويفعلوا
ما يامرهم به بلا عسكر ولا حرب فكثر تعجبه وقال للخفيفه ان ليس في العالم

٤٣٢

درهمات مثل دين النصارى هوذا نحن نسفك الدماء ونفقوا الاموال ونخرج الجيوش
وما نطاع وهذا الرجل الشيخ الحقير المنظر الدميم الخلقه تطيعه اهل هذه البلاد كلها
بكلمه لا غير. ثم قال له وللاساقفه اقيموا ما هاهنا حتى اقضي حوايجكم وخرج من عندهم
وهم مسرورين بما سمعوه منه. ثم ان يوس الراهب الذي كان رفع على البطرك عرف
مكانهم فجا اليهم سرعه كالطير ولم يعلموا به حتى دخل وصار بين يدي البطرك
وقال هوذا قد اعاد الرب لك طغيانك واريد ان تجعلني اسقفا. فقال
له البطرك اذا اراد الرب فانا اجعلك وكان ابن اخيه الذي هو حابل اسقف
سخا حاضر هناك وهو خصم يوس الراهب يخاطبه ايضا بما اغاظه حتى طلع الى
سور الدير وصاح انا بالله وبالحاكم انا مظلوم انا مظلوم حتى اجتمع خلق الاساقفه
وجرى بينهم وبين حابل الاسقف خصومه عظيمه وقالوا له انت سبب هذا البلا
كله وكلما نالنا من هدم البيع ولباس الغيار والهوان وغيره انت اصله وتريد
ايضا تحدث شيا اخر حتى يكون الاخر اشر من الاول ولم يزالوا حتى سكن غضب يوس
الراهب والزموا البطرك ان يجعله اغومنس والبسه العلنسوه السودا ووعده
بجميل. ثم ان الملك الحاكم جا اليهم ومعه سجل عظيم بفتح الكنايس كلها التي في
مملكته وعمارتها وان تعاد اليهم الاخشاب والعمد والطوب والحجارة الماخوذه
منها والاراضي والبساتين التي كانت لها في كل كوره مصر وكان هدم الكنايس
في سنه سبع مايه وسبعه وعشرين للشهدا وفتحت واطلق عمارتها في سنه سبع مايه
سته وثلثين للشهداء وفي هذا السجل اعفاهم من لبس الغيار وحمل الصليب
وان يضربوا النواقيس في كل الكنايس بكل موضع كما جرت عادتهم فيالك
من فرح كان في ذلك اليوم لجميع النصارى الذي في كوره مصر وفي البلاد التي كان
فيها الخلاص واطلاق عمارة الكنايس ظهر امرا عجيب وذاك ان الحاكم كان يطوف
بالجبال نظاهر مصر في الليل والنهار ومعه ثلثه ركابيه او ركابي واحد.
فلما كان في ليله من الليالي بلغ الى حلوان ومعه ركابي واحد فنزل عن دابته وقال
للركابي عرقب هذا الحمار ففعل ما امره به فقال له امضي الى القصر ودعني انا ماشيا
امضي كما امر. فلما اصبح اهل القصر ولم يجدوه فسالوا الركابي عنه فقال لهم ان

نموذج من صفحات المخطوط الكنسى المسمى بسير البيعة المقدسة المحفوظ بدار الكتب رقم ٦٤٣٤ ح

ولا قوة الا بالله العلي العظيم أفأمنتم أيها
الغافلون أن يصيبكم ما أصاب من كان قبلكم من أصحاب
الأيكة وقوم تبع والرس وثمود قول الله تعالى
ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد
الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم
ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد وقوله
تعالى ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك
نفعل بالمجرمين ومثل هذا كثير في كتاب الله عز
وجل مما أصاب أهل العناد والخلاف والمنافقين
والمفسدين في الأرض بعد عصيان الله تعالى
وولية أمير المؤمنين سلام الله عليه من [illegible]

الناس أجمعين وكذلك خرج من أوساطكم قال الله ذو الجلال
[illegible] والإكرام وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وعلامة
سخط ولي الله تدل على سخط الرب تبارك وتعالى
[illegible] ذلك بل غضب الإمام وغلق باب دعوته ورفع مجالس
حكمته ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره
ومنعه عن الكافة سلامه وقد كان يخرج إليهم
من حضرته ومنعه لهم عن الجلوس على مساطب
[illegible] بعد حرمه وامتناعه عن الصلاة بهم في الأعياد
و[illegible] شهر رمضان ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه
وقت الأذان ولا يذكرونه ومنعه جميع الناس
أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب وذلك مفترضا

نموذج من صفحات مخطوط قديم به رسائل حمزة بن علي ويحفظ بدار الكتب رقم ٣٧ عقائد النحل ؛ والصفحتان من « السجل المعلق »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كانت الدولة الفاطمية ، بين الدول الاسلامية التى استقرت بمصر ، أوفرها بهاء ، وأبقاها أثرا ؛ وما زال الجامع الأزهر ، غرس الدولة الفاطمية اليانع ، يقوم منذ ألف عام أثرا خالدا ، ورمزا باهرا لهذا العصر الزاهر ، وهذه الدولة المستنيرة الباذخة ؛ وربما كان العصر الفاطمى ، بين عصور مصر الإسلامية ، اجدرها بالدرس والعناية ، وأحفلها بالمواقف الشائقة ، وأكثرها سحرا وفتنة ، وأبعثها الى التأمل والعطف ؛ ذلك لأن الخلافة الفاطمية ، بالرغم مما يحيق بأصولها وإمامتها من الريب ، كانت بنظمها الطريفة ، ورسومها الفخمة ، وخلالها الباهرة ، تنثر من حولها فيضا من العظمة والبهاء ، وتطبع العصر بطابع عميق من روحها الباذخ. واذا كان للعصر الفاطمى سحره الخاص ، فان عصر الحاكم بأمر الله هو بلا ريب أغرب مراحله وأعجبها ؛ وقد غاض بهاء العصر الفاطمى فى تلك الفترة نوعا ؛ ولكن ما تمتاز به تلك الفترة من الاحداث العجيبة ، والنوادر الشائقة ، وما يمازجها من الخفاء والغموض ، وما تمتاز به شخصية الحاكم من الأطوار والخواص المدهشة ، والنزعات والاهواء المروعة ، مما يسبغ على تلك المرحلة أهمية خاصة ، ومن ثم كان اختيارنا لهذا العصر ؛ وكانت عنايتنا بدراسة نواحيه الخفية.

ومن الأسف أن معظم مصادر العصر الفاطمى المعاصرة قد دثر ولم يصل الينا. فسيرة المعز لابن زولاق ، وتاريخ مصر للمسبحى ، ومؤلف القضاعى فى الخطط ، وتاريخ ابن الطوير ، وتاريخ ابن المأمون وغيرها مما كتب خلال العصر عن مشاهدة ودراسة مباشرة واتصال وثيق بالأشخاص والحوادث والشؤون ، قد غاض ودثر ؛ بيد أنه مما يدعو الى الغبطة أن المؤرخين المتأخرين الذين ظفرنا بآثارهم مثل النويرى

والقلقشندى والمقريزى وابن تغرى بردى والسيوطى، قد انتفعوا بهذه المصادر الفاطمية المعاصرة ؛ ونقلوا إلينا منها كثيرا من الفصول والشذور الهامة ، ولا سيما عن نظم الدولة الفاطمية ورسومها ومواكبها ومظاهر قوتها وعظمتها وبذخها

وقد انتهت إلينا فى الوقت نفسه بعض المصادر والآثار والمعاصرة ، مثل تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ، وعيون المعارف للقضاعى ، وجزء من تاريخ ابن الصابى ، وكتاب سير البيعة المقدسة . ولتاريخ الانطاكى، وهو مؤرخ وطبيب نصرانى معاصر مصرى فيما يظهر أهمية خاصة ؛ وقد كتبه لأول مرة بمصر فى نهاية القرن الرابع تتمة لتاريخ سعيد بن بطريق ، بطريرك الملكية بالإسكندرية ، الذى انتهى فيه الى سنة ٣٢٦ هـ ؛ واستأنفه حيث وقف سلفه ؛ وأعاد كتابته حسبما يقول لنا فى مقدمته سنة ٤٠٥ هـ عام انتقاله الى مدينة انطاكية ، واستمر فى تدوين الحوادث حتى أواخر عهد الظاهر ؛ ويعنى الانطاكى بالحاكم وعصره عناية خاصة ، وذلك لما لأحداث العصر ، وسياسة الحاكم ازاء الذميين من صلة وثيقة بما أصاب الكنيسة والمجتمع النصرانى من المحن يومئذ ؛ ويبدى الانطاكى فى استعراضه لحوادث العصر اعتدالا واتزانا ودقة تجعل لروايته قيمة خاصة . كذلك يتضمن الأثر الكنسى المخطوط المسمى بسير البيعة المقدسة ، الذى حصلت دار الكتب المصرية أخيرا على نسخة منه نقلا عن مخطوط مكتبة باريس ، والذى هو ذيل لكتاب ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى « سير الآباء البطاركة » حسبما بينا فى موضعه ، عدة أقوال وروايات هامة عن أيام المعز والعزيز والحاكم وضعها بعض الأحبار المعاصرين . واذا كانت هذه الروايات والأقوال الكنسية تطبعها فى الغالب نزعة خاصة من التحامل والاغراق أحيانا ، فان لها مع ذلك قيمتها الخاصة فى شرح موقف الكنيسة وطبيعة العلائق بينها وبين الدولة ، وأحوال المجتمع النصرانى فى ذلك العصر

أما تاريخ القضاعى المسمى « عيون المعارف » فهو استعراض سريع لأخبار الخلفاء حتى سنة ٤٢٢ هـ ؛ بيد أنه يحتوى على رواية هامة عن اختفاء الحاكم بأمر الله ومصرعه ؛ وقد كتب القضاعى هذا التاريخ فى أوائل عهد المستنصر قريباً من العصر الذى نعنى به ، وكان راوية وفقيها ثقة ذا صلة بالقصر وشؤونه

والى جانب هذه الروايات المعاصرة توجد عدة آثار قيمة كتبت بعد ذهاب

الدولة الفاطمية بقليل ، منها كتاب « أخبار الدول المنقطعة » للوزير جمال الدين المصرى المتوفى سنة ٦٢٣ هـ . وبه رواية دقيقة ضافية عن الحاكم وأطواره وبعض أحداث عصره : وكتاب « مرآة الزمان » لشمس الدين يوسف بن قزأوغلى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ؛ وبه أقوال وملاحظات قيمة عن الحاكم : و « تاريخ الاسلام » للحافظ الذهبي المتوفي سنة ٦٧٣ هـ ، وبه أيضاً آراء وتعليقات نفيسة عن الحاكم ، وكتاب « الوفيات » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وبه تراجم للخلفاء الفاطميين ، وتراجم عدة أخرى لكثير من رجالات العصر ، تمتاز جميعها بدقتها وتحقيقها . وربما كان أخص ما تمتاز به هذه الروايات التى كتبت بعد ذهاب الدولة الفاطمية بنحو قرن أو بعضه ، أنها أدركت الروايات المعاصرة واستطاعت أن تمحصها وأن تنتفع بها

وتوجد روايات نصرانية كتبت أيضاً فى تلك الفترة ، منها تاريخ أبى صالح الأرمنى المتوفى فى أواخر القرن السادس ، وهو تاريخ الكنائس والأديار المصرية ، بيد أنه يحتوى على روايات وأقوال كثيرة تتعلق بالحاكم والخلفاء الفاطميين وسياستهم نحو النصارى ؛ وتاريخ المكين ابن العميد المسمى « بتاريخ المسلمين » ، وتاريخ ابن العبرى المسمى « بمختصر تاريخ الدول » ، وقد كتب كلاهما فى أواخر القرن السابع ؛ ولهذه الروايات النصرانية عناية خاصة بأخبار الحاكم وشخصيته

وأما المصادر المتأخرة فلدينا منها عدة هامة فى مقدمتها « نهاية الأرب » للنويرى ، المتوفي سنة ٧٣٣ هـ و « صبح الأعشى » للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ و « الخطط » و « اتعاظ الحنفاء » للقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، و « النجوم الزاهرة » لا بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ . وأهميتها جميعاً فى أنها تنقل الينا الشذور الضافية عن الآثار الفاطمية المعاصرة . ويقدم الينا النويرى رواية ضافية عن الحاكم والخلفاء الفاطميين ، وينقل الينا نصوص الدعوة السرية كاملة ؛ ويعنى القلقشندى عناية خاصة بالحديث عن النظم والرسوم والمواكب الفاطمية ، ويقدم الينا مجموعة نفيسة من الوثائق الرسمية الخلافية والديوانية ، وهى أتم وأثمن مجموعة من نوعها . أما المقريزى فهو بلا ريب أهم وأنفس هذه المراجع المتأخرة ، فهو فضلا عما ينقله الينا فى الخطط من أقوال معاصرى الدولة الفاطمية مثل ابن زولاق والمسبحى والقضاعى وابن الطوير وابن المأمون وغيرهم ، يقدم الينا روايات ضافية محققة عن

الحاكم بأمر الله وعن جميع رجال الدولة والقصر المعاصرين ، وعن جميع الأحداث السياسية والاجتماعية والدينية ، ويقدم الينا عدة فصول رائعة عن الدولة الفاطمية وعن عظمتها وقوتها وبذخها ، وشرحاً وافياً للدعوة السرية الفاطمية ومراتبها وتطوراتها ؛ ثم يقدم الينا فى كتابه « اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء » رواية قوية ضافية عن نشأة الدولة الفاطمية وقيامها بالمغرب ثم فتحها لمصر ، وصراعها مع القرامطة ، وينقل الينا فى كتابيه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة ؛ هذا الى مايقدمه الينا فى الخطط من أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى أيام الحاكم بأمر الله ؛ والخلاصة أن المقريزى يبدى عناية خاصة بكل ما يكتبه عن الدولة الفاطمية والخلفاء الفاطميين ؛ وقد قيل فى ذلك إن المقريزى ينتمى الى الفاطميين ، ويرجع نسبته اليهم . بيد أنه مهما كان السبب فى هذه العناية والإفاضة فإن رواية المقريزى عن العصر الفاطمى هى بلاريب أنفس الروايات المتأخرة وأوثقها

هذا بيان لأهم المصادر التى رجعنا إليها فى دراسة شخصية الحاكم بأمر الله ، واستعراض أحداث عصره ؛ ومن حسن الطالع أن دار الكتب المصرية تحتفظ بجميع الآثار المخطوطة من هذه المصادر ؛ وقد أشرنا إلى ذلك فى مواضعه من الكتاب ، ثم ذكرنا المصادر جميعها مخطوطة ومطبوعة ، شرقية وغربية فى ثبت خاص بها فى نهاية الكتاب

أما القسم الثانى من الكتاب وهو الدعوة السرية الفاطمية ، فقد رجعنا فيه الى مجموعة منوعة أخرى من المصادر الكلامية والمذهبية ؛ وأهم مصادر هذا القسم هو بلا ريب رسائل الدعاة التى تحتفظ دار الكتب منها بعدة مجموعات خطية ثمينة ، وقد كانت هذه المجموعة التى توفرنا على دراستها منذ أعوام عمادنا فى دراسة الدعوة السرية وأصولها ونظريات دعاتها ؛ ومن حسن الطالع أنها تضم جميع الرسائل الأساسية ، ولا ينقصها سوى طائفة أخرى من رسائل ثانوية استعرضناها خلال بحثنا ، وهى توجد فى مجموعة باريس ، وقد أشرنا الى هذه المجموعات فى مواضع الكلام عنها ، وأثبتناها بأرقامها مجتمعة فى ثبت المصادر

هذا وقد رأينا عدا ما أثبتناه خلال حديثنا من الوثائق والسجلات التى صدرت فى مختلف الظروف والمناسبات ، أن نذيل الكتاب بطائفة أخرى من

الوثائق والسجلات الفاطمية لما تضمنته من نصوص وحقائق تاريخية ودستورية هامة ولما تلقيه من ضوء رسمي على بعض نواحي الإمامة الفاطمية وخواص دعوتها؛ وأثبتنا معها من وثائق الدعاة السريين اثنتين إحداهما «السجل المعلق» نقلناه بنصه الكامل عن مجموعة خطية قديمة بدار الكتب، لما فيه من شروح وإشارات تاريخية هامة عن اختفاء الحاكم ومن مزاعم وآراء غريبة للدعاة في هذا الاختفاء؛ والثانية ميثاق ولي الزمان وهو نموذج مدهش من مواثيقهم؛ كذلك أثبتنا في فاتحة الكتاب صوراً لبعض الآثار الفاطمية الخالدة، وبعض صحف المخطوطات النادرة التي رجعنا اليها

ونرى في الختام أن ننوه بحقيقة نرجو ألا تغيب عن الأذهان، وهي أننا قصدنا بهذا البحث الى غاية علمية خالصة. وقد حرصنا أثناء استعراض المسائل المذهبية، على أن نبقى ما استطعنا في دائرة البحث التاريخي؛ فاذا كانت لنا ثمة آراء وتعليقات خاصة فهي ثمرة البحث والنقد الحر، لم تتأثر في ابدائها بأية نزعة أو فكرة مذهبية؛ وهذه حقيقة نرجو أن تقدر قدرها.

محمد عبد الله عنان

القاهرة في المحرم سنة ١٣٥٦
مارس سنة ١٩٣٧

الكتاب الأول

الحاكم بأمر الله

الفصل الأول

مصر وقت الفتح الفاطمى

مركز مصر الممتاز بين ولايات الخلافة . تأثر السياسة الفاطمية بهذه الخاصة . الولاة المتغلبون ونزعتهم الاستقلالية . غلبة الفوضى . فتوة الدولة الفاطمية . طموحها الى فتح مصر . ابن طغج الاخشيد . ولاية كافور . اضطراب شؤون مصر . اتصال الزعماء الناقين بالفاطميين . أثر الفوضى فى نفسية الشعب . الأزمات والمحن . انحلال المجتمع المصرى . حيوية الدولة الفاطمية وصرامتها وتقشفها . استعداد المعز لدين الله لفتح مصر . روعة الحلة الفاطمية . قصيدة ابن هانىء فى وصفها . التمهيد للفتح . زحف الفاطميين على مصر . مهادنة المصريين للفاتح . الأمان الذى أصدره جوهر الى المصريين . الحرب بين الاخشيدية والفاطمية . دخول جوهر مدينة مصر . إنشاء القاهرة والأزهر . قيام الدولة الفاطمية بمصر . الخلفاء الفاطميون ومختلف الأقوال فى نسبتهم .

— ١ —

لبثت مصر منذ الفتح الاسلامى زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، تتوارثها الخلافة أينما حلت : الخلافة العامة ، فالخلافة الأموية ، فالخلافة العباسية . غير أن مصر كانت منذ الفتح تتبوأ بين الولايات الخلافية مركزاً ممتازاً ؛ فقد اتخذت قاعدة لفتح إفريقيــة فالأندلس ؛ وكان ولاتها الأوائل ، ولاة لإفريقية ؛ وكانت أيضاً ، بموقعها الجغرافى ، وأهميتها العمرانية مطمح الزعماء المتغلبين يرون فيها ملاذاً منيعاً للحركات الاستقلالية ؛ فقد وليها فاتحها عمرو بن العاص ولايته الثانية من قبل معاوية ، [1] ولكنه جعل منها وحدة شبه مستقلة ؛ وربما كان في اهتمام عمرو بالبقاء في ولاية مصر وسعيه لدى عثمان فى تحقيق غايته ، ثم اقتطاعها بعد ذلك من معاوية ثمناً لحلفه ومؤازرته ما يحمل على الاعتقاد بأنه لو ثابت لهذا القائد العظيم

---

(١) ولى عمرو إمارة مصر لأول مرة عقب افتتاحها فى سنة ٢٠ هـ فى خلافة عمر ، ثم وليها للمرة الثانية من قبل معاوية سنة ٣٨ – ٤٣ هـ

والسياسى البارع فرصة ملائمة لأنشأ بمصر لنفسه ولعقبه دولة أو خلافة مستقلة . ولما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية ألفى فى انتزاع مصر طعنة قوية يسددها الى صدر الخلافة (١) . ولما تألق نجم بنى العباس وسحقت الخلافة الأموية في موقعة الزاب ، فر مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر ليتخذها قاعدة للدفاع عن ملكه وتراث أسرته ؛ ولعله لم يكن بعيداً عن التفكير في اتخاذ مصر بعد الشام معقلا للخلافة الأموية وقاعدة لاسترداد تراثها الذاهب لو كتب له الظفر على مطارديه

ولما اضمحل سلطان الدولة العباسية وضعفت قبضتها فى النواحى ، غدت مصر طعمة لطائفة من الحكام الأقوياء ، يحكمونها باسم الخلافة ، ولكن ينشئون بها دولا مستقلة ، لا تكاد تربطها بالخلافة أية روابط سياسية أو إدارية ؛ وهم مع ذلك يحرصون على أن يستظلوا بلواء الخلافة وسلطانها الدينى ؛ وكان أسطع مثل لهذه النزعة الاستقلالية قيام الدولة الطولونية ، ثم الدولة الاخشيدية ، تستظل كلتاهما بلواء الخلافة ، ولكن تستأثر دونها بالسلطان والحكم

كانت مصر تتمتع إذن بمركزها الممتاز بين ولايات الخلافة ؛ ولم يكن تمتعها بذلك المركز الخاص الذى يجعلها قبلة مختارة لذوى الطموح والمتغلبين من الولاة ، يسعون الى الامتناع بها والاستقلال بحكمها ، أمر اعرضيا ساقت إليه الحوادث والظروف وحدها ؛ ولكنه يرجع قبل كل شيء الى موقع مصر الجغرافي ، ونأيها عن مركز الخلافة ؛ ثم الى اتساعها وغناها ، وكونها تصلح بمواردها الخاصة لأن تكون مركز دولة مستقلة ، تستطيع وقت الحاجة أن تناهض السلطة المركزية وأن تقاومها للاحتفاظ باستقلالها

ولم تخف على الفاطميين هذه الحقيقة مذ استطاعوا أن ينفذوا بدعوتهم الى إفريقية ، وأن يشيدوا بها دولتهم الأولى على أنقاض ملك الأغالبة ، فاتجهوا بأنظارهم

---

(١) لما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية بالحجاز ودعا لنفسه بالخلافة ، دعا له بمصر جماعة من الخوارج الذين كانوا بها ، وعين من قبله عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم والياً على مصر فدخلها فى شعبان سنة ٦٤ هـ فى جمع كبير من الخوارج ، واستمر على ولايتها بضعة أشهر حتى بعث مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز فى جيش الى مصر ، فلقيه ابن جحدم ولكنه هزم وتنازل عن الامارة ووليها عبد العزيز فى جمادى الآخرة سنة ٦٤ هـ

إلى مصر ، وثابت لهم منذ الساعة الأولى نية في غزوها وامتلاكها ، فغزوها أكثر من مرة ، واستولوا على بعض ثغورها ونواحيها ، ولكنهم ارتدوا يومئذ أمام جند الخلافة وجند مصر . ذلك أن مصر لم تكن يومئذ فريسة هينة للفاتح وإن غدت كذلك وقت الفتح الفاطمى ؛ وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ينظمون مواردها وقواها الدفاعية حين الخطر الداهم ؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يغالبون فى المغرب خطر الانتقاض المستمر ، ويقوم ملكهم الفتى على بركان يضطرم بعناصر الخروج والثورة ، حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار في المهد تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة وذلك فى عهد ثانى خلفائهم القائم بأمر الله[١] .

على أن الخلافة العباسية التى استطاعت فى فورة من القوة فى عهد المكتفى بالله ، أن تسحق الدولة الطولونية الزاهرة وأن تسترد مصر منها (٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م) ، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلى فى مصر . وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسى والدينى فيها : وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزرى ، وذكا الرومى ، وابن كيغلغ ، وابن طغج ، يتمتعون بكثير من الاستقلال ، وربما نزع بعضهم إلى انتزاعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل ، وكما فعل محمد بن طغج (الاخشيد) فيما بعد ؛ وكانت هذه النزعة الاستقلالية ذاتها ، عاملا فى ضعف سلطان الخلافة فى مصر ، وفي المباعدة بينها وبين مصر ، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر النائى ومصايره ؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملا فى حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر وحمايتها من غارات المعتدين عليها والمتطلعين الى امتلاكها . وكان جل اعتمادهم في ذلك على جند مصر ذاته ؛ ولكن الشعب المصرى لم يكن يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب خصوصاً ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعربين ، فكان الزعماء المحليون ينزعون دائماً إلى منافستهم ومناوأتهم ، وكان الجند كثير التمرد والثورة ، يتبرم بأطماع أولئك الزعماء وجشعهم فى استخلاص أرزاقه[٢] ؛ فكان تعاقب الولاة ومنافساتهم فى تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة ، واضطراب الشؤون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة

---

(١) راجع المقريزى ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء ص ٤٧ - ٤٩ ؛ والخطط (الطبعة الاهلية) ج ٢ ص ١٦٣

(٢) راجع الخطط ، ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧

الفوضى ؛ هذه كلها تزيد مصر على ضعفها ضعفها ، وتدفعها الى التطلع الى مصير أفضل من هذا المصير

وبينما كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف ، كانت دولة خصيمة فتية هي الدولة الفاطمية تسير مسرعة الى النماء والتوطد ؛ وكانت القبائل البربرية التي شدت أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة ، تحتفظ في هذا القفر بخشونتها وبأسها بعيدة عن تلك العوامل الرخوة التي تحمل عناصر الهرم والفناء إلى دول ومجتمعات يغمرها تيار الحضر والنعماء والترف ؛ ولم تكن المعركة الهائلة التي اضطرمت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخصيمة ، وكادت تسحقها في المهد ، إلا لتذكى فيها رغبة الحياة وعزم النضال ؛ وقد خرجت من المعركة ظافرة قوية ، ولكنها أدركت فى نفس الوقت فداحة الخطر الذى يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء ؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوخوا قبائل المغرب كله وأن ينفذوا بفتوحاتهم فى المغرب الأقصى حتى المحيط ، فانهم لم يطمئنوا الى البقاء في تلك الوهاد الوعرة ، ولم يعتبروا أنهم وصلوا بأقامة ملكهم فى إفريقية إلى ذروة الأمانى والغايات

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائى درّة خضراء ، وكانت الخلافة الفاطمية تشعر أنها وهى فى مركزها النائى بهذا القفر المجدب ، تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية والمذهبية الكبرى ، أعنى مناجزة الدولة العباسية خصيمتها السياسية والمذهبية ، والعمل على تقويض دعائمها وانتزاع زعامة الاسلام منها ؛ وكانت مصر فى نظرها هى ميدان المعركة الحاسمة التى تتوق الى خوضها مع الدولة العباسية ؛ وكانت بتوسطها العالم الاسلامى ، وبما اكتمل لها من أسباب الخصب والغنى ، هى أصلح مركز لتحقيق هذه الغاية ، وفيها دون غيرها تستطيع الخلافة الفاطمية أن تقيم ملكها السياسى وإمامتها الدينية على أسس قوية باذخة ؛ وقد حاول الفاطميون خوض هذا الصراع الحاسم منذ الساعة الأولى ، فزحفوا على مصر غير مرة كما قدمنا ، وبعث عبيد الله المهدى أول خلفائهم جيوشه لافتتاحها ، فاستولت على برقة والاسكندرية ولكنها ارتدت أمام جند مصر وجند الخلافة (٣٠٢ هـ - ٩١٤ م) ؛ ثم غزت مصر ثانية ، واستولت على الاسكندرية والفيوم ، وأشرفت على عاصمة مصر ،

ولكنها لم تلبث أن ارتدت الى المغرب كرة أخرى . ذلك أن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد ، واستطاعت مصر بجندها وجند الخلافة أن ترد الغزاة ، وشغل الغزاة مدى حين بما يهددهم فى إفريقية ذاتها من خطر الانتقاض والفناء . وفى تلك الفترة تطورت الحوادث فى مصر وسارت الى مرحلة جديدة من الاستقرار فى ظل الخلافة أيضا ، وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة بفوز محمد بن طغج الاخشيد بولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) من قبل الخليفة القاهر ؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بعامين ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر ؛ فلما وليها من قبل القاهر سار اليها من دمشق فى قواته ، فتعرض له أحمد بن كيغلغ حاكم مصر وقتئذ وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف ؛ وقد كان ابن كيغلغ من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون الى الاستقلال بمصر ، ولكن ابن طغج هزمه ودخل مصر ظافراً وتقلد ولايتها ، وأنعم عليه الخليفة بلقب الاخشيد أو (ملك الملوك)

وكان الاخشيد أميراً طموحاً ، وافر الذكاء والشجاعة والعزم ، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشام ومصر ، ولكنه رأى أن ينشىء فيهما لنفسه دولة مستقلة فى ظل الخلافة ، وأسرة ملوكية تتوارث السلطان من بعده ، على مثل ماانتهى إليه ابن طولون بانشاء الدولة الطولونية . وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هى الدولة الاخشيدية تشمل الشام والحرمين ، واستقرت الأحوال بمصر فى ظل الدولة الجديدة ، وانتظمت قواتها الدفاعية ؛ ولكن الخلافة الفاطمية الفتية لم تنبذ مشروعها فى فتح مصر ؛ وفى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٤ م) بعث القائم بأمر الله ثانى الخلفاء الفاطميين جيوشه الى مصر فاستولت على الاسكندرية مرة أخرى ، ولكن جيوش مصر وقفت هذه المرة أيضا فى وجه الغزاة فارتدوا على أعقابهم ، وشغلتهم الثورة الداخلية مدى حين عن المضى فى مشروعهم الضخم ؛ وسطعت الدولة الاخشيدية بمصر مدى حين ، وكادت تنافس فى القوة والبهاء دولة بنى العباس ذاتها ، ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين فى فتح مصر قد خبا . ولكن قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص الى همة منشئها الاخشيد والى قوة خلاله ، فلما توفى الاخشيد (سنة ٣٣٤هـ) ، وخلفه ولده أنوجور على مصر والشام ، ثم

أخوه على بن الاخشيد (سنة ٣٤٩) ، وآل تدبير الأمور في عهدهما الى كافور الاخشيدى خادم أبيهما ، أخذ صرح الدولة الجديدة فى التصدع ؛ ولما توفى على بن الاخشيد انتزع كافور الامارة لنفسه (سنة ٣٥٥) ، وقبض هذا الأسود الخصى مدى حين على مصاير مصر والشام ؛ ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم ، فانه لم يستطع أن يحول دون تسرب العوامل المعنوية والاجتماعية الهدامة التى كانت تقضم أسس الدولة الاخشيدية ، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين ؛ وخلفه في الامارة صبي حفيد للاخشيد هو أحمد بن على بن الاخشيد ، وتولى تدبير الأمور وزير مصر القوى جعفر بن الفرات ؛ ولكن الأمور كانت قد ساءت يومئذ ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب ، وظهرت أمارات الذبول والهرم على الدولة الاخشيدية ولاح لها شبح الفناء جاثما فى الأفق

— ٢ —

وشغلت الدولة الفاطمية فى تلك الفترة بشؤونها الخاصة فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ ٣٣٢ هـ ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث فى مصر بمنتهى العناية ، وكانت تعتمد فى تنفيذ مشروعها على الشعب المصرى ذاته وعلى زعمائه الناقمين على بنى الاخشيد ، وعلى تمرد الجند الساخط لانتقاص أعطيته ؛ وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين الى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيغلغ منهزما أمام الاخشيد ، لسحق الدولة الاخشيدية [1] . ولما توفى كافور ، واضطربت أحوال الدولة ، وتعارضت الآراء فى مسألة الولاية والحكم ، وكثر التنافس على السلطة ، وقلت أعطية الجند ، كتب بعض زعمائه الى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يدعوه الى فتح مصر [2] ، واشترك في هذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة في عهد كافور ، هو يعقوب بن كلس ، وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه إلى السجن وصادر أمواله فما زال يسعى حتى أفرج عنه ، وفر من مصر الى المغرب ودعا المعز الى فتح مصر ، ووصف له خصبها

(١) الخطط ، ج ٢ ص ١٢٧

(٢) ابن خلكان فى ترجمة القائد جوهر ، ج ١ ص ١٤٨

وغناها ، وضعفها واضطراب أحوالها (١) ، وقد كان لابن كلس هذا فيما بعد أعظم شأن فى الدولة الفاطمية بمصر فى عهد المعز وولده العزيز

وقد رأى الفاطميون فى موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد بنى الاخشيد ، ولم يفتهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التى سرت سراعا الى قوى مصر المادية والمعنوية . والواقع أن مصر كانت تعانى من تقلب الزعماء والدول أسوأ الآثار فى مواردها ، وفى نظمها الاجتماعية ، وأحوالها المعنوية ؛ وكانت تلك القوة التى تسبغها الزعامة المؤقتة على مركزها خلباً ، وكان الشعب مطية المتغلب يسوقه الى الحرب أو السلام طبق أهوائه ، ويستنفد موارده وأرزاقه فى بذخه ومشاريعه ؛ وكانت العاطفة القومية تتبرم بهذه السيادة الأجنبية التى تمثلها قصور لا تصطبغ بصبغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية : كذلك كانت الأزمات الاقتصادية الخطيرة التى تنتهى غالباً بالغلاء والوباء تفعل فعلها فى إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس ؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمى (سنة ٣٥٨ هـ) تعانى مصائب الغلاء والوباء ، ويقال إنها فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ستمائة ألف (٢) وكان ذلك بلا ريب عاملا فى إضعاف قواها الدفاعية وفى زهدها في النضال والمقاومة . أضف إلى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعى الشامل ؛ وقد انتهت إلينا فى ذلك رواية إذا صحت فانها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية فى إذكاء همة الفاطميين لفتح مصر ؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت الى مصر صبية للبيع ، فعرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الاخشيد محمد بن طغج وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان ؛ فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها ، فدعا المعز شيوخ القبائل ، وروى الوكيل لهم حادث الصبية ، وعندئذ قال المعز : يا إخواننا انهضوا الى مصر فلن

---

(١) ابن خلكان ، ج ٢ ص ٤٤٠

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ص ١٣٤

يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت النيرة منهم ، فانهضوا بنا إليهم (١)

وفى هذه الأقوال التى ينسب قولها عن مصر للمعز لدين الله صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الرخو من عناصر الهدم . وقد كان هذا شأن المجتمع المصرى فى خاتمة كل فترة من النهوض والقوة : ففى نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصرى ، بعد فترة قصيرة من الفتوة والبهاء والقوة ، إلى طور من الانحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسية ، وقد كان هذا شأنه فى خاتمة الدولة الاخشيدية التى سطعت فى عهد مؤسسها لمدى قصير فقط . وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرت فى قفار المغرب ، فى مهاد البساطة والخشونة والفتوة ، وانتهت فى هذا الوقت الذى أزمع الخليفة الفاطمى فيه فتح مصر ، الى ذروة القوة والفتوة والرجولة إذا صح التعبير . وإليك رواية عن المعز تقدم إلينا صورة قوية مؤثرة عن تلك الروح الخشنة الوثابة التى امتازت بها الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من حياتها : استدعى المعز فى يوم بارد الى قصره بالمنصورية عدة من شيوخ كتامة ، وأمر بادخالهم من باب خاص ، فاذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ، فقال يا إخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وإنها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى إخواننا يظنون انا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ، وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لابد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم ، وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم ، فافعلوا يا شيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا

(١) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٦٦ ، واتعاظ الحنفا ص ٦٤

التكبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى ، كتحنني عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل ، وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ، انهضوا رحمكم الله ونصركم (١)

— ٣ —

كانت الدولة الفاطمية تضطرم بهذا الروح الوثاب ، وهذه الخلال البدوية النقية حينما اعتزم المعز لدين الله فتح مصر ، وكانت هذه الروح والخلال هى دعامة الدولة الجديدة ، نشأت فى مهدها ، كما تنشأ معظم الدول المغامرة التى تجد فى قفار المغرب خير ميدان لطالعها ونشاطها . وكانت هذه الاسبارطية (٢) الصارمة تطبع تصرفات الغزاة منذ البداية ؛ وبينما كان أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين وطليعة دولتهم يزحف بعصبته من البربر على بنى الأغلب لينتزع ملكهم ، كان زيادة الله ابن الأغلب مكباً على لهوه ومسراته (٣) ، ولم يك ثمة شك فى مصير ملك يغشاه مثل هذا الانحلال فى الروح وفى الخلال . ولما تم الظفر لأبى عبد الله ودخل رقادة عاصمة الأغالبة ، واحتوى على تراث بنى الأغلب ، عرضت عليه جوارى ابن الأغلب وفيهن عدة فائقات الحسن ، فلم ينظر الى واحدة منهن ، وأمر لهن بما يصلح شأنهن (٤) وأقام على ما كان عليه من تقشف بالغ وخشونة فى المأكل والملبس ، ولم تزد إقامته في القصر الأنيق على إقامة القفر الساذج (٥)

---

(١) المقريزى ، الخطط ج ١ ص ١٦٤ واتعاظ الحنفاء ص ٦٠ و ٦١

(٢) نسبة إلى اسبارطة من حواضر اليونان القديمة ، وقد اشتهرت بنوع من التربية الخشنة الصارمة كانت تفرضه على أبنائها منذ الحداثة حتى يشبوا جنداً أقوياء يغالبون كل ضروب المشاق

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ٣٦

(٤) اتعاظ الحنفاء ص ٣٧

(٥) اتعاظ الحنفاء ص ٣٨

ولما اعتزم المعز أن يحقق أمنية أسرته في افتتاح مصر ، استعد لذلك استعداداً عظيما ، وحشد كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال ، وعهد بتلك الحملة الزاخرة إلى أعظم قواده جوهر الصقلي ; وكان المعز قوى الأمل فى التغلب على مصر ، وكان يعرف من طلائعه وعيونه مبلغ ما انتهت إليه من التفكك والضعف عقب موت كافور ، بيد أنه لم يدخر عدة فى الرجال أو المال ؛ واليك رواية توضح لنا ضخامة هذه الأهبة : استدعى المعز يوما أبا جعفر حسين بن مهذب متولى بيت المال ، وهو في وسط القصر ، وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف صناديق مبددة ، فقال له : هذه صناديق مال ، وقد شذ عنى ترتيبها ، قال الحسين ، فأخذت أجمعها حتى رتبت ، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين ، فلما رتبت أمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها ، وأن يغلق عليها ويختم بخاتمه ، وقال : قد خرجت عن خاتمنا وصارت اليك ، فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، وكان ذلك فى سنة ٣٥٧ هـ ، فأنفقت جميعها على الحملة التى سيرها إلى مصر (١) ، ويقال إن الحملة الفاطمية على مصر بلغت نيفاً ومائة ألف فارس ، غير الجند المشاة (٢) ، وهى قوة زاخرة تقتضى لكى تقطع هذا القفر الشاسع بين إفريقية ومصر بعددها وعددها جهوداً جبارة ؛ ولقد أذكى منظر تلك القوى الجرارة وأهباتها الهائلة وقت خروجها من القيروان الى مصر فى يوم من أيام ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ خيال شاعر معاصر هو ابن هانىء الاندلسى (٣) فأنشد فى وصفها :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع

---

(١) الخطط ج ٢ ص ١٦٤

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ١ ص ١٤٨

(٣) هو محمد بن هانىء ولد باشبيلية سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ الحداثة ببراعة شعره وروعة افتتانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة ، فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية والمعز يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته ، ولما سار المعز الى مصر ، سار ابن هانىء للحاق به ولكنه توفى فى طريقه سنة ٣٦٢ هـ

ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنا وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المـــال حيث محله وجم العطـــايا والرواق المرفع
وكبرت الفرســـان لله إذ بدا وظل الســـلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ورق كما رق الصبـــاح الملمع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة بأيمن فأل فى الذى أنت تجمع
فان يك في مصر ظمأ لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لا يغار بنعمة فيسلبهم لكن يزيد فيوســـع

ولم تمض أسابيع قلائل حتى سرت الأنباء فى مصر بمقدم العساكر الفاطمية؛ ولم يكن مشروع الفاطميين فى فتح مصر مجهولا ، وكان للمعز بمصر دعاة يبثون دعوته خفية ، ويبشرون بالفتح الفاطمى (١) . ولم يك ثمة ما تخشاه الأمة المصرية من هذا الفتح ، خصوصاً بعد الذى شهدته من عسف الجند العباسيين ، وطغيان الولاة المستعربين ، وما انتهت اليه شؤونها فى أواخر عهد الدولة الاخشيدية من الاضطراب والفوضى ، وما توالى عليهـا من محن الغلاء والوباء ؛ ولقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصى هو كافور ، وكان لهذا الحادث الفذ فى تاريخ مصر الاسلامية ، بلا ريب ، وقع عميق فى جرح الشعور القومى ؛ وكانت الدولة الفاطمية تجذب اليها الأنظار بقوتها وغناها ، وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية ، تستظل بلواء الامامة الاسلامية كالدولة الفاطمية ، على الاستمرار فى معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعيـة ؛ وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم الى مصر ، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتـح المنشود على خير الوجوه

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطميـة الى الاراضى المصرية ، اشتد الاضطراب فى مصر ، وكثر الخلاف فى الرأى ، فرأى جماعة من الزعماء والجنـد من أنصار بنى الاخشيد وكافور ، أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف ، وأخذوا يتأهبون للقتال ، ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ،

(١) اتعاظ الحنفاء ص ٦٦

وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة ؛ وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى أن يكون سفيرهم لدى الفاتح فأجابهم إلى ذلك ، وسار على رأس جماعة من وجوه مصر إلى لقاء جوهر ، فلقيه على مقربة من الاسكندرية ، في قرية تعرف بأتروجه ، (أواخر رجب سنة ٣٥٨) فاغتبط جوهر بمقدمهم ، وأجابهم الى ماطلبوا وكتب لهم أماناً يعتبر وثيقة هامة في الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ، وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر ويقول لأهلها : « إن أمير المؤمنين لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتكم الأيدى ، واستطال عليكم المستذل ، وألمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر المنصورة ، وبادر بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصايب وتتابعت الرزايا »

ثم يشير جوهر إلى ما أوعز به أمير المؤمنين « من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق وإغاثة المظلوم مع الشفقة والاحسان وجميل النظر ، وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقاد الأحوال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم » وما أمر به مولاه « من اسقاط الرسوم الجايرة ، وأن أجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية ، وأن أتقدم فى رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم . . »

ويشير جوهر بعد ذلك إلى المسألة الدينية ، فيقول « إن الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه

سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد، على ما أمر الله فى كتابه، ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه، ولكم على أمان الله التام العام الدائم، المتصل الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام، وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم، وأهليكم ونعمكم، وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم.. وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون.. الخ»، ويختتم جوهر أمانه بدعوة المصريين الى لقائه والسلام عليه، والتزام الطاعة لأمير المؤمنين (١)

وفى هذا الامان الذى أصدره جوهر لأهل مصر، فضلا عن التنويه بما سرى الى شؤون الحكم من فساد، وما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب، وما يزمعه أمير المؤمنين من إقامة العدل وتأييد الشريعة واصلاح المرافق والشؤون، إشارة ظاهرة الى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا الشام يومئذ، وأخذوا يهددون مصر؛ وقد كان الخطر حقيقياً لا ريب فيه، ولو لم يبادر الفاطميون إلى احتلال مصر، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة في يد أولئك الغزاة السفاكين، بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين حتّى اضطروا الى لقاء القرامطة فى أرض مصر ذاتها ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد

على أن جوهراً اضطر مع ذلك الى خوض بعض المعارك قبل أن يتم فتح مصر؛ ذلك أن فلول الاخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان، وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب، فاختاروا لهم أميراً، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة، ولما وصل الجيش الفاطمى الى الجيزة ألفى القوى الخصيمة تتهيأ لرده عن عبور النيل، فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضاً، ونشب القتال بين الفريقين، فانهزم الاخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير، ولاذوا بالفرار، وتم الفتح الفاطمى لمصر (منتصف شعبان سنة ٣٥٨)

واستجاب جوهر إلى رغبة المصريين كرة أخرى، فجدد لهم الأمان، وذهب الوزير ابن الفرات، والشريف أبو جعفر الى لقائه على رأس العلماء والكبراء،

---

(١) راجع نص هذه الوثيقة بأكمله فى اتعاظ الحنفاء ص ٦٧ - ٧٠، وقد أثبتناه فى نهاية الكتاب

وسار جوهر في ركبه المظفر الى عاصمة مصر فى عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ (٧ يولية سنة ٩٦٩ م) « وعليه ثوب ديباج مثقل ، وتحته فرس أصفر»(١) ، وشق مدينة مصر (الفسطاط) ونزل في بسيط شاسع يقع في ظاهرها من الشمال الغربى ؛ وفي مساء نفس اليوم الذى تم فيه ذلك الفتح العظيم ، وضع جوهر تنفيذاً لأوامر سيده المعز ، فى نفس المكان الذى نزل فيه ، خطط المدينة الجديدة التى قرر الفاطميون إنشاءها لتكون لهم فى مصر قاعدة ومعقلا ، وحفر أساس القصر الفاطمى في وسطها ، فكان هذا مولد العاصمة الجديدة التى سميت بالقاهرة المعزية نسبة الى المعز ، وتفاؤلا وتيمناً بالنصر (١٧ شعبان سنة ٣٥٨) وأعدت القاهرة لتكون منزل الخلافة الفاطمية وقاعدة ملكها ، ثم اختط بها جوهر الجامع الأزهر بعد ذلك بأشهر قلائل (جمادى الاولى سنة ٣٥٩) ليكون الى جانب العاصمة الجديدة رمزاً للدعوة الفاطمية ، ومنبراً للأمامة الجديدة

وبعث جوهر البشرى الى مولاه المعز بالفتح العظيم فوصلته فى منتصف رمضان ؛ وأنشد ابن هانىء بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر   فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر   تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

وفي الحال أمر جوهر بقطع الدعوة العباسية من منابر مصر والشام ، وحرم لبس السواد شعار بنى العباس ، وبدأت الدعوة للخليفة الفاطمى ، واستمرت حتى انقراض الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ ﻫ ، ثم أمر جوهر بعد ذلك بتغيير الأذان وأن يؤذن « بحى على خير العمل » وكان انقراض الدعوة العباسية بمصر في عهد الخليفة المطيع لله بعد أن لبثت بمصر زهاء قرنين وربع قرن

وهكذا حقق مشروع الخلافة الفاطمية فى افتتاح مصر ، ومنذ السابع من رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) وهو تاريخ مقدم المعز لدين الله الى مصر ، تغدو القاهرة منزل الخلافة الفاطمية ، بدلا من رقادة والمهدية ، وتغدو مصر معقل الخلافة الفاطمية وملاذها بدلا من المغرب . ولم تكن مصر للفاطميين غنما سياسياً فقط ، ولكنها غدت أيضاً معقلا للدعوة الشيعية التى لبث بنو العباس يطاردونها

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

زهاء قرنين ، والتى بدأت ظفرها السياسى بافتتاح المغرب . وكانت الدولة الفاطمية منذ قيامها بمصر تحتفظ بنفس الصبغة المذهبية العميقة التى اتشحت بها منذ قيامها بالمغرب ، وكانت هـذه الصبغة المذهبية الخاصة عنصراً من أهم عناصر الخصومة السياسية التى نشبت بين الدولتين العباسية والفاطمية ، فالفاطميون الذين يرجعون نسبهم الى فاطمة وعلى يختصون خلافتهم بالصفة الشرعية ، ويعتبرون الدولة العباسية وريثة الدولة الأموية غاصبة للامامة والخلافة اللتين اغتصبهما من قبل بنو أمية من على وأبنائه ، ويتخذون من هذا المبدأ دعامة لامامتهم الدينية وملكهم السياسى ، فهم حسب دعواهم أبناء فاطمة بنت الرسول ، وورثة على وعقبه الشرعيون فى إمامة المسلمين وخلافتهم

وهنا تعرض نقطة دقيقة . من هم فى الواقع أولئك الفاطميون ؟ وهل يرجع أصلهم حقا الى فاطمة وعلى ؟ هذه مسألة يحيط بها الخفاء والغموض ، ولم يقل فيها التاريخ كلمته الحاسمة ؛ وقد لبثت مدى عصور موضع الخلاف والجدل فى العالم الاسلامى والرواية الاسلامية ؛ ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد الفاطميين في دعواهم وفى شرعية إمامتهم ؛ ويرجع نسبة إمامهم ومؤسس دولتهم عبيد الله المهدى الى الحسين بن على وفاطمة بنت الرسول . ولكن فريقا آخر ينكر عليهم هذه الدعوى ويرى أنهم أدعياء لا يمتون بصلة الى على وعقبه ، وأنهم إنما استتروا بالتشيع والامامة ليكسبوا عطف العالم الاسلامى . ويرجع هـذا الفريق المنكر نسبة الفاطميين الى عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى ، وهو فقيه وافر الذكاء والمعرفة من الأهواز يرجع الى أصل مجوسى ، وداعية من أعظم الدعاة السريين الذين عرفهم التاريخ ؛ وقد كان يدعو سراً الى مذهب فلسفى إلحادى لانكار الأديان والنبوة صاغه فى تسع دعوات سرية ينتهى الداخل فيها الى إنكار جميع العقائد والشرائع ، ومنها استمدت دعوة القرامطة وبعثت ثورتهم الاباحية المروعة (١) وكان يستتر بالتشيع ويدعو لامام من آل البيت هو محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسين بن على ؛ فلما توفى قام بدعوته السرية ولده أحمد ، ومن بعد أحمد ولده الحسين فأخوه سعيد ؛ واستقر سعيد بسلمية من

(١) سنعرض الى هذا الموضوع بافاضة فى القسم الثانى من الكتاب

أعمال حمص ، واستمر فى نشر الدعوة وبث الدعاة حتى استفحل أمره وأمر دعوته ، وحاول الخليفة المكتفى بالله أن يقبض عليه وأن يخمد دعوته ففر الى المغرب ، وبشر له هناك دعاته وقاتلوا من أجله حتى ظفر بملك الأغالبة وتلقب بعبيد الله المهدى ، وادعى أنه من آل البيت وانتحل إمامتهم . ويقدم إلينا فريق آخر من المنكرين عن أصل عبيد الله ، رواية خلاصتها أن الحسين حفيد عبدالله بن ميمون هو الذى استقر بسلمية ، وكانت له زوجة يهودية رائعة الحسن تزوجها بعد أن مات عنها زوجها الأول وهو يهودى ، ولها منه ولد فائق الذكاء والظرف ، فتبناه الحسين وعلمه وأدبه ولقنه أسرار الدعوة ، وتقدم الى أصحابه بخدمته وطاعته ، وزعم أنه هو الامام وهو الوصى ، وانتحل له نسبا فى ولد على ، فكان هو عبيد الله المهدى ؛ وهنالك روايات صريحة فى أصل الفاطميين المجوسى أو اليهودى ، فمثلا يقول لنا القاضى أبو بكر الباقلانى « إن القداح جد عبيد الله كان مجوسياً ، ودخل عبيد الله المغرب وادعى أنه علوى ، ولم يعرفه أحد من علماء النسب ، وكان باطنياً خبيثاً حريصاً على إزالة ملة الاسلام . . . وكان القداح كاذباً مخترقاً ، وهو أصل دعاة القرامطة » ، ويقول القاضى عبد الجبار البصرى إن « اسم جد الخلفاء المصريين سعيد ، ويلقب بالمهدى ، وكان أبوه يهودياً حداداً بسلمية ، ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح » . وهنالك ايضا من يقول إن عبيد الله هو ولد الحسين من زوجه اليهودية ، وهنالك روايات وتفاصيل أخرى لا يتسع لها المقام (١)

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه المسألة . ابن الأثير ج ٨ ، ٩ ، ١٢ ، وابن خلدون ، المقدمة ص١٧ - ١٩ والمقريزى فى الخطط ج ٢ ص ١٥٨ - ١٦٠ ، وفى اتعاظ الحنفاء ص ١٢ - ٢٨ ويؤيد هؤلاء الثلاثة نسبة الفاطميين الى آل البيت ، ويبدى ابن خلدون بالأخص حماسة ظاهرة فى التدليل على ذلك وفى تفنيد حجج المنكرين ، ويحذو حذوه المقريزى وهو ممن ينتسبون إلى الفاطميين وذلك بعد أن يورد روايات المنكرين ويتبرأ منها . ويفسر ابن حجر حماسة ابن خلدون فى تأييد نسب الفاطميين بتفسير آخر هو أنه لانحرافه عن آل البيت يثبت نسب الفاطميين إليهم ليكون ذلك معرة لهم لما اشتهر عن الفاطميين من سوء العقيدة وكون بعضهم ينسب الى الالحاد والزندقة (راجع رفع الأصر عن قضاة مصر ، مخطوط بدار الكتب المصرية الورقة ١٦) وابن حجر من المنكرين لنسب الفاطميين ، ومنهم أيضا ابن خلكان (راجع الوفيات ج ١ ص ٢٤٢) . وراجع النجوم الزاهرة حيث يورد مختلف الروايات ج ٤ ص ٧٥ — ٧٩ ، ويبدى العلامة المستشرق دوزى ريبه فى نسب الفاطميين : Essai sur l'Islamisme 276-77.

وهذا الجدل حول نسب الفاطميين ، والطعن فيهم وفي شرعية إمامتهم ومبادئهم يشغل فراغاً كبيراً فى الكتب المذهبية ؛ ونحن ممن يميل الى الأخذ برواية المنكرين ، ولا نجد فى تدليل المؤيدين وشروحهم ما يلقى ضياء مقنعاً ؛ وكان هذا الطعن سلاحاً فى يد الدولة العباسية تشهره للنيل من الفاطميين وتشويه سمعتهم فى العالم الاسلامى ، وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية ؛ ففى سنة ٤٠٢ هـ في عهد الخليفة القادر بالله . أصدر بلاط بغداد محضراً رسمياً موقعاً عليه من كبار الفقهاء والقضاة ، وبعض زعماء الشيعة ، يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وأنهم ليسوا من آل البيت ، بل هم ديصانية ينتسبون الى ميمون بن ديصان ، بل إنهم كفار زنادقة ، وفساق ملاحدة ، أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمور ، وسبوا الأنبياء ، وادعوا الربوبية . وفى سنة ٤٤٤ هـ ، كتب ببغداد محضر آخر يتضمن نفس المطاعن ، وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون الى أصل يهودى أو مجوسى[١]. ونلاحظ أن الوثيقة الأولى صدرت من بلاط بغداد ، في عهد الحاكم بأمر الله ، وقد كان في تصرفاته ، وفي ظروف عصره ، ما يصلح مادة غزيرة لهذه المطاعن

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٤٢ ، وابو الفدا ج ٢ ص ١٤٣ وابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٥ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩

الفصل الثاني

المعـــز والعـــزيز

الدولة الجديدة . خطر القرامطة على مصر . مقدم المعز لدين الله الى مصر . نزوله بالقاهرة . قيام الخلافة الفاطمية والامامة المذهبية بمصر . نسب المعز وحسبه . زحف القرامطة وافتكين على مصر . غزو البيزنطيين لثغور الشام . وفاة المعز وخلافة العزيز بالله . اصطفاء العزيز للترك والصقالبة . اصطفاؤه للنصارى واليهود . استئثار الذميين بالسلطة والنفوذ . تحول العزيز عن هذه السياسة . الحرب بين العزيز والقرامطة . حوادث الشام . تحالف بني حمدان مع البيزنطيين . الحرب بين المصريين والبيزنطيين . مسير بنجوتكين الى حلب . غزو باسيل الثاني لثغور الشام . وفاة العزيز بالله

قامت القاهرة عاصمة الدولة الجديدة بسرعة ، وأعدت بقصورها ومسجدها الجامع (الجامع الأزهر) لتكون منزلا ملوكياً لبني عبيد وموئلا للخلافة الفاطمية ، وبدأ الحكم الفاطمي بمصر على يد مبعوث المعز وقائده جوهر ؛ وكان خطر القرامطة الذي أشار إليه جوهر في رسالته لأهل مصر يشتد ويتفاقم ، وينذر مصر بالويل والدمار ، وملك الفاطميين بالفناء العاجل . وكان القرامطة يتوقون الى افتتاح هذا القطر الغنى قبل أن يتوطد فيه سلطان الدولة الجديدة ، وكان ظفرهم المتوالى فى الشام يذكى أطماعهم ويشحذ عزائمهم : ومما ينسب الى زعيمهم الحسن فى ذلك شعر يقول فيه :

زعمت رجال الغرب أنى هبتها ... فدمى إذن ما بينهم مطلول

يامصر إن لم أسق أرضك من دم ... يروى ثراك فلا سقانى النيل

وزحف القرامطة على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ هـ بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم . ونشبت بينهم وبين الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر معارك هائلة في ظاهر الخندق (على مقربة من القاهرة) انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشام . ولما رأى المعز أن ملكه الجديد قد توطد بمصر ، سار من إفريقية الى مصر بأهله وأمواله فى ركب هائل تفيض الرواية المعاصرة فى وصف ضخامته

وروعته (١) . فوصل الى الاسكندرية عن طريق برقة ، فى ٢٤ شعبان سنة ٣٦٢ ، وهرع وفد من أكابر المصريين الى لقائه وتحيته عند المنارة ، فقال لهم « إنه لم يسر الى مصر لازدياد في الملك أو المال ، وإنما سار رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين وإقامة الحق والسنة » (٢) . ودخل المعز القاهرة ، عاصمته الجديدة في أوائل رمضان ، ولما وصل الى قصره خر ساجداً فى مجلسه شكراً لله ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل (٣) ، وسطعت فى الحال آيات من عظمة الملك الجديد

وبذا استقرت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبدأت زعامتها الدينية فى الشرق ؛ وكانت الامامة الدينية أخص الصفات التى تبدو بها الخلافة الجديدة . وكان المعز لدين الله يحرص جد الحرص على صفة الامامة ورسومها ؛ بيد أن الفاطميين قدموا الى مصر يحيط بنسبتهم وإمامتهم نفس الريب الذى أحاط بهما منذ قيام دولتهم فى المغرب ، وقد أثيرت هذه المسألة عند مقدم المعز إذ اجتمع به جماعة من الأشراف العلويين الذين ينتسبون الى على وفاطمة ، فسأله الشريف عبد الله بن طباطبا عن نسبه ، فأجابه المعز انه سيعقد مجلساً ويتلو عليهم نسبه . ثم عقد المعز مجلسه بالقصر ودعا إليه الكبراء ، وسل نصف سيفه من غمده وقال لهم هـذا نسبي ، ونثر عليهم ذهباً كثيراً ، وقال هذا حسبي ، فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ! (٤) ، وفي ذلك ما يدل على اعتداد الدولة الجديدة بقوتها وجاهها ، قبل اعتمادها على إمامتها وهيبة انتسابها لآل البيت ، وإن كانت قد اتخـــذت الامامة شعارها لدى الكافة منذ الساعة الأولى ، وأقامت ملكها السياسى على أسس دعوتها الدينية

وكان عهـد المعز بمصر عهد توطيـد ودفاع عن الملك الفتى ، وكانت جيوش المعز ، قد افتتحت الشأم كما افتتحت مصر ، واستقر فيها نائبه جعفر بن فلاح ، ودعا له بنو حمدان فى حلب ، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب الى شمال الشأم . ولكن خطر القرامطة كان ما يزال جاثماً فى الأفق ينذر الدولة الجديدة بالمحو والفنـاء ، ولم يمض بعيـد حتى انتزع القرامطة الشأم من يد ابن فلاح نائب

---

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ ، واتعاظ الحنفاء ص ٨٨

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ٩٠

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٧

المعز ، ثم زحفوا على مصر بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم مرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس في أواخر سنة ٣٦٣ هـ وأوقعت بهم هزيمة فادحة ؛ بيد أنها لم تكن خاتمة النضال ، فقد لبث القرامطة قوة يخشى بأسها ؛ وكان البيزنطيون (الروم) قد انتهزوا هذه الفرصة فغزوا شمال الشأم ، واستولوا على أنطاكية ، فبعث المعز جيوشه لقتالهم ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة بجوار طرابلس (٣٦٤ هـ) دارت فيها الدائرة على الفاطميين ؛ وتحالف الروم مع أفتكين التركى (١) المتغلب على دمشق ، فسار إليهم عندئذ ريان والى طرابلس فى جيش ضخم ومزق شملهم ، ووصلت أنباء هذا النصر الى المعز فى مرض موته ، ولم يمض طويل حتى توفى فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م) . بيد أنه لم يغادر هذه الحياة حتى كانت الخلافة الفاطمية تبسط سلطانها وإمامتها على المغرب ومصر والشام والحرمين.

وخلف المعز ولده العزيز بالله ، أبو منصور نزار ، ولبث فى الخلافة إحدى وعشرين سنة ؛ وكانت الدولة الفاطمية تعتمد منذ نشأتها حتى عهد المعز لدين الله على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية ، وتصطفى زعماءها لمناصب الثقة والنفوذ مع استثناءات قليلة فى اصطفاء الموالى من الترك والصقالبة ، ولكنها مالت في عهد العزيز الى اصطناع الموالى ، واختار العزيز عدة منهم لمناصب الثقة والقيادة ، فولى بنجوتكين التركى القيادة وولاية دمشق ، ووفيا الصقلبى حكم عكا ، وبشارة الاخشيدى حكم طبرية ، ورباحا حكم غزة . وولى برجوان امارة القصر ، فكان له أعظم شأن فيما بعد؛ وأذكى هذا الاصطفاء للترك عوامل الحسد والنضال بين الترك والمغاربة (٢) ومال العزيز أيضاً الى اصطناع اليهود والنصارى ؛ وكان الوزير أبو الفرج يعقوب ابن كلس أول وزراء الدولة الفاطمية بمصر وأعظمهم شأناً ؛ وكان يهودياً فأسلم فى

(١) هو ابو منصور افتكين او هفتكين التركى الشرابى غلام معز الدولة بن بويه المتغلب على حكومة بغداد وكان من أكابر الجند ذوى النفوذ فى بلاط بغداد ، ولكنه هزم فى بعض الحروب الداخلية ، ففر فى بقية من جنده الى الشام ، واستطاع بمؤازرة بعض العناصر الناقمة فى دمشق أن يستولى على المدينة ، وأن ينتزعها من حاميتها الفاطمية ، ودعا افتكين فى دمشق للخليفة العباسى واستقدم اليه القرامطة ، وتحالف معهم على غزو مصر ، ولكنه فشل فى مشروعه على ما نوضح بعد

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٧ ، وخطط المقريزى ج ٣ ص ١٧

عهد كافور الأخشيدى ، واتصل بالمعز قبل افتتاح مصر ، وعاونه فى تدبير الفتح كما قدمنا ؛ ووزر ابن كلس للمعز ثم لابنه العزيز من بعده زهاء اثنى عشر عاما ، وكان أعظم رجال الدولة الفاطمية وأبعدهم نفوذاً ؛ وتولى الوزارة فى عهد العزيز أيضاً عيسى بن نسطورس النصرانى ومنشا اليهودى ؛ وكان طبيب العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده ، نصرانى يدعى أبو الفتح منصور بن مقشر المصرى ، وكانت له منزلة سامية فى الدولة (١) . وكانت السياسة الفاطمية تذهب الى أبعد حد من التسامح نحو الذميين ؛ وفي بعض الروايات أن الخلفاء الفاطميين كانوا يشجعون إقامة الكنائس والبيع والاديار ، بل ربما تولوا إقامتها بأنفسهم أحياناً (٢)

وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته فى عصر العزيز ، واستولى الوزراء والكتاب الذميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ؛ وقد كان لهذا التسامح المغرق أثر سيء فى المجتمع المصرى ؛ وتنقل الرواية الينا فى ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم فى طريق الركب الخلافى امرأة تمد يدها برقعة كأنها ظلامة ، فتناولها ، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد البس إزاراً ، وإذا فى الرقعة ما يأتى : « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك الا ما كشفت ظلامتى .. » فأدرك العزيز ما انتهت اليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية فى شؤونه ؛ وسواء أصحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى ، فان هذه السياسة لم تلبث أن أثارت عاصفة من السخط ولم يلبث أن أدرك العزيز خطرها على سلطان الخلافة وهيبة امامتها المذهبية ، فانقلب الى مطاردة الذميين ، وقبض على ابن نسطورس وزملائه من الوزراء والكتاب الذميين ، ولكنه عاد فأفرج عنهم بتأثير ابنته سيدة الملك (ست الملك) وتأثير زوجه النصرانية بعد أن اتخذ بعض الضمانات التى تكفل الحد من طغيانهم وإسرافهم فى سياسة الاصطفاء ، واشترط على ابن نسطورس أن يولى المسلمين فى الدواوين (٣) وسنرى ماذا كان من تأثير هذه السياسة فى عصر الحاكم بأمر الله

---

(١) ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول (طبعة اليسوعيين) ص ٣١٦

(٢) ابو صالح الأرمنى ، ٣٩ ا (فوليو) و ٤١ ا

(٣) الوزير جمال الدين فى أخبار الدول المنقطعة (مخطوط فتوغرافى بدار الكتب رقم ٨٩٠ تاريخ) . وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠

وفى أوائل عهد العزيز زحف القرامطة وحليفهم افتكين على مصر مرة أخرى ، فلقيتهم جيوش العزيز بقيادة جوهر بالرملة من أعمال فلسطين وردتهم نحو الشمال ، وزحف جوهر الى دمشق ولكنه لم يستطع افتتاحها ، فارتد الى الجنوب ، فداهمه القرامطة فى عسقلان ووقعت بين الفريقين معارك عديدة ارتد جوهر على أثرها الى مصر ؛ فسار العزيز بنفسه الى لقاء القرامطة وقاتلهم فى الرملة قتال شديداً وهزمهم وأسر افتكين ، ولكنه عفا عنه (سنة ٣٦٨ ﻫ - ٩٧٨ م)

وعنى العزيز بشؤون الشام ، فاختار لولايتها غلامه بنجوتكين التركى وقدمه على الجيش ليحاول فتح حلب إجابة لدعوة بعض زعمائها الناقين ؛ فسار بنجوتكين الى دمشق ، وبعد أن نظم شؤونها سار الى حلب وأميرها يومئذ أبو الفضائل بن حمدان حفيد سيف الدولة أميرها الأشهر؛ وكان بنو حمدان حينما رأوا توغل الفاطميين في الشام قد تحالفوا مع باسيل الثانى امبراطور قسطنطينية وأعلنوا له الخضوع وقبلوا أداء الجزية ، فلما زحف الجند الفاطمى على الشام استغاث أبو الفضائل ووزيره لؤلؤ بالامبراطور ، وكان باسيل الثانى يومئذ مشتغلا بمحاربة البلغاريين ، فأرسل الى قائده بانطاكية نيقفوروس أورانوس (ويعرف في الرواية العربية بالبرجى) بمحاربة المصريين وردهم عن حلب ، فالتقى المصريون بالبيزنطيين على ضفاف نهر « الأرند » أو نهر العاصى ، ونشبت بين الجيشين معركة طاحنة هزم فيها البيزنطيون وأسر قائدهم ، وطاردهم المصريون حتى أنطاكية وقتلوا منهم مقتلة عظيمة (٣٨١ ﻫ - ٩٩١ م) ، وسار بنجوتكين بعدئذ الى حلب ولكنه لم يهاجمها نزولا على نصح بعض خاصته ، وارتد الى دمشق بحجة نفاد الاقوات ، فاستاء العزيز لذلك وبعث الاقوات فى البحر الى قائده ، وأمره بافتتاح حلب مهما كلفه الأمر ، فسار بنجوتكين اليها فى العام التالى وضرب حولها الحصار؛ وارتاع بنو حمدان لذلك ، وأرسل الوزير لؤلؤ الى الامبراطور يستصرخه ويصور له سوء العاقبة إذا سقطت حلب ، فخشى باسيل الثانى تقدم المصريين نحو أراضيه ، وسار بنفسه الى الشام فى جيش تقدره الرواية بمائة ألف ، وانضم إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ، ونزل باسيل أولا على حصن شيزر على مقربة من حماة فانتزعه من يد قائده الفاطمى ، ثم سار الى حمص فافتتحها وعاث في أعمالها وقتل وأسر كثيراً من أهلها ؛ وبعدئذ سار

الى طرابلس وحاصرها أربعين يوما ، ولكنه لم يظفر بافتتاحها ، ولزم الفاطميون خطة الدفاع فى كل ناحية (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) . وعاد باسيل الى قسطنطينية بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام [١]

وجزع العزيز لتطور الحوادث فى الشام على هذا النحو ،فعول على السير إليها بنفسه ، فخرج الى بلبيس فى جيشه ، ولكن المرض اشتدعليه فجأة فتخلف هنالك أياما ، ثم أدركه الموت ، فتوفى في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ (سبتمبرسنة ٩٩٦) [٢] ، فخلفه يوم وفاته ولده وولى عهده أبو على منصور ، ولقب الحاكم بأمر الله ، وكان العزيز قد استدعاه إليه حين شعر بدنو أجله ؛ وفى اليوم التالى سار الحاكم الى القاهرة ومعه جثة أبيه فى موكب فخم مؤس معاً .

وفى عهد العزيز بالله اتسع نطاق الدعوة الفاطمية اتساعا عظيما ، ودعى للخليفة الفاطمى فى الموصل واليمن ، وبذا انكمشت الدعوة العباسية فى حدود ضيقة ، وتضاءل سلطانها الروحى ، كما تضاءل سلطانها السياسى .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣١ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩ — ١٢١ ، وراجع أيضا :
Finlay, Byzantine Empire (Everyman) P. 355-56

(٢) هذه هى الرواية الراجحة عن وفاة العزيز وبها يقول ابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠) . وهناك رواية أخرى هى أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه الى الشام (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢١)

الفصل الثالث

بداية عصر الحاكم بأمر الله

مصر أسطع جوهرة فى تاج الفواطم . بهاء العصر الفاطمى وغموضه . الحاكم بامرالله . مولده . من هى أم الحاكم ؟ زوج العزيز النصرانيـة . أخواها الحبران اريسطيس وارسانيوس تبوؤهما أرفع المناصب الكنسية. أثر هذه المصاهرة فى سياسة العزيز نحو النصارى . الأميرة ست الملك ابنة العزيز ونفوذها لديه . الزوجة النصرانية أم الاميرة . الريب فى كونها أم الحاكم . السيدة العزيزية . الحاكم ولى العهد . مبايعته بالخلافة . الحاكم ووالده المحتضر . الموكب الخلافى المؤسى . اوصياء الدولة . الحسن بن عمار وبرجوان الصقلي . طغيان ابن عمار واستئثار المغاربة بالنفوذ . عيثهم فى شؤون الدولة ومرافقها . المنافسة بين برجوان وابن عمار . الحرب بين بنجوتكين والمغاربة . هزيمة بنجوتكين واشتداد بأس المغاربة . تربص برجوان بابن عمار . الحرب بين قوى الفريقين . هزيمة ابن عمار واختفاؤه . استئثار برجوان بالسلطة واستبداده بالشؤون . قمعه للفتنة ومحاربته للبيزنطيين . تحطيمه لنفوذ المغاربة . اصطناعه للترك والصقالبة . موقف الخليفة الصبي . شعوره بطغيان برجوان . استهتار برجوان وغطرسته . غضب الحاكم وحنقه . مقتل برجوان . الحسين بن جوهر مدبر الدولة . ابن النعمان قاضى القضاة . مجلس الدولة الليلى . اصطفاء الحاكم للمغاربة

كانت مصر غنما يسيراً للدولة الفاطمية الفتية ، ولكنها كانت أسطع جوهرة في تاجها، وأعظم قطر فى تلك الامبراطورية الشاسعة التى أصبحت تسيطر عليها . ولقد كان قيام هذه الدولة القوية الشامخة فى مصر مستهل عصرها الذهبى، ومفتتح تلك العظمة وذينك البهاء والبذخ التى نثرتها من حولها، وطبعت بها حياة مصر العامة عصراً مديدا ؛ وكانت مصر بخصبها ونعمائها ، وفيض مواردها ، أعظم دعامة فى هذا الصرح الباذخ الفخم ، فالعصر الفاطمى من أسطع عصور مصر الاسلامية إن لم يكن أسطعها جميعا ؛ غير أن هذا العصر الذهبى يبعث الى كثير من التأمل ، فبينما نراه وضاء واضحا في بعض النواحى إذ نراه فى بعضها الآخر مظلما مغلقا ، واذا هذه الخلافة القوية الساطعة يكتنفها كثير من الخفاء والغموض والريب ، واذا تتبدى لنا فى هذا الصرح الساطع

البراق ثغرات قاتمة لا نستطيع أن نسبر غورها أو نظفر بقرارتها ؛ ويشتد هذا الخفاء والغموض بالأخص كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية ، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها ؛ على أننا سنحاول أن نستعرض فى هذا الكتاب من العصر الفاطمى مرحلة ربما كانت أشد مراحله خفاء وغموضا ، وربما كانت مع ذلك أدعى الى الاهتمام والدرس لما تعرضه لنا من حوادث وظروف وخواص مدهشة ، ولما تسفر عنه أحيانا من الحقائق والأسرار الغريبة التى تلقى كثيراً من الضياء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية ، وعلى حقيقة وجهاتها وغاياتها نريد بذلك عصر الحاكم بأمر الله أغرب وأغمض شخصية فى تاريخ مصر الاسلامية

— ١ —

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة (١) ؛ وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ (١٤ اغسطس سنة ٩٨٥ م) وأمه أم ولد ، وقد كانت حسبما تقول الرواية الكنسية المعاصرة ، جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية (٢) ، وكان لها أيام العزيز نفوذ عظيم فى الدولة (٣) ، وكان لهذا النفوذ أثره بلا ريب فى سياسة التسامح الواضح التى

(١) كان عمره بالضبط إحدى عشرة عاماً وخمسة أشهر وستة أيام (المقريزى ج ٤ ص ٦٨)

(٢) فى سنة ٤٥١ م حدث شقاق فى الكنيسة القبطية ، على أثر ما وقع فى مجمع خلقيدونه الكنسى من الجدل اللاهوتى ، ورفض الأقباط الخضوع لقرارات هذا المؤتمر ، فاعتبرهم الامبراطور كفرة ؛ واختار للاسكندرية بطريركا من قبله عرف أتباعه بالملكية ، وهم الاقباط الكاثوليك وأنصار الامبراطور ، وعرف الاقباط الخارجون وهم الكثرة باليعاقبه والمنوفسيه

(٣) وردت هذه الرواية وغيرها مما نشير اليه فيما بعد فى مخطوط كنسى هام يسمى « سير البيعة المقدسة » ، وهو ذيل لكتاب « سير الآباء البطاركة » الذى وضعه ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى عهد المعز والعزيز فى تاريخ بطاركة الاسكندرية ووقف فى كتابته حتى أوائل الدولة الفاطمية . وقد طبع هذا القسم بعنوانه المذكور فى بيروت بعناية اليسوعيين . ولكن هذا الكتاب استؤنفت كتابته باسم « سير البيعة المقدسة » حيث وقف ساويرس ، واشترك فى كتابة هذه السير عدد من الأحبار المتعاقبين ، وتولى كتابة القسم الخاص بعصرى العزيز والحاكم ، قس معاصر يدعى الأب ميخائيل ، وكاتب السنوديقا بكرسى مار مرقص» (البطريركية) كما يقول لنا ذلك خلال الكتاب ، فكتب سيرة الأنبا فيلاتاوس البطرك الثالث والستين وهو معاصر العزيز ، ثم الأنبا زخاريا البطرك الرابع والستين وهو معاصر الحاكم بأمر الله ، وأورد الكاتب خلال حديثه كثيرا من الأقوال والروايات الهامة عن الحاكم وحياته الخاصة والعامة . وقد وفقت دار الكتب أخيراً الى اقتناء نسخة فتوغرافية كاملة لهذا المخطوط الكنسى الهام (وتحفظ برقم ٦٤٣٤ ح) ؛ وهذا المخطوط هو الذى نشير اليه فيما بعد بأنه « المخطوط الكنسى »

اتبعها العزيز نحو النصارى وفى تقوية جانبهم ونفوذهم ، وتمكنهم من مناصب النفوذ والثقة كما رأينا . وكان لهذه السيدة النصرانية أخوان هما ارسانيوس (أو ارسانى) واريسطيس ، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه الى ذرى المناصب الكنسية ، فعين اريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة ٣٧٥ ﻫ) ، وعين ارسانيوس فى نفس العام مطراناً للقاهرة ، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالاسكندرية (سنة ٣٩٠ ﻫ) [١] ؛ وقد كان لهذه المصاهرة أثرها أيضاً فى سياسة العزيز نحو النصارى ، وقوى جانب الطائفة الملكية يومئذ ، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة ؛ وكان للحبرين نفوذهما بلا ريب فى بلاط يرتبط معهما بأواصر المصاهرة ، وفيه أختهما « زوج » [٢] الخليفة الراحل ، وأم ولده الخليفة القائم . ولم يترك العزيز من البنين سوى الحاكم [٣] ، ولكنه ترك من زوجه أو جاريته النصرانية أيضاً ، ابنة هى ست الملك التى أشرنا إليها فيما تقدم ، وكانت تكبر أخاها الحاكم بنحو خمسة عشر عاماً ، فقد ولدت بالمغرب سنة ٣٥٩ ﻫ ، وكانت عند وفاة أبيها فى السادسة والعشرين من عمرها ؛ وكانت حازمة عاقلة ، قوية العزم بصيرة بالأمور [٤] ، وكان والدها العزيز يحبها ويستمع الى نصحها فى كثير من الأمور ، وكان لها أثر ظاهر فى توجيه سياسته نحو النصارى ، فكلما هبت بادرة من السخط عليهم أو الميل إلى اضطهادهم ، تدخلت لتلطيفها والعود الى سياسة التسامح ؛ وسنرى فيما بعد أى دور خطير تضطلع به ست الملك فى مجرى الحوادث والشؤون

وهنا تعرض نقطة غامضة . ذلك أن الرواية النصرانية هى التى تنقل إلينا أن زوجة العزيز أو أم أولاده كانت رومية نصرانية ، وتنقل إلينا فى موطن واحد فقط أنها هى أم ولده الحاكم ، فتقول لنا الرواية الكنسية (القبطية) المشار إليها : « وكان الملك العزيز بالله بن المعز لدين الله قد رزق ولداً من سرية له رومية ،

---

(١) راجع تاريخ الأنطاكى ص ١٦٤ و ١٦٥ و ١٨٥ و ٢٩٨ . والمكين ابن العميد ص ٢٤٧

(٢) يقول ابن العميد انها كانت زوجته (ص ٢٤٧) بينما تقول الرواية الكنيسة المشار اليها انها كانت جاريته وسريته

(٣) رزق العزيز قبل ولده الحاكم بابن اسمه محمد ، ومنحه ولاية عهده ولكنه توفى إبان حياته (نهاية الأرب ، نسخة دار الكتب الفتوغرافية ج ٢٦ ص ٥٠)

(٤) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٦١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٥

وجلس فى الملك من بعده ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وكان للسرية المذكورة التى هى أم الحاكم أخ اسمه ارسانى فجعلته بعنايتها بطرك الملكية . . . الخ » (١) ولكنها تنقل إلينا فى غير موطن أنها أم ابنتـه ست الملك فقط دون الاشارة الى أنها أم الحاكم ، فيقول لنا يحيى الانطاكى مثلا ، وهو مؤرخ نصرانى معاصر : « وفى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلثمائة صير اريستس خال السيدة ابنـة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس ، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية ، وصير أخوه ارسانيوس أيضاً مطراناً على القاهرة ومصر » (٢) ويقول لنا المكين ابن العميد فى صراحة ووضوح « إن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتاً ، وكان للمرأة أخوان أحدهما اسمه ارميس (اريستس) صيره بطركا على بيت المقدس والآخر ارسانيس صيره بطركا للملكية على القـاهرة ومصر ، وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته » (٣) . هذا بينما تلزم الرواية الاسلامية الصمت إزاء هذه المسألة كلها ، ولا تشير الى أم الحاكم إلا بأنها « السيدة العزيزية » (٤) ، بل نرى المقريزى يشير الى ارسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الاشارة الى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك (٥) . ومما يبعث الى التأمل أنه إذا كانت هذه السيدة النصرانية هى أم ست الملك ، فان العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها وهو ولى عهد بالمغرب قبل سنة ٣٥٩ هـ — وهو تاريخ مولد ابنته — ففى أى ظرف حصل هذا الزواج أو التسرى ؟ وفى أى ظرف وقعت هـذه الجارية الرومية الملكية فى يد البلاط الفاطمى بالمغرب ؟ هذا ما لا توضحه لنا الرواية . ومن جهة أخرى فان الرواية الكنسية المعاصرة هى التى تنفرد بالقول بأن هذه السيدة هى أيضاً أم الحاكم ، هذا بينما تكرر الرواية النصرانية المعاصرة والمتأخرة أنها هى أم ست الملك فقط ، ولو كانت نفس الأم هى أم الحاكم ، وهو الخليفة وشخصيته أهم من شخصية أخته ، لما ترددت الرواية فى ذكر هذه

(١) راجع المخطوط الكنسى المشار اليه

(٢) الانطاكى ص ١٦٤ .

(٣) المكين ابن العميد ص ٢٤٧

(٤) المقريزى ج ٢ ص ٢٠٧

(٥) المقريزى ج ٤ ص ٣٩٨

الحقيقة . وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاماً (سنة ٣٧٥ هـ) ، ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن واحد هو محمد الذى توفى طفلا ، وفى ذلك أيضاً ما يبعث الى التأمل

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات أن نرتاب فى هذا القول الذى تنفرد به الرواية الكنسية ، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية كانت أما لست الملك فقط ، وأن « السيدة العزيزية » التى تشير إليها الرواية الاسلامية بأنها أم الحاكم هى سيدة أخرى وأنها هى الزوجة الشرعية ؟ هذا ما نميل الى الأخذ به ، خصوصاً إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى وهو موقف عطف دائماً ، وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لهما ؛ وصمت الرواية الاسلامية فى هذا الموطن لا يمكن أن يحمل على أنه صمت تحفظ وإغضاء ، لأن الرواية الاسلامية تقدم إلينا ثبتاً حافلا من الخلفاء الذين ولدوا من أمهات من النصارى وفى مقدمتهم عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس

ومنح العزيز ولاية عهده لابنه الحاكم مذ كان طفلا فى الثامنة (شعبان سنة ٣٨٣) ، وبويع بالخلافة فى بلبيس يوم وفاة أبيه . وقد انتهى الينا وصف بعض المناظر التى أحاطت بتولية الخليفة الصبى ، وهى مناظر شائقة مؤسية معاً ، نقلها الينا مؤرخ معاصر هو المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية ، ووزير الحاكم وصديقه فيما بعد ، نقلا عن الحاكم ذاته ، قال : « قال لى الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعانى والدى قبل موته ، وعليه الخرق والضماد ، فاستدنانى اليه وقبلنى وضمنى اليه وقال . واغمى عليك ياحبيب قلبى ، ودمعت عيناه . ثم قال: امض ياسيدى والعب ، فأنا فى عافية ، قال : فمضيت ، والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب الى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز اليه . قال : فبادر الى برجوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ويحك ، الله الله فينا وفيك ، قال فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : وأخرجنى حينئذ الى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة »(١)

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠١ ، ولم يصل الينا تاريخ المسبحى ذاته ، وإنما وصلتنا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين

وقع هذا المنظر فى مدينة بلبيس حيث أدرك العزيز مرض موته كما قدمنا : وفى صباح اليوم التالى — وهو يوم الأربعاء ٢٩ رمضان — سار الحاكم الى عاصمة ملكه فى موكب فخم تظلله أبهة الخلافة ، رهيب يظلله جلال الموت ، وأمامه جثة أبيه ، وقد وضعت فى عمارية برزت منها قدماه ، وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلى ، وبين يديه البنود والرايات ، وقد ارتدى دراعة مصمت وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف ، وبيده رمح . فدخل القاهرة عند مغيب الشمس فى هذا الحفل الرهيب الفخم ؛ وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ، فتولى غسله قاضى القضاة محمد بن النعمان ، ودفن عشاء الى جانب أبيه المعز فى حجرة القصر . وفى صباح اليوم التالى ، أعنى يوم الخميس ، بكر سائر رجال الدولة الى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الايوان الكبير ، سرير من الذهب ، عليه مرتبة مذهبة ؛ وخرج من القصر الى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر ، والناس وقوف فى صحن الايوان ، فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالامامة وباللقب الذى اختير له وهو : « الحاكم بأمر الله » ونودى فى القاهرة والبلدان ، أن الأمن موطد والنظام مستتب ، فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال (١)

وأوصى العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم : برجوان الصقلى خادمه وكبير خزائنه ، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة ، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ، ومحمد بن النعمان قاضى القضاة . وعهد بالوصاية الفعلية الى الأول والثانى . وكان برجوان ، ويسمى أبا الفتوح ، خصياً صقلياً ، ربى فى القصر ، واصطفاه العزيز بالله وولاه امارة القصر ، وخلع عليه لقب « الأستاذ » وهو من ألقاب الوزارة فى الدولة الفاطمية ، وعهد إليه بمهام الأمور ، وأولاه ثقة عظيمة . وكان ابن عمار رجلا قوى الشكيمة ، وافر العصبة ، ولكن برجوان كان بظروفه وطبيعة منصبه أوثق اتصالا بالخليفة الصبى ، وأشد تأثيراً فيه ومقدرة على توجيهه ، فلم يلبث أن نشب الخلاف بين

---

(١) نقل الينا ابن خلكان وصف هذه المناظر عن صاحب تاريخ القيروان (ج ٢ ص ٢٠١) . وراجع أيضا خطط المقريزى (ج ٤ ص ٦٨) والنجوم الزاهرة (ج ٤ ص ١٢٣)

الرجلين واشتدت المنافسة بينهما ؛ وقام ابن عمار بتدبير الشؤون بادىء ذى بدء ، ولقب فى سجل تعيينه بأمين الدولة ، وهو أول لقب من نوعه فى الدولة الفاطمية . وكان الوزير ابن كلس قد عمل أيام المعز والعزيز على مقاومة كتامة واضعاف نفوذها ، فعمل ابن عمار لأعادتها الى سابق مكانتها ونفوذها ؛ وظهر ابن عمار بمظهر الطاغيـة المطلق ، فكان يدخـل القصر ويغادره راكباً ، وألزم جميع الناس بالترجل له ، وأغلق بابه الا على الخاصة والأكابر من شيعته ، وأغدق الأموال والأعطية على كتامة ، ففرق فيهم كثيراً من جوارى القصر ، وأعتق عدداً كبيراً منهم توفيراً للنفقـة ، وقطع معظم الرسوم والأرزاق التى كانت مقررة للغلمان الترك ، واستولى أحداث المغاربة على وظائف الدولة ، واقتسموا سلطاتها ، وعاثوا فى شؤونها ومرافقها وكثر اعتداؤهم على الناس وعلى أموالهم ، وابن عمـار يغضى عن عيثهم وعدوانهم[1]. وحرضه بعضهم على قتل الحاكم والتخلص منه فأبى استصغاراً لشأنه أو رهبة من العواقب. وأدرك برجوان مايهدده وسيده من خطر ، فكاتب بنجوتكين واستدعاه بقواته من الشام ، واستبعد ابن عمار من جانبـه وأذاع أن بنجوتكين ينوى الخروج والثورة ، وزحف بقواته للقائه ، فالتقى الفريقان فى عسقلان ، وانهزم بنجوتكين ومزقت قواه ، ولكن ابن عمار عفا عنه (جمادى الأولى سنة ٣٨٧). فاشتد ساعد كتامة وبالغ زعماؤها فى الاستئثار بالسلطات والولاية واشتد عيثهم وطغيانهم ، وعزل أصدقاء برجوان عن مناصبهم ومنهم ابن الصمصامة والى طرابلس ؛ ولاح مدى حين أن كفة كتامة قد رجحت فى كل شىء وأن نفوذ برجوان والصقالبة سيقضى عليه ؛ ولكن برجوان كان ساهراً يرقب ابن عمار ويتلمس الفرص لمناوأته واسقاطه ويدس له الدسائس ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين ، فلم يمض عام حتى تفاقمت الصعاب والأحقاد من حوله ؛ وشعر ابن عمار بحرج موقفه وأخذ يعد العدة للدفاع عن نفسه ، وأخذ كل من الفريقين يتحين الفرص للايقاع بخصمه ، وانضوى الزعماء الناقمون مثل بنجوتكين وابن الصمصامة تحت لواء برجوان والصقالبة . وأخيراً وقع الانفجار ، ووثبت جماعة كبيرة من الزعماء والجند بتحريض

---

(١) راجع نهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص ٥٢ ، والانطاكى ص ١٨١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٢٠١ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٤٠ و ٤١ والمقريزى ج ٣ ص ٥٧ و ٥٨

برجوان وتدبيره ، وهاجمت الكتاميين فى ظاهر القاهرة (شعبان سنة ٣٨٧) وأثخنت فيهم ؛ فتوارى ابن عمار حيناً واضطر أن يترك الميدان حراً لمنافسه ؛ عندئذ قبض برجوان على زمام الأمور ، ومع أنه لم يلبث أن رد ابن عمار الى منصبه وامتيازاته مصانعة منه لكتامة وضماناً لسكينتها وطاعتها ، فانه استأثر بكل سلطة حقيقية داخل البلاط وخارجه ، واختار لمعاونته كاتباً نصرانياً يدعى فهد بن ابراهيم ولقبه بالرئيس ، وفوض إليه النظر والتوقيع والمراجعة ؛ ولزم برجوان الحاكم يقيم معه بالقصر ، ويسهر على توجيهه ، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ ؛ واستبد بكل أمر فى الدولة ، واستقرت الأمور حيناً

واستمر برجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف . وفى عهده وقعت عدة ثوارت وقلاقل فى الشام والمغرب ، وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين الخروج على حكومة القاهرة ، فسير برجوان جيشاً الى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة ، فقاتل الثوار فى عدة مواقع ، وأخضعهم تباعا ، واستعاد دمشق ؛ واشتبك مع الروم (البيزنطيين) فى عدة معارك فى شمال الشام ، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطراب للاغارة على الثغور وتأييد الخوارج ؛ فهزمهم وردهم الى الشمال حسبما نفصل ذلك بعد . وسير برجوان جيشاً آخر الى برقة حيث اضطرمت الثورة ، فرد النظام اليها ، واستعمل عليها يانسا الصقلبي . وكانت الدولة الفاطمية منذ نشأتها تعتمد على تأييد القبائل المغربية كما قدمنا ، ويستأثر زعماؤها بمعظم مناصب القيادة والحكم والادارة حتى عهد المعز لدين الله ؛ ولكن ولده العزيز مال الى اصطناع الموالى من الترك والصقالبة كما رأينا فقدمهم في القصر وفى الجيش ، وبدأت المنافسة من ذلك الحين بينهم وبين الزعماء المغاربة [١] وكانت سياسة برجوان ترمى الى تحطيم نفوذ الزعماء المغاربة ، ونزعهم عن الولايات والثغور ، وتوزيع السلطة على نفر من أصدقائه الصقلبيين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وأن يسيرهم طبق أهوائه ؛ فعين الى جانب يانس ، طائفة منهم لحكم الولايات والثغور ، مثل ميسور الخادم والى طرابلس ، ويمن الخادم والى غزة وعسقلان ؛ وعين بالقصر عدداً كبيراً منهم [٢]. وجنح الروم بعد هزيمتهم الى السلم ، وعقدت بين بلاط القاهرة

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٦٨ و ج ٣ ص ١٧ و ١٨ (٢) المقريزى ج ٣ ص ١٨

والأمبراطور باسيل الثانى قيصر قسطنطينية أواصر الصداقة والمهادنة مدى حين(١)

* * *

ماذا كان موقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من خلافته ؟ لقد كان برجوان بلا ريب يحجبه ما استطاع عن الاتصال برجال الدولة وشؤونها ، ويدفع به ما استطاع الى مجالى اللهو واللعب ؛ وكانت أم الحاكم ، تشهد ولدها ينمو ويترعرع فى ظل هذه الوصاية الخطرة عاجزة عن التدخل لحمايته أو توجيهه ، لأن برجوان لم يفسح لها أى مجال للتدخل فى شؤون الدولة . غير أن الحاكم كان يشعر رغم حداثته بخطورة المنصب الذى يتبوؤه ؛ ولم يلبث أن استرعى سير الأمور اهتمامه ، ولم يلبث أن فطن الى موقف برجوان واستئثاره بالسلطة واستبداده بالشؤون . ولما بلغ برجوان ذروة السلطان والنفوذ ، كان الحاكم قد أشرف على الخامسة عشرة ، وأضحى الطفل فتى يافعاً شديد اليقظة والطموح ؛ وكان برجوان يذهب فى طغيانه وعسفه الى حدود بعيدة ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحقد ، ويحفز بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه الى العمل على تقويض سلطانه ومكانته . واعتقد برجوان أن الجو قد خلا له ، فانكب على ملاهيه وملاذه ، يقضى معظم أوقاته فى مجالس الأنس والغناء والطرب ؛ ولم يفطن برجوان من جهة أخرى الى ما وقع فى نفس الأمير الفتى ومشاعره من التبدل والتطور ، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه ، ويبالغ فى حجبه بحجة حمايته والحرص على راحته ؛ وذهب فى استهتاره الى مدى شعر الحاكم أنه لا يتفق مع مقامه ومكانته ؛ وربما ذهب برجوان الى حد الاساءة الى الحاكم ونقض أوامره ، بل الى حد إهانته والتنكر له ؛ ويقص علينا المقريزى منظراً من هذه المناظر التى اجترأ فيها برجوان على إهانة سيده خلاصته : « أن الحاكم استدعاه ذات يوم وهو راكب معه ، فسار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم » ، ونحو ذلك من المناظر والاهانات المثيرة (٢)

أحفظت نفس الحاكم لهذا الضغط وهذا الاجتراء ؛ ومما تنقله الينا الرواية فى تصوير هذا النضال بين الوصى ومحجوره ، أنه نقل الى الحاكم أن برجوان يسميه

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٢

(٢) المقريزى ج ٣ ص ٥

بالوزغة، أى الحية الصغيرة، فأرسل إليه بعض الأساتذة يقول له إن الوزغة الصغيرة قد صارت تنينا كبيرا (١)؛ وقد كان ذلك لبرجوان نذيرا الخطر الداهم. ذلك أن الحاكم أضمر التخلص من ذلك الوصى الطاغية، وربما تأثر فى هذا العزم بتحريض بعض خصوم برجوان ولاسيما ريدان الصقلبى حامل المظلة وخصمه القوى داخل البلاط، فقد أشار الى الحاكم أن برجوان يريد أن يفعل به ما فعله كافور مع أولاد سيده الاخشيد (٢)، ولكن لاريب أن الحاكم كان قد بدأ يومئذ يثور لسلطته المسلوبة، وأخذت تتفتح في نفسه الوثابة تلك الأهواء العنيفة المضطرمة التى بلغت ذروتها فيما بعد. وعلى أى حال فقد حكم على برجوان بالموت، فاستدعى الحاكم الحسين بن جوهر قائد القواد وعهد إليه بتلك المهمة، وفى ذات مساء بعث الحاكم الى برجوان للركوب معه، وانتظره فى بستان قصر اللؤلؤة (٣) ومعه ريدان حامل المظلة، فوافاه برجوان هنالك، وبعد أن سلم سار الحاكم حتى خرج من باب البستان، فوثب ريدان عندئذ على برجوان فطعنه في عنقه بسكين، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للفتك به، فأثخنوه طعناً بالخناجر، واحتزوا رأسه، ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى سنة ٣٩٠ - ابريل سنة ٩٩٩ م) ولما عاد الحاكم الى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع على لسان خادمه عقيق، فاضطربت البطانة، وأشرف الحاكم عليهم ليرى الخبر، وصاح فيهم ريدان: «من كان في الطاعة فلينصرف الى منزله ويبكر الى القصر المعمور» فانصرف الناس منزعجين، وفى نفس المساء اتخذ الحاكم عدته لتوطيد الامور، واستدعى الرئيس فهدا، وهدأ روعه وأقره فى منصبه، وصودرت أموال برجوان وكانت عظيمة طائلة، واختفى أصدقاؤه من الميدان (٤)

* * *

وهكذا ظفر الحاكم لنحو أربعة أعوام من ولايته بأن يطوى مرحلة الحداثة، وأن يستخلص السلطة لنفسه، وأن يبدأ عهد الحكم الحقيق. وكان الحاكم يومئذ

---

(١) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار اليه)

(٢) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٥

(٣) كان قصر اللؤلؤة من أجل القصور الفاطمية التى أعدت للنزهة، وكان له بستان ساحر يؤمه الخلفاء والأمراء للتريض، وكان موقعه على الخليج بالقرب من باب القنطرة وشرقى البستان الكافورى (المقريزى ج ٢ ص ١)

(٤) المقريزى - ج ٣ ص ٥، و نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٢ وفيه أن مقتل برجوان كان سنة ٣٨٩ هـ

في نحو الخامسة عشرة من عمره ، مضطرم النفس والأهواء ، ولكن وافر الذكاء والجرأة والعزم . فبدأ بتعيين مدبر للدولة مكان برجوان ، ووقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلي . وكان العزيز قد ولاه القيادة بعد وفاة أبيه جوهر ، واصطفاه وأولاه ثقته وعطفه ، فلما توفى العزيز قلد الحسين ديوان البريد والانشاء ، ولما قتل برجوان لم يكن بين رجال الدولة من هو أرفع منه مقاماً وأجدر بتولى الشؤون العامة ،فاستدعاه الحاكم وخلع عليه ،وقلده النظر فى أمور الدولة والتوقيعات ، ولقبه في سجل التعيين « بقائد القواد » ؛ وعكف الحسين على تدبير الشؤون بمعاونة خليفته الرئيس فهد ، وأمر أن تبلغ إليه المهام والظلامات فى مكانه بالقصر وألا يقصد أحد داره ، وألا يخاطب بغير لقبه الرسمي « القائد » دون تعظيم أو تفخيم ، وألا يمنع أحد من مقابلة الحاكم أو الاتصال به ؛ وغدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، الذى خلف أباه فى منصب قاضى القضاة ، أعظم رجلين فى الدولة ، واستمر الحسين يدبر الأمور مدى أعوام حتى تغير عليه الحاكم كما سيأتى .

وتناول الحاكم إدارة الدولة العليا بيديه ، ونظم له مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ، وتبحث فيه الشؤون العامة ؛ وكانت هذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بالليل والتجوال في ظلماته . بيد أنه أبطل مجلسه الليلى بعد حين ؛ وتوفى جيش ابن الصمصامة والى الشأم ، فعين الحاكم مكانه فحلا بن تميم ، ولما توفى لأشهر من ولايته عين مكانه علياً بن فلاح ، وكان اتجاه الحاكم يومئذ نحو إقصاء الأتراك والصقالبة وتمكين المغاربة ، كما كان الشأن أيام جده المعز ، ولعله كان يقصد في ذلك أيضاً الى هدم سياسة برجوان فى اصطفاء الصقالبة . ووفد عليه ولد جيش ابن الصمصامة يحمل وصية أبيه التى يوصى فيها بجميع أمواله للحاكم ، ويحمل اليه الأموال الموصى بها ، وكانت تبلغ نحو مائتى ألف دينار بين نقد ومتاع ، فقرأ الحاكم الوصية ورد المال الى أهله ، ودلل بذلك على صفة من أخص صفاته ، هى العفة عن مال الرعية ، والزهد في المال بصفة عامة ، وسنرى أنه يدلل على هذه الخلة في مواطن كثيرة

الفصل الرابع

القتل سياج الطغيان

الحاكم يقبض على السلطة ويتولى إدارة الشئون . هيئته وروعة مظهره . كيف تصوره لنا الرواية الاسلامية . فتكه بابن عمار . مطاردته لرجال الدولة . مصرع الوزير فهد والخادم ريدان وقاضي القضاة . ذعر رجال الدولة . استغاثة المتصرفين والعمال والخدم . صدور الامانات لتطمينهم . ارتياع المجتمع القاهرى . الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن النعمان . مطاردتهما ومصرعهما . مذبحة الغلمان والكتاب . مقتل القائد الفضل والوزير الروذبارى والوزير ابن عبدون . مأساة القائد غين . موجة التقتيل والسفك . مصرع آخرين من رجال الدولة . عدد الضحايا . الارهاب المنظم . القتل وسيلة للحكم . أقوال الرواية فى ذلك . السفك ملاذ الطغاة فى كل عصر . العنصر المكيافيلى فى هذه السياسة . ما تزعمه الرواية فى شغف الحاكم بالسفك

كان الحاكم بأمر الله صبياً فى نحو السادسة عشرة حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو ، بيد أن هذا الفتى القوى النفس ، كان حاكما حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين ، ويشرف بنفسه على مصاير هذه الدولة العظيمة ، ويبدى فى تدبير شؤونها نشاطاً مدهشاً ، فيباشر الأمور فى معظم الأحيان بنفسه ، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه (١) ؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضنى على مجالى اللهو واللعب التى يغمر تيارها من كان فى سنه ، وفى مركزه وظروفه ؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط المضنى طوال حياته . وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة ، وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة : مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لا يستطيع الانسان صبراً عليها ، وله صوت قوى مرعب يحمل الروع الى سامعيه(٢) ؛ وتقول

(١) راجع ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٦

(٢) أخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين المصرى (نسخة دار الكتب الفتوغرافية المحفوظة برقم ٨٩٠ تاريخ)

الرواية المعاصرة فى وصفه : « كان منظره مثل الأسد وعيناه واسعة شهل ، واذا نظر الى الانسان يرتعد لعظم هيبته ، وكان صوته جهر مخوف » ويقول الانطاكى « ولقد كان جماعة يتعمدون للقائه فى أمور تضطرهم الى ذلك ، فاذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه ، ولحموا على خطابه »[1] ، وقد كان الحاكم في الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء ، الذين يذهبون فى زهرة العمر والقوة[2] ، وكان أبوه العزيز بالأخص عظيم القامة عريض المنكبين قوى التكوين[3] ، فورث عنه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة ، ولم يبددها فى شهوات النفس التى ينغمس فيها أبناء القصور

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً ، وهو أغرب عصر فى تاريخ مصر الاسلامية ، وربما كان أغرب عصر فى تاريخ الاسلام كله ، يمازجه الخفاء والروع ، وتطبعه ألوان من الاغراق والتناقض مدهشة مثيرة معاً ؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة ، وهذه النواحى المتباينة هى التى تسبغ على العصر أهميته وطرافته ، وهى التى تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها . ويحسن قبل أن نعرض الى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها ، واستقراء حقيقتها ، أن نستعرض أولا أعمال الحاكم وتصرفاته ، وحوادث العصر وظروفه ، ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح العصر ، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التى أفاضت عليه من خفائها وروعتها ، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها ، وتبوأت فيه المقام الأسمى

***

تقدم الرواية الاسلامية الينا الحاكم فى صور مروعة مثيرة ، فتقدمه الينا أولا فى صورة جبار منتقم ، وسفاك لا يخبو ظمؤه الى الدماء ، ثم تقدمه الينا فى صورة طاغية مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأى والتصرفات ، لا تكاد تلمس

---

(١) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار إليه) والانطاكى ص ٢٢١

(٢) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفى فى الثالثة والأربعين ، وأن جده المعز توفى فى السادسة والأربعين ، وأن المنصور والد المعز توفى فى الثانيـة والأربعين (راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ١٦٣ و ١٦٧)

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٠

لأعماله باعثاً أو حكمة ، شرساً جموحاً ، ميالاً الى الشر ، خؤونا وافر الغدر ، لايستقر على ثقة أو صداقة ؛ وتقدمه الينا على العموم فى ثوب شخصية بغيضة خطرة ، فاقدة الاتزان والرشد ، يغلب عليها الجانب الأسود ؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحى الخير والخلال الحسنة ، فتصفه لنا بالجود والتقشف والزهد فى كثير من متاع الحياة الدنيا

« وكان الحاكم سيء الاعتقاد كثير التنقل من حال الى حال ... وكان مؤاخذاً بيسير الذنب ، حاداً ، لا يملك نفسه عند الغضب ، فأفنى أمماً وأجيالا وأقام هيبة عظيمة وناموسا »(١) « كان ردىء السيرة ، فاسد العقيدة ، مضطربا فى جميع أموره ، يأمر بالشيء ويبالغ فيه ، ثم يرجع عنه ويبالغ فى نقضه » (٢) . « كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن و إحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح ، وقتل الصلحاء ، وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط » .(٣) « وكان جواداً ، سمحاً ، خبيثاً ماكراً ، ردىء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها » (٤) . « وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل والاخافة والأمن ، والنسك والبدعة » (٥) . في هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الاسلامية الينا الحاكم ، ولا ريب أن في حياة الحاكم وفى أعماله وتصرفاته ما يبرر كثيرا من هذه الاوصاف المثيرة ، غير أنها ليست كل شيء فى هذه الحياة العجيبة الغامضة ، ومن الخطأ أن نقف عندها فى تصوير الحاكم والحكم عليه ، ومن الواجب أن نتقصى فى حياة الحاكم جوانب أخرى ، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته على أضواء أخرى

---

(١) الوزير جمال الدين ، أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية المشار اليها)

(٢) المكين ابن العميد (تاريخ المسلمين) طبعة ليدن ص ٢٥٩

(٣) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لابن قزأوغلى المعروف بسبط ابن الجوزى ومنه عدة مجلدات فتوغرافية بدار الكتب (رقم ٥٥١ تاريخ) ومرجعنا منها هو المجلد الحادى عشر ج ١٣ ص ٤٠١ وما بعدها ؛ (وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦)

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ ، والذهبى فى تاريخه (مخطوط بدار الكتب) مجلد ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١ هـ (وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨)

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

افتتح الحاكم عهد حكمه بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته ، وكان للجريمة باعث سياسي قوى ، فلم تكن يومئذ دليلا على حبه للسفك أو ظمئه الى الدم ؛ غير أن الحاكم ما لبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى هى مقتل الحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق ؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان وأطلق له رسومه وجراياته ، وأذن له بالركوب الى القصر . ففى ذات مساء ، حين انصرافه من القصر ، انقض عليه جماعة من الغلمان الترك كانت قد هيئت للفتك به ، فقتلوه وحملوا رأسه الى الحاكم (شوال سنة ٣٩٠) [١] . ولم تكن للجريمة بواعث ظاهرة ، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم فى سحق الزعماء ذوى البأس والعصبية ، وهى رغبة يدلل عليها كما سنرى فى مواطن كثيرة ؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا ، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة . ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف في القتل ، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعاً ، دون حكمة ظاهرة إلا ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائى .

وفى سنة ٣٩٣ هـ قتل الحاكم وزيره فهد بن ابراهيم النصرانى بعد أن قضى في منصبه زهاء ستة أعوام؛ وتقول الرواية الكنسية المعاصرة ، إن الحاكم أمر بقتله لأنه أبى اعتناق الاسلام ، وتجعل منه شهيداً ، وتزعم أن جثته ألقيت الى النيران فلم تحترق[٢] ، وأقام الحاكم مكانه على بن عمر العداس ، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى سخط عليه وقتله ، وقتل معه الخادم ريدان الصقلبى حامل المظلة ؛ ثم قتل عدداً كبيراً من الغلمان والخاصة [٣] (سنة ٣٩٤) ، ثم تبع ذلك بمقتلة أخرى كان من ضحاياها الحسين بن النعمان الذى شغل منصب القضاء منذ سنة ٣٨٩ هـ ، فقتل وأحرقت جثته وزهق فيها عدد كبير من الخاصة والعامة ، قتلوا أو أحرقوا [٤] ، وقتل جماعة من الأعيان صبرا [٥] ؛ ولم يك ريب فى أن هذه المذابح المتوالية كانت عنوان نزعة خطيرة الى البطش والفتك واحتقار الحياة البشرية ، وكان أشد الناس تعرضاً لهذه

---

(١) المقريزى ج ٣ ص ٥٨

(٢) فى سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى المشار إليه)

(٣) المقريزى ج ٤ ص ٦٩

(٤) المقريزى ج ٣ ص ٣٢ و ج ٤ ص ٧٠

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٢

النزعات الخطرة ، أقرب الناس الى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة ؛ ولم يكن الكافة أيضاً بمنجاة منها ، فكثيراً ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب ، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة التي توالى صدورها في تلك الفترة . وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والمتصرفين يرتجفون رعباً وروعاً أمام هذه الفورات الدموية ؛ وكان المجتمع القاهرى ، ولا سيما التجار وذوو المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع . ويروى لنا المسبحى صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد ، أن الحاكم أمر في سنة ٣٩٥ بعمل شونة كبيرة مما يلي الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا ، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لاعدامهم ، وسرت في ذلك اشاعات مخيفة ، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى في أحد ميادين القاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا الى القصر ، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون ، ويسألون العفو عنهم ؛ ثم دخلوا القصر ، ورفعوا الى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان فأجابهم الحاكم على لسان الحسين الى ماطلبوا ؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقي سجل العفو (١) . واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم ، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا الى ماطلبوا ؛ وتبعهم في الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف ؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف ، فصدر أمان للغلمان الأتراك وصبيان الخاص وصدر أمان لخدم القصر الموسومين بخدم الحضرة بعد ما اجتمعوا وهرعوا الى قبر العزيز وضجوا بالبكاء والاستغاثة ، وصدرت أمانات لسكان الأحياء المختلفة ، ولسائر الطوائف ، وقرئت هذه الأمانات ووزعت على أهلها . وقد أورد لنا المسبحى صورة إحدى هذه الوثائق ونصها : « هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبي على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبدالله : إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية

(١) كانت الأوامر والقوانين والمراسيم التي تصدر عن الخلافة الفاطمية تسمى اولا « بالسجلات » ثم سميت في أواخر الدولة « بالعهود » (راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٠٨)

النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لاخوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا في حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى ، وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليما كثيرا » (١)

وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح من الرهبة والخشوع ، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى الذى لم يجاوز يومئذ العشرين من عمره ، وأصبحت نزعاته وتصرفاته مثار الرعب والروع . ولم يك ثمة ريب فى أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة ولم يكن فورة أهواء فقط . وقد لازم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته . ووقعت فى الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها ، وكانت تقترن أحيانا بضروب مروعة من القسوة ، وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم ، وفى الأحوال النادرة التى كان ينجو المعزول فيها بحياته ، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك . ففى شعبان سنة ٣٩٨ هـ عزل قائد القواد الحسين بن جوهر ، وعين مكانه صالح بن على الروذبارى ولقب بثقة ثقات السيف والقلم ، وبعد أسابيع قلائل أمر الحاكم الحسين وصهره قاضى القضاة عبد العزيز ابن النعمان بلزوم دارهما ، ثم أمر بالقبض عليهما ، ففر الحسين وقبض على عبد العزيز ، واضطربت القاهرة لمكانة الحسين ؛ ثم عفا الحاكم عنهما وبعد أن ارتميا على أعتابه واستجارا به ، وأعيد عبد العزيز الى منصبه ، ولكنهما لم يطمئنا طويلا الى هذا العفو المريب ، ففرا بأسرتيهما الى البحيرة واحتميا بعرب بنى قرة ، فأمر الحاكم بمصادرة أملاكهما وأحيط بسائر مالهما من المال والمتاع ، وسير الخيل فى طلبهما ، وأنفذ اليهما كتب الأمان فى نفس الوقت ، فعادا الى القاهرة بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو ، وقرىء سجل امانهما علنا وأشهد الحاكم قاضى القضاة على نفسه بالوفاء بنصه ، واستمرا يركبان الى القصر مدى حين ؛ وفى ذات يوم استبقيا بالقصر « لأمر تريده الحضرة » ثم قتلا فجأة (١٢ جمادى الآخرة

(١) المقريزى ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣

سنة ٤٠١) ، وصودرت أموالها ، وعاد الحاكم بعد ذلك فأمن أولاد القتيلين وخلع عليهم . وقيل إن ولد الحسين وهم ثلاثة فروا الى الشام واستغاثوا بحاكم انطاكيه البيزنطى ، فسير الحاكم الى والى الشام بوجوب القبض عليهم . فأخذوا بالحيلة وقتلوا وأرسلت رؤوسهم الى القاهرة (سنة ٤٠٣ هـ)(١)

وكان لمقتل الحسين بن جوهر والقاضى عبد العزيز وقع عميق فى البلاط وفى الشعب ، فالحسين ولد فاتح مصر ومؤسس دولة الفاطميين فيها ، وعبدالعزيز سليل بنى النعمان الذين حملوا زعامة الدولة الروحية منذنشأتها ، وكانوا من أعظم أوليائها ، وكانت المأساة خاتمة لنفوذ هاتين الأسرتين العظيمتين

واليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩ هـ ، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا ، وقتل الفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش ، وهو الذى ظفر بالثائر أبى ركوة وأخمد ثورته كما سيجىء ؛ وفى العام التالى وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم ، وقتل جماعة من العلماء السنية (٢) ، وقبض على صالح بن على الروذبارى لأسابيع قلائل من عزله ، وقتل ؛ وعين مكانه ابن عبدون النصرانى ، ثم صرف وقتل لأشهر قلائل ؛ وخلفه أحمد بن محمد القشورى فى الوساطة والسفارة ، ثم صرف لأيام قلائل من تعيينه وضربت عنقه لأنه كان يميل الى الحسين بن جوهر ويعظمه ؛ وتقلد الوساطة بعده زرعة بن عيسى بن نطورس (سنة ٤٠١ هـ) . وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه غين وكاتبه أبى القاسم الجرجرائى ، وكان غين من الخدم الصقالبة الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته ، فعينه فى سنة ٤٠٢ للشرطة والحسبة ولقبه بقائد القواد ، وعهد اليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية ، وعهد بالكتابة عنه الى أبى القاسم الجرجرائى ، وكان الحاكم قد سخط على غين قبل ذلك ببضعة أعوام وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد . ثم سخط عليه كرة أخرى وأمر بقطع يده الثانية فقطعت وحملت الى الحاكم فى طبق ، فبعث اليه الأطباء للعناية به ووصله بمال وتحف كثيرة : ولكن لم تمض

---

(١) المقريزى ج ٣ ص ٢٣ ، ٢٤ وتاريخ الانطاكى ص ١٩٩

(٢) المقريزى ج ٤ ص ٨٨

أيام قلائل على ذلك حتى أمر بقطع لسانه ، فقطع وحمل الى الحاكم أيضاً ، ومات غبن من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤) . وأما أبو القاسم الجرجرائى فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت فى حقه ، ولكنه أبقى على حياته ، وعاش أقطع اليدين (١)

وفي سنة ٤٠٥ هـ قتل الحاكم قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى ، وقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان ، وعبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب ، وأخاه الحسين متولى الوساطة والسفارة ؛ وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات ، ثم قتله لأيام قلائل من تعيينه . وهكذا استمر الحاكم فى الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم ، هذا عدا من قتل من الكافة ، خلال هذه الأعوام الرهيبة ، وهم ألوف عديدة (٢) وتقدر الرواية المعاصرة ضحايا الحاكم بثمانية عشر الف شخص من مختلف الطبقات (٣)

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ في هذا الثبت الدموى الحافل من خواص الحاكم وصفاته ؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر ، وشغف واضح بالسفك واحتقار بين للحياة البشرية ؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط ولم تكن بالأخص دون غاية . كان الارهاب فى نظر الحاكم وسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل ؛ فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل الى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فان القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ، واذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين ، فان إزهاق عدد منهم يكفل عودهم الى السكينة والخشوع . وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة ، وتخمد الأطماع المتوثبة في مهدها ، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجرىء . ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة الى تأييد سلطانهم ، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة . وقد كانت الأهواء والفورات العنيفة التى تجيش بها نفس

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٣

(٢) أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية) ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص ٥٢ و ٥٣ وتاريخ الانطاكى ص ٢٠١

(٣) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى)

الحاكم تمده هذه السياسة الدموية بروح من الاسراف والقسوة ، ولكنها كانت فى نظره قبل كل شىء وسيلة من وسائل الحكم ، وكان لها بلا ريب أكبر الأثر فى توطيد سلطته ، وسحق عناصر الخروج والثورة التى تتربص عادة بأمثاله الطغاة المسرفين

وقد أفاضت الروايات المعاصرة والمتأخرة في هذه السير والحوادث الدموية المروعة ، ومن الطبيعى أن تتخذها مادة للحملات والمطاعن العنيفة وتصوير الحاكم فى صورة الوحش الضارى ، ونعته بأقبح النعوت ؛ بيد أن بعض المؤرخين لم يفته أن يشير الى الغاية السياسية التى ترمى اليها تلك الخطة ، فمثلا يقول لنا الوزير جمال الدين المصرى عن الحاكم وعن خطته الدموية ما يأتى :

« وكان مؤاخذاً بيسير الذنب ، حاداً لا يملك نفسه عند الغضب ، فأفنى أمماً وأباد أجيالا ، وأقام هيبة عظيمة وناموساً ، وكان يفعل عند قتله الشخص أفعالا متناقضة وأعمالا متباينة ، فكان يقتل خاصته وأقرب الناس اليه ، فربما أمر باحراق بعضهم ، وربما أمر بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه وبنى تربة عليه ، وألزم كافة الخواص ملازمة قبره والمبيت عنده ، وأشياء من هذا الجنس يموه بها على عقول أصحابه السخيفة فيعتقدون أن له فى ذلك أغراضاً صحيحة استأثر بعلمها وتفرد عنهم بمعرفتها ، وهو مع هذا القتل العظيم والطغيان المستمر يركب وحده منفرداً تارة ، وفى الموكب أخرى ، وفى المدينة طوراً ، وفى البرية آونة ، والناس كافة على غاية الهيبة له والخوف منه والوجل لرؤيته ، وهو بينهم كالأسد الضارى ، فلم يزل أمره كذلك مدة ملكه وهى احدى وعشرين سنة » (١)

ويقول الانطاكى وهو مؤرخ معاصر : « وأقام له (أى الحاكم) من الهيبة في نفوس الكافة لشدة سطوته وتسرعه الى سفك الدماء وأنه لا يبقى على من صغر ذنبه وقل فضلا عمن عظم جرمه وجل » (٢)

واذن فلم يفت الرواية الاسلامية والنصرانية أيضاً ، المعاصرة والمتأخرة أن تلاحظ أن خطة القتل الذريع التى لجأ اليها الحاكم قد « أقامت له هيبة عظيمة وناموسا » ، وحملت « كافة النـاس على غاية الهيبة له والخوف منه » ، وعاونت على

---

(١) أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية بدار الكتب) ونقل المستشرق فستنفلد فقرات عن الحاكم فى كتابه Geschichte der Fatimiden ص ٢٠٢ وما بعدها ، وترجمها الى الالمانية

(٢) الانطاكى ص ٢٢١

توطيد سلطانه طوال مدة حكمه

ونستطيع أن نلاحظ أن الالتجاء الى مثل هذه الوسائل الدموية لتأييد الحكم والسلطان ليس خاصا بنظم العصور الوسطى ، أو بسياسة الطغاة فى تلك العصور ، ففى عصرنا وفى أرقى الأمم الغربيــة تعتمد النظم الطاغية (الدكتاتورية) ويعتمد أقطاب الطغاة فى تأييد هـذه النظم الى مثل هـذه الوسائل الذريعة ، وترتكب هذه المذابح دائما باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة ؛ والواقع أنها ليست دائما الا شهوة من شهوات أولئك الذين يقبضون على زمام السلطة ويحرصون على استبقائها بأى الوسائل ، ويرتجفون دائما لشبح أية معارضة يهمس بها الخصوم الأقوياء

فهل نعجب اذا رأينا طاغية من طغاة العصور الوسطى مثل الحاكم بأمر الله يلجأ الى مثل هذه الوسائل الدموية حرصا على سلطانه من مطامع زعيم أو وزير قوى ، ويتذرع بها ليفرض هيبته على الكافة وليبث الى نفوسهم الروع والرهبة ؟

ثم أليست القسوة والطغيان والارهاب والغدر والنكث عنوان الفلسفة المكيافيللية التى بعثت فى عصرنا ؟ لقد مجد مكيافيللى الطغيان والقتل ، وأعجب بطغاة مثل اسكندر بورجيا وابنه شيزارى لأنهم استطاعوا أن يؤيدوا سلطانهم بالقتل الذريع دون وازع ودون التقيد بعهد أو مبدأ أو ذمام

هـذه خواطر وتأملات نبسطها لا لنبرر شيئا من اجراءات الحاكم وتصرفاته الدموية أو أن نخفف من وقعها ومسئوليتها الرهيبة أمام التاريخ ، ولكن لنشرح ظاهرة تاريخية تلازم عصور الطغيان ، ولكى نفهم هذه العقلية الدموية على حقيقتها

هذا ويفسر لنا بعض الروايات إسراف الحاكم فى القتل بأنه كان تقرباً منـه «لزحل وطالعه المريخ» ، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى[1]. والظاهر أن الرواية الاسلامية تنقل هنا عن الرواية الكنسية المعاصرة ، فهى التى تقدم الينا هـذا التعليل وتقول لنا إن الشيطان كان يتشبه للحاكم فى صورة زحل فيخاطبه فيأمور كثيرة ويذبح له القرابين ، بل تزعم فوق ذلك أن الحاكم كان يزهق الضحايا بيده ، وتروى لنا فى ذلك قصة مروعة خلاصتها أن القائد فضل بن صالح

(١) مرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) المجلد ١١ ج ٣ ص ٤٠١ و ٤٠٧ و ٤٠٨ وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧

دخل يوما على الحاكم بالقصر فرآه وبين يديه صبي مليح ابتاعه بمائة دينار وقد ذبحه بسكين في يده ، واستخرج أحشاءه وأخذ يقطعها ، فارتد الفضل الى منزله مذعوراً ، ولم تمض ساعة حتى أنفذ اليه الحاكم من قتله[1] ، بيد أنا لانستطيع أن نسيغ هذا الرأى من الوجهة التاريخية ، أو نقبل هذه الروايات المغرقة ، فليس سيرة الحاكم رغم شذوذه ، وتباين معتقداته وشغفه بالخفاء ، ما يدل على أنه كان يأخذ بمثل هذه الرسوم الوثنية المثيرة

(١) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار اليه)

الفصل الخامس

المراسيم الاجتماعيـــة والدينية

شغف الحاكم بالليل . الحياة والأنوار الليلية . العاصمة الساطعة المرحة . وقف الحياة الليلية . نوادر عن طواف الحاكم . موجة المراسيم المدهشة . المراسيم الاجتماعيـة . تحريم بعض البقول والأسماك والأبقار . حظر التبرج على النساء . مطاردة دور الخمر والبغاء . قتل الكلاب . مراسيم أخرى. اضطراب الحياة الاجتماعية . المجاعة والوباء . قبض الحاكم على أموال أهله . تحريم الخوض فى الشؤون العامة . منع النساء من زيارة القبور . حظر إحراز العنب والزبيب والخمر . تحريم التنجيم والغناء . الحجر على النساء . الصرامة فى تنفيذ هذه القوانين . المراسيم الدينيـة . ملابس النصارى واليهود . هدم بعض الكنائس . مرسوم بهدم كنيسة القيامة . إلغاء الأعيـاد النصرانية . التشريع المرهق للذميين . اضطراب المجتمع النصرانى . هدم الكنائس ونهبها ونزع أملاكها . اعتقال البطريرك القبطى . محنة الذميين . إطلاق الهجرة لهم . هدوء المطاردة . الغـاء القوانين المرهقة . اطلاق حرية الشعائر . إعادة بناء الكنائس . الأمان الذى صدر للنصارى . سجلات مختلفة للنصارى . بواعث المطاردة الدينية . تطوراتها فى الدولة الفاطمية . أول تشريع للذميين فى الاسلام . السياسة المذهبية . سب السلف ومحوه . التوفيق بين الأحكام الدينية . الغاء الزكاة والنجوى.. الحاكم وأصول الاسلام . أقوال الدعاة السريين فى ذلك . عقيدة الحاكم الدينية

كان شغف الحاكم بالليل من أظهر خواص هذه المرحلة الأولى من حكمه . كان الحاكم يعقد مجالسه ليلا ، ويواصل الركوب كل ليلة ، وينفق شطراً كبيرا من الليل فى جوب الشوارع والأزقة (سنة ٣٩١ هـ) ، وصدرت الأوامر بهذه المناسبة بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط ، فكانت المدينة تبدو في هذه الفترة بالليل كأنها شعلة مضيئة ، ولازم الحاكم الركوب فى المدينة المنيرة ، وكان يزور كل ليلة حيا معينا ويشق طائفة من الشوارع والدروب ويقيم الحسبة بنفسه أحيـانا ، ويستطلع أحوال الشعب وأخباره ؛ وأصبحت جميع

الأعمال والمعاملات تجرى بالليل وتزدهر مواطن السمر ، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف ، فتسطع الميادين بالوقود والزينات ؛ وتغص بصنوف اللهو والمرح وتنفق الأموال الوفيرة فى المآكل والمشارب والسماع ؛ وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحتشدة فى بساطة ورقة ، ولا يمنع أحدا من الدنو منه أو من مخاطبته ، واستمر الحال على ذلك أشهرا ، وظهر النساء في المجتمعات بكثرة ، واشتد تيار المجون والغواية [١] وأصبحت القاهرة بأنوارها الساطعة ، ومناظرها المرحة ، وملاهيها الصاخبة كأنها تعيد سيرة رومة ومناظر قصفها وفجورها فى عصر الانحلال . فلما خرج الناس في ذلك عن الحد ، وبالغوا فى اللهو والاسراف والزينة والمجون ، منع الحاكم النساء من الخروج ليلا منذ العشاء لكى تخف عوامل الفتنة والغواية ، وعوقب المخالفات بشدة ، ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهى ، وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلا ، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل ، (سنة ٣٩٤ ﻫ) . وشغف الحاكم بالليل وظلماته من غريب أطواره ونزعاته ، حتى لقد لبث مدى حين يؤثر الجلوس فى الظلام [٢] بيد أنه ينم فى نظرنا عن روح فلسفى يزيد فى غموض نفسه

وشغف الحاكم بالطواف على هذا النحو طول حياته ، وكان ظاهرة بارزة من ظواهر حكمه . وقد انتهت الينا أحاديث ونوادر كثيرة عن المناظر التى كانت تقترن بهذا الطواف ، وعما كان ينزع اليه الحاكم أحيانا من الاهواء العنيفة خلال طوافه ؛ ومن ذلك أنه كان يأمر باحراق الشون ليتمتع بمرأى النيران ، وأنه لقى ذات مساء عشرة من الناس سألوه الاحسان فأمر أن ينقسموا الى فريقين يتقاتلان حتى يغلب أحدهما فينعم عليه ، فتقاتلا حتى فنى منهم تسعة وبقى واحد ، فألقى اليه الدنانير ، فلما انحنى ليأخذها عاجله الركابية بقتله [٣] ، وأنه مر ذات ليلة على دكان شواء ، فانتزع منه سكينا وقتل بها أحد الركابية المقربين لديه بغير ما سبب معروف ، وتركت الجثة فى موضعها ، وفى اليوم التالى أنفذ الحاكم اليه كفناً جليلا ، ودفن مع التكريم . وتزيد الرواية على ذلك أن الحاكم كان أحيانا يلهو أثناء طوافه برؤية بعض المناظر

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٧٦

(٢) مرآة الزمان الجزء المشار اليه ج ٣ ص ٤٠١ (وأورده النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٦)

(٣) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى)

الخليعة المثيرة ، بيد أن هذه روايات تحمل الطابع القصصى ، ويحفها فى نظرنا كثير من الريب (١)

ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى عمد الحاكم الى إصدار طائفة من الأوامر والقوانين المدهشة (سجلات) التى لم يسمع بمثلها من قبل فى أى مجتمع اسلامى . وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية ، وكان مما يزيد فى غرابتها وغموض بواعثها أنها كانت تصدر ثم تمحى بعد قليل وتستبدل بعكسها ، ثم يعاد صدورها وهكذا . وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كر العصور هذه المراسيم حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام . واكتفوا فى تعليلها بنظرية بسيطة ، هى أن الحاكم كان ذهناً مضطرباً لايصدر عن روية أو حكمة ، ولم تكن هذه الأوامر والاجراءات الشاذة سوى نزعات مخبول لاتستقيم له منطق أو غاية . ويحسن قبل أن تناقش هذا الرأى أن نستعرض هذه المراسيم أولا وأن نحاول أن نتفهمها ، وأن نستقصى بواعثها على ضوء الظروف التى كان يجوزها المجتمع يومئذ

— ١ —

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية . في سنة ٣٩٥ هـ ، صدرت أول طائفة من هذه القوانين المدهشة ، فمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والتوكلية والدلينس (٢) ، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا فى أيام النحر (عيد الاضحى) أو ما كان ذا عاهة ، وحرم بيع الفقاع وعمله بأى صورة وكان الفقاع مسكراً ذائعاً فى ذلك العصر ؛ وحرم صيد السمك الذى لا قشر له وكذلك بيعه ؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر ، وهوجمت الحمامات تباعاً وقبض فيها على المخالفين فأدبوا وشهروا ؛ وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن فى الطريق ، أو خلف الجنائز ، وحرم عليهن التزين والتبرج كما حرم البكاء والعويل والصياح وراء الموتى ؛ وشدد الحاكم فى تنفيذ هذه الأوامر ، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والاعدام . ثم حرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم الى الطرقات منذ الغروب الى الفجر ، وأن يزاولوا البيع والشراء بالليل ، فخلت الطرق من المارة ، وأقفرت الشوارع والميادين

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص ٢٠٩ و ٢١٧

(٢) قال ابن البيطار فى مفرداته الدلينس اسم بالديار المصرية لنوع من الصدف صغير يؤكل نيئاً علوحاً يتأدم به

بالليل ، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة ، وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره ، وكسرت أوانى الخمور وأريقت فى كل مكان ، وشدد على الخمارين وبدد كل ما فى دورهم ومحلاتهم، وهوجمت أماكن البغاء والقصف بشدة وأزيلت دورهم وأوكارهم، وطهرت منهم أحياء المدينة ، وكانوا ينبثون فى معظم جنباتها (١) ، وأمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وجدت إلا كلاب الصيد ، فطوردت فى كل مكان وأعدمت حتى خلت منها جميع الطرق والدور(٢) ، وقيل فى سبب قتلها إن الحاكم كان يسير فى ركبه ذات يوم فاعترض مطيته كلب فوثبت وكادت تلقيه على الأرض ، وقيل إنها كانت تكثر النباح بالليل وتزعجه فى طوافه فأمر بتطهير الطرقات منها (٣) ، ولكن سنرى أن قتلها كانت تمليه بواعث صحية ؛ وأمر أيضاً بقتل جميع الخنازير التى فى كورة مصر فقتلت عن آخرها (٤) . وفى هذا العام أيضاً حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة ، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم ، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب الزهومة (من أبواب القصر) ، وألا يمشى أحد بحذاء القصر ، ثم أعفى المكارية بعد ذلك من الأمر وصدر لهم أمان خاص (٥)

وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية المصرية ، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على أشده . وفى سنة ٣٩٨ هـ صدرت عدة مراسيم (سجلات) جديدة ، فمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للتفرج ، وذلك لمناسبة نقص النيل في هذا العام ، وشدد فى منع بيع الخمور ؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء ، فزادت المعاملات اضطراباً واشتد الأمر على الكافة ، وسرى إليهم الخوف والجزع ؛ واشتد الغلاء من جراء قصور النيل وهلاك الزرع ، وتفاقمت الحال بظهور الوباء ، وعصف المرض والموت ، وعز القوت والدواء ، واشتدت المحنة بالناس مدى أشهر وحمل الوباء منهم ألوفاً كثيرة ؛

(١) الانطاكى ص ١٨٦

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ والمقريزى ج ٤ ص ٦٩ و ٧٠ والانطاكى ص ١٨٧

(٣) فى سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) . والانطاكى ص ١٨٨

(٤) سير البيعة المقدسة

(٥) المسبحى فى حوادث سنة ٣٩٥ ونقله المقريزى ج ٣ ص ٤٤

واتخذ الحاكم بعض الاجراءات لمقاومة الغلاء فأمر بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته،وحددت أسعار القمح والمواد الغذائية مثلما تعمل أرقى الحكومات فى عصرنا عند الطوارىء ، وعوقب المخالفون بالموت (١) . وفى سنة أربعمائة صدرت أوامر جديدة بالتشديد فى حظر الخمور وبيعها ، ومنع ركوب المراكب فى الخليج ، وسدت أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه (٢) وعوقب الكثيرون من أجل إحراز الفقاع والملوخيا والسمك الذى لا قشر له ومن أجل بيع النبيذ وإحرازه ،وطورد السكارى والمخالفون بشدة ، وكانت العقوبة تصل فى أحيان كثيرة الى الاعدام

ومن غريب تصرفات الحاكم فى تلك الفترة أنه قبض على جميع أملاك زوجه وأمه وأخته وعماته وخواصه وجواريه وسائر أقطاعاتهن وأموالهن بمصر والقاهرة وكانت جملة عظيمة (سنة ٣٩٩ هـ) ، ولم تفهم حكمة هذا التصرف أو بواعثه ، بيد أنها كانت فيما يظهر ثورة مؤقتة ، وقد عاد فرد الأمور الى نصابها فيما بعد (٣)

وفى سنة ٤٠١ هـ قرىء بجامع مصر (جامع عمرو) سجل بالنهى عن معارضة أمير المؤمنين (الحاكم) فيما يفعل أو يصدر عنه من الأمور والأحكام ، وترك الخوض فيما لا يعنى ؛ وكانت النفوس قد اضطرمت من جراء هذه الأوامر والقيود المضنية ، واستطالت ألسنة الكافة وبدت عليهم أمارات التذمر ؛ وأمر فى نفس السجل باعادة « حى على خير العمل » فى الأذان ، واسقاط « الصلاة خير من النوم » والنهى عن صلاة التراويح والضحى

وفى سنة اثنتين وأربعمائة منع النساء من زيارة القبور ، فلم تر فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة ؛ وحظر الاجتماع على شاطىء النيل للتفرج ؛ وحرم لعب الشطرنج وعوقب المخالفون بالجلد ؛ وحظر بيع الزبيب واستيراده ، وأحرق جميع ما كان موجوداً منه ، وحظر بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها حتى لا يستعمل فى صنع النبيذ ، وحظر عصره ، وأتلف كثير منه وأغرق فى النيل أو ديس فى الطرقات ، وسير المأمورون الى الجيزة ، وكانت يومئذ عامرة بحدائق الكروم فأتلفوا كرومها ،

---

(١) تاريخ الانطاكى ص ١٩١

(٢) المقريزى عن المسبحى ج ٣ ص ٣٨

(٣) تاريخ الانطاكى ص ١٩٥

وصودر ما كان في معاصرها ومخازنها من جرار العسل ، وكسرت وأريقت في النيل ، وحدث مثل ذلك فى سائر الجهات (١)

وفى نفس العام صدر مرسوم (سجل) بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وأن ينفى المنجمون من سائر المملكة ، فاستغاث المنجمون بالقاضى الأكبر مالك بن سعيد الفارقى ، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة وأعفوا من قرار النفى ، وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين ، فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة ، وشدد في قتل الكلاب مرة أخرى

وفي شعبان من هذه السنة ذهب الحاكم فى معاملة النساء الى ذروة القسوة والشدة ؛ فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات بالليل أو النهار ؛ ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع ، والخارجات الى الحج ، أو المسافرات اللاتى تضطرهن ظروف قاهرة الى السفر ، والأماء اللاتى برسم البيع ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والأرامل اللاتى يبعن الغزل ، وان يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن برقاع خاصة ترفع الى القصر ، وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها مدير الشرطة ؛ ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، ومنع الأساكفة من عمل أخفافهن ؛ فاختفى النساء من المجتمع المصرى ، وساده الانقباض والوحشة ؛ وأغلقت المتاجر التى تبيع السلع النسوية ، وساد الذعر بين النساء ، ولزمن دورهن في روعة وخشوع ؛ وحاول النساء التظلم من هذا القرار ، وذهب الكثيرات منهن الى القصر داعيات متظلمات فلم يفزن بطائل ؛ وعوقب كثير من المخالفات بالموت . واشتد الأمر بنساء الكافة اللاتى ليس لهن من يقوم بأمرهن واستغثن بأولى الأمر ، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع فى الأسواق الى الدروب ، ويبيعوه للنساء فى منازلهن ، وأن يحمل الباعة أداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد الى المرأة وهى من وراء الباب وفيه ما تشتريه ، فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها مطلقاً أن تبدو من وراء الباب (٢) وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم بأمر الله ؛ وكان حادثاً منقطع النظير ، ولم يحدث قط فى أى مجتمع إسلامى ، بل لم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ والمقريزى ج ٤ ص ٧٢

(٢) الانطاكى ص ٢٠٨ وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ والمقريزى ج ٣ ص ٧٣ وابن الاثير ٩ ص ١٠٩

أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية ، وسلبن الحرية على هذا النحو الشامل

وكان مما يزيد فى صرامة هذه القوانين الاستثنائية ، الشدة فى تنفيذها ، وروعة العقوبات التى سنت لمخالفيها ؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدبر الدولة أو قائد القواد ، فنجد مثلا فى السجل الصادر بتعيين « غين » قائداً للقواد ومديراً للشرطة والحسبة (سنة ٤٠٢ ﻫ) تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه ، وفى تحريم الفقاع وبيعه ، وتحريم أكل الملوخيا والسمك الذى لاقشر له ، والمنع من الفرجة والملاهى كلها ، ومنع النساء من حضور الجنائز ، ومنع بيع الزبيب والعنب والعسل الاثلاثة أرطال فما دونها أولمن لاتتجه اليه مظنة اتخاذه مسكرا (١) ، وكانت عقوبات المخالفين تختلف بين التشهير (٢) والجلد ، وتصل في أحيان كثيرة الى الاعدام

هذه خلاصة وافية لما أصدر الحاكم أو أصدر فى عهده من المراسيم والأوامر الاجتماعية الاستثنائية ، ومعظمها يحمل طابع القسوة والشذوذ ، ولكن سنرى أنها لم تكن دون غاية ، ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة ، عن نزعة مخبول أو هائم ، وأن كثيراً منها يحمل بالعكس طابع الطرافة والحكمة ، ويرمى الى غايات بعيدة قد فطن اليها هذا الذهن الجرىء ، واتخذ منها مثلا

— ٢ —

نعرض بعد ذلك الى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هى المراسيم الدينية، وقد كانت كالمراسيم الاجتماعية تحمل فى كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض

وبدأ الحاكم بهذه المراسيم (السجلات) الدينية لأول عهده بالحكم أيضا . فى سنة ٣٩٥ ﻫ ،أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار ولبس العمائم السود ؛ وفى سنة ٣٩٩ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب مافيها ؛ وصدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة (قمامة) (٣) أو القبر المقدس ببيت المقدس ؛ وتضع

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٨٨

(٢) التشهير هو أن يطاف بالمذنب على حمار أو جمل وتعلق عليه كتابة بمضمون ذنبه ، وقد يكون عقوبة أصلية ، وقد يعقبه بعد ذلك جلد أو إعدام

(٣) تطلق الرواية العربية اسم « القمامة » على كنيسة القبر المقدس . وأصل هذه التسمية تاريخى يرجع الى أن القبر المقدس قد بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج أسوار بيت المقدس أيام المسيح ، وهو نفس الموضع الذى يقول الانجيل إن المسيح قد صلب فيه (راجع معجم البلدان لياقوت فى كلمة قمامة)

الرواية النصرانية تاريخ هذا المرسوم فى سنة ٧٢٧ للشهداء (١) ، وهى توافق سنة ٣٩٩ هـ (١٠١٠م) ، وكان حادثا جللا في تاريخ الكنيسة : وتقول الرواية الكنسية المعاصرة إن هذا السجل الشهير صيغ فى تلك العبارة الموجزة : «خرج أمر الامامة اليك بهدم قمامة . فاجعل سماءها أرضا ، وطولها عرضا » ، وتزيد على ذلك أن الذى كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن شترين ، وأنه توفي بعد كتابته بأيام قلائل ندما وحزنا ؛ وأنفذ السجل الى يارختكين والى الرملة (فلسطين) ، فقام بتنفيذه فى الحال ، وأحيط على ما بالكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة ، وهدمت سائر رحابها وقبابها ، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين التى بداخلها ، وأصبحت الكنيسة العظمى أثراً بعد عين ، ولم يبق منها سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس ، وهدم الدير الملاصق لها وكان غاصا بالراهبات من مختلف الأمم النصرانية ، وانتزعت سائر أحباسها وأملاكها وأموالها ؛ وكان هدمها فى شهر صفر سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠م)(٢)

ويروى في هذا الصدد أن الحاكم أمر بهدمها لما بلغه مما يقع بها من الرسوم والشعائر الوثنية المثيرة ، وما ينتظم اليها من المواكب الدينية الصاخبة التى يضج فيها النصارى بالصلوات والأدعية ويرفعون الصلبان الضخمة ، ولاسيما فى أيام الفصح وفى عيد الشعانين(٣)؛ وتقول الرواية الكنسية المعاصرة أيضاً إن راهباً قبطياً يدعى يونس نقم على البطريرك زخاريا لأنه لم يرسمه أسقفا فتقدم الى الحاكم ووصف له ما يتمتع به الأحبار النصارى من النفوذ والجاه ومظاهر السلطان والعظمة والثراء ، وكونهم يبيعون المناصب الكنسية وقال في رقعته التى رفعها اليه : « أنت ملك الأرض ، لكن للنصارى ملك لايعبأ بك لكثرة ماقد اكتنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع الأسقفية بالمال » وعدد فيها كثيرا من مثالبهم ، فكان مسعاه من العوامل التى أثارت

(١) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) وتاريخ الانطاكى ص ١٩٦ . ولكن بعض الروايات الاسلامية تقول بصدور هذا السجل فى سنة ٤٠٣ هـ ، أعنى حينما صدر السجل العام بهدم الكنائس (راجع أخبار الدول المنقطعة — المخطوط) وتاريخ الذهبى (المجلد الثانى والعشرون) وأورده النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ١٧٨) بيد أننا نؤثر الأخذ بالرواية النصرانية ، أولا لأنها أقدم الروايات ، بل هى معاصرة تقريبا ، وثانياً لأنها أقرب الى الضبط والتحقيق فى مثل هذا الحادث الجلل فى تاريخ الكنيسة وتاريخ النصرانية كلها . وراجع أيضا كتاب Jerusalem تأليف بالمر وبيزانت ص ١١٣ وما بعدها

(٢) تاريخ الانطاكى ص ١٩٦

(٣) » » » » ١٩٦

سخط الحاكم وحفزته الى هدم الكنائس ومطاردة النصارى

وقد كان لهدم القبر المقدس وقع عميق فى الأمم النصرانية كلها ، وكان له فيما بعد أثره في إذكاء الدعوة الصليبية التى شهرتها البابوية « لانقاذ فلسطين والقبر المقدس» واستمر موقع الكنيسة بعد هدمها أعواما طويلة مزاراً يحج اليه النصارى ، حتى أعيد بناؤها فى عهد المستنصر بالله بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما

وفى العام التالى صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى فى لبس الغيار وتقلد الزنار ، وألغيت الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد ، وأبطلت رسومها واحتفالاتها فى جميع أنحاء المملكة ؛ وكان النصارى يحتفلون بها فى بذخ طائل ، ويتخذونها فرصة لاقامة المظاهرات الدينية العظيمة ، فيشهرون الصلبان فى مواكبهم ، ويضجون بالترتيل والصلوات ؛ وتقترن هذه المظاهر الدينية باقامة الاحتفالات والمآدب والملاهى الباذخة ، ولا سيما على ضفاف النيل والخليج ، وتهرع الجموع الغفيرة لمشاهدتها من كل فج ، فأبطل ذلك كله ؛ وأبطلت أيضا رسوم الشعانين فى بيت المقدس ، وكانت تجرى فى ضجة عظيمة ، وتزين جميع الكنائس لهذه المناسبة بأغصان الزيتون وسعف النخل . وألغيت جميع الاحباس المرصودة على الكنائس والاديار بأعمال مصر وضمت الى الديوان ، وخربت كنائس مصر والمقس وابيحت للنهب ، وهدم دير القصير بالمقطم وهو أعظم أديار الملكية ونهب ، وكان يأوى اليه البطريرك أرسانيوس خال الأميرة ست الملك ؛ وقتل أرسانيوس نفسه بعد ذلك بأشهر قلائل (ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ) (١) ، ولم تحدثنا الرواية عمن قتله أو من أمر بقتله ؛ بيد أن فى الحادث نفسه ما يبعث الى الريب فى قرابة الحاكم بالحبر المقتول . وحرم ضرب النواقيس فى جميع أعمال مصر ، وأمر بنزع الصلبان الظاهرة فى أبراج الكنائس ، وأن يمحى النصارى الصليب من أيديهم وسواعدهم (٢)

وفى سنة ٤٠٢ هـ صدر مرسوم شامل ضد النصارى واليهود يقضى بأن يلبسوا العمائم والثياب السود ، وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبانا ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع فى ذراع ووزنه خمسة أرطال ، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم قرامى من الخشب زنتها خمسة أرطال أيضا ، وأن تختم هذه الصلبان والقرامى بخاتم من الرصاص يحمل اسم الخليفة ؛ وحرم على الفريقين معاً ركوب

(١) تاريخ الانطاكى ص ١٩٤ و ١٩٦ و ١٩٧ والمقريزى ج ٤ ص ٣٩٨

(٢) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار اليه)

الخيل ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من كل حلية ، وألا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أوجارية مسلمة : وحظر على المكارية المسلمين بمصر والقاهرة أن يحملوا على دوابهم ذميا ، كما حظر على الملاحين المسلمين أن يحملوا فى سفنهم ذميا ؛ ورسم بأن يحمل النصارى الصلبان ، واليهود الأجراس عند دخولهم الحمام تميزاً لهم من المسلمين ؛ ثم أفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة ، وعلقت الصلبان على حمامات النصارى ، وقرامى الخشب على حمامات اليهود ؛ وأنشىء لليهود حى خاص بجوار باب زويله حتى لا يختلطوا بالمسلمين[١] وطبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة ، ونزع سائر المتصرفين والكتاب الذميين من وظائفهم ، وكانوا جمهرة كبيرة ؛ فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وطوردوا واضطهدوا وأهينو فى كل مكان وساد بينهم الروع والرهبة ، وأسلم كثير منهم اجتنابا لهذا الارهاق، وتوارى معظمهم من الطرقات، وكثر بينهم الفزع والارجاف ، وهاجر البعض سراً الى بلاد الروم ، ونفى البعض الآخر الى خارج الديار المصرية ؛ وعمد كثير من النصارى الى نزع الغيار والتشبه بالمسلمين اتقاء الرقابة والمطاردة ؛ وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إن النصارى كانوا خلال هذه المحنة يتعبدون سراً بين أطلال الكنائس المهدومة ، ويخفون الآنية والذخائر المقدسة فى أعماق منازلهم ، ويقيمون فيها الشعائر والقرابين سرا ، وأقام بعضهم بيعاً سرية في الريف [٢]

وفي ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣م) صدر سجل جديد بهدم جميع الكنائس بالديار المصرية ؛ فهدم كثير من الأديار والبيع ونهبت وقطعت أحباسها ؛ وسأل جماعة من النصارى الحاكم أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنوها مساجد فأذن لهم ؛ ووهب الحاكم تراث الكنائس وذخائرها من ذهب وفضة الى جماعة من

---

(١) وهذا هو نظام الحى الخاص أو نظام « الجيتو » Ghetto الشهير حيث كانت تفرد لليهود أحياء خاصة ، وقد بدىء بهذا النظام فى المدن الايطالية منذ القرن السادس عشر ، ثم طبق فى جميع اوربا ، واستمر قائما حتى القرن التاسع عشر

(٢) راجع فى تفاصيل هذه القوانين وآثارها سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) وتاريخ الانطاكى ص ١٩٥ و ٢٠٢ وأخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية) ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص ٥٦ و ٥٧ ، وتاريخ أبى صالح الارمنى ص ٤٦ ا ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٢ وخطط المقريزى ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٣٩٩ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ و ١٧٨

الخدم الصقالبة ؛ وصدرت الأوامر الى كل متصرف بأن يهدم مافى ولايته من الكنائس ، وأن يمكن المسلمين من هدمها ، فهدمت آلاف الكنائس والبيع بسائر أنحاء القطر ، وأذن للصلاة في كنيسة شنودة كبرى الكنائس القبطية بمصر ، وأحيط بكنيسة المعلقة ، ووضع المسلمون أيديهم على مافى الكنائس والأديار من المال والذخائر وآنية الذهب والفضة والديباج ، وكانت جملة طائلة ؛ واستمر الهدم فى سائر أنحاء المملكة زهاء ثلاثة أعوام ؛ ويقال إنه هدم فى هذه الفورة المضطرمة من الكنائس والأديار زهاء ثلاثين ألفا ، وكانت منها عدة من الكنائس والأديار الأثرية الفخمة (١)

وكان رأس الكنيسة القبطية يومئذ هو الأنبا زخاريا بطريركها الرابع والستون ؛ وكانت أيامه كلها محن وأحداث للنصارى ؛ فلما اشتدت فورة الاضطهاد قبض عليه (سنة ٤٠٠ هـ) ، واعتقل مدى أشهر ؛ وتقدمه الينا الرواية الكنيسة المعاصرة فى صورة القديس الشهيد ، وتقول لنا إن الحاكم بأمر الله أمر بتعذيبه وتقديمه للسباع ، فالق اليها مراراً ، ولكنها كانت فى كل مرة ترتد عنه وديعة هادئة (٢)

وعانى النصارى واليهود هذه الشدائد والمحن مدى أعوام ؛ وكانت أشد ماعانوا فى ظل الدولة الاسلامية بمصر ، وكان من ملطفات المحنة أن صدر بعد ذلك بقليل مرسوم بأطلاق الهجرة للذميين ، وكان قد رفع الى الحاكم أن الأمر قد اشتد على النصارى وأنهم يفرون سراً الى بلاد الروم ، ويبذلون الأموال الجمة لأصحاب المراكز والطرقات لاطلاقهم ، فاصدر سجلا بأطلاق الحرية للنصارى واليهود بالهجرة الى بلام الروم أوالحبشة أوالنوبة أوغيرها ، وأن يحملوا أموالهم ويتصرفوا فيها آمنين مطمئنين . وكتب بذلك الى سائر الأعمال فهاجر كثير من النصارى واليهود بعد أن باعوا أملاكهم ، ولجأ كثير منهم الى أنطاكية وغيرها من الثغور الواقعة تحت حماية الروم (٣) .

ثم خفت وطأة المطاردة بعد ذلك تباعا . وفى سنة ٤١١ هـ قبيل اختفاء الحاكم بقليل ، صدرت عدة سجلات جديدة بألغاء هذه القوانين والفروض المرهقة وإطلاق

---

(١) سير البيعة المقدسة ، والمقريزى ج ٤ ص ٣٩٩

(٢) سيرة البيعة المقدسة ، والمقريزى ج ٤ ص ٣٩٨

(٣) سير البيعة المقدسة ، والانطاكى ص ٢٠٧

حرية الشعائر للنصارى واليهود ، ورد ما أخذ من أحباس الكنائس والأديار ، والسماح للنصارى بتجديد ما درس من الكنائس والبيع والأديار ، ورد ما أخذ منها من الذخائر والتحف والاخشاب والعمد ، وأطلقت الحرية للذميين الذين دخلوا في الاسلام كرها عنهم أن يرتدوا الى دينهم الأصلى ، فارتد كثير منهم . وتضع الرواية النصرانية تاريخ هذه السجلات فى سنة ٧٣٦ للشهداء وهى الموافقة لسنة ٤١١ هـ بعد تسعة أعوام من الخطوب والمحن[1] وتعتبر صدورها من الحاكم معجزة نصرانية[2] وتزيد على ذلك أن الفضل في كشف هذه الغمة المرهقة وفى إعادة الكنائس يرجع الى راهب يدعى بمين كان قد أسلم أيام المحنة ، ثم عاد الى دينه ، واستأذن الحاكم في عمارة دير شهران فى ضاحية مصر ، وأن الحاكم كان يزوره فى الدير ويستمع الى رغائبه ، وأنه كان واسطة التفاهم بين الحاكم وبين الأنبا زخاريا ، وأن الحاكم كان فى هذه الفترة يبدى إعجابه بالنصرانية ، ويعطف عليها وعلى بنيها[3]

وصدر يومئذ الى النصارى سجل أمان شامل هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر ؛ عند ما أنهوا اليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى هالهم فأقلقهم ، واستذراءهم بظل الدولة وتحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليهم بتوخيه لهم ذمة الاسلام وشرعه من تصيرهم تحت كنفه بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتضفو عليهم ملابس السكون والدعة واجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الاحقاب ، ويتوارثه الاخلاف منهم والاعقاب ؛ فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم ؛ هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وما تحويه أيديكم أماناً صريحاً ثابتاً ، وعقداً صحيحاً باقياً ، فثقوا به واسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى

---

(١) سير البيعة المقدسة

(٢) تاريخ الانطاكى ص ٢٣٢

(٣) سير البيعة المقدسة ، وتاريخ أبى صالح ص ٤٦ ا

أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول اليكم بمضرة يد الا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه وعظم إنكاره ، مضيقاً فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح واصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومن له وسيلة الثواء في كنف دولته ، واياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيداً ، وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم ان شاء الله تعالى » (١)

وصدرت عدة سجلات أخرى باطلاق الحرية للنصارى في اقامة الشعائر واعادة الكنائس ، ومنها سجل الى نيقيفور بطريرك بيت المقدس يؤذن فيه باقامة الصلاة في عرصة كنيسة القيامة وأطلالها ؛ وسجل باعادة بناء دير القصير ؛ وثالث برد أوقاف دير طورسينا ؛ وعدة أخرى . وقد أورد لنا الانطاكى صور بعض هذه السجلات التى تدلى روحها ونصوصها بأهمية الانقلاب الذى طرأ على سياسة الحاكم ازاء الذميين (٢)

ولقد كانت هذه المطاردة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكانت بلا ريب سياسة مقررة ، ولم تحمل فى مجموعها طابع التناقض ؛ بيد انها كانت في الوقت نفسه انقلاباً جوهرياً في السياسة الفاطمية ازاء اليهود والنصارى ؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت منذ قيامها بمصر ، تؤثر كما رأينا سياسة التسامح الدينى ، وتذهب فى هذا التسامح الى أبعد مدى ، فتصطفى اليهود والنصارى وتوليهم مناصب الثقة والنفوذ ؛ ومنذ أيام المعز نرى ثبتاً حافلا من الوزراء اليهود والنصارى يحتلون أرفع مناصب الدولة ، ويستأثرون بمعظم السلطات والنفوذ ؛ ولم يشذ الحاكم لأول عهده عن هذه السياسة ، فقدم النصارى في مناصب الوزارة والكتابة ، وتولى وزارته ثلاثة منهم هم الرئيس فهد بن ابراهيم ، وابن عبدون ، وزرعة بن عيسى بن نسطورس ؛ ونعم الذميون بما نعموا به من قبل من حرية ونفوذ ؛ ولم يك ذلك سوى استمرار في سياسة التسامح الفاطمية ، وربما كان راجعاً من بعض الوجوه الى نفوذ ست الملك ابنة العزيز وأخت الحاكم ؛ ولكن

---

(١) أورده الانطاكى فى تاريخه ص ٢٣٢

(٢) راجع تاريخ الانطاكى ص ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١

الحاكم نبذ هذه السياسة التقليدية فجأة وانقلب الى سياسة المطاردة الدينية ، وأبدى في تطبيقها منتهى التطرف والغلو شأنه فى معظم نزعاته واجراءاته . وقد قيل فى تعليل هذا الانقلاب إن الوزراء والكتاب والنصارى أسرفوا فى الاستئثار بالسلطات ، وفى استغلالها ، وأطلقوا عنان الأهواء الطائفية ، وقدموا النصارى فى المناصب وأقصوا عنها المسلمين ، وتمكن النصارى بفضل هذه الرعاية وهذا الاصطفاء من مرافق الدولة ، فأحرزوا الأرزاق والثروات الطائلة ، وأسرفوا فى مظاهر الجاه والثراء ، واقتنوا كثيراً من العبيد والجوارى المسلمين ، وأكثروا من اقامة الكنائس والأديار ؛ وبدت الأقلية النصرانية سيدة عزيزة الجانب ، بينما تقلص نفوذ الأكثرية المسلمة ، وفت فى مصالحها وفى أرزاقها ؛ فعندئذ اضطرم الحاكم سخطاً على الذميين ، وانقلب كما انقلب والده العزيز من قبل الى مطاردتهم وتحطيم نفوذهم وسلطانهم (١) ؛ كذلك قيل فى فرض السواد لباساً على الذميين انه يرجع الى ان السواد هو شعار بنى العباس خصوم الدولة الفاطمية وألد أعدائها ، فارتداء الذميين للسواد انما هو تنويه بخصومتهم وبغضهم (٢)

وقد كان للخلافة الاسلامية منذ عصر عمر سياسة خاصة لتنظيم مجتمع الذميين وتحديد مركزهم ازاء المسلمين ؛ وكان التشريع الذى أصدره عمر ، وهو أول تشريع من نوعه ، يحظر عليهم بناء الكنائس والبيع الجديدة . أو أن يرفعوا الصلبان فوق الكنائس ، أو يظهروا كتبهم المقدسة فى الطرق العامة ، أو يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس ، وألا يحاولوا تنصير مسلم أو يحولوا دون اسلام نصرانى ، وألا يحملوا السلاح أو يستعملوا السروج أو يسترقوا مسلما ؛ وأن يتخذوا لأنفسهم أزياء خاصة (٣) . بيد أن هذا التشريع لم يكن يحمل طابع المطاردة الدينية ، وإنما كان يقصد به تنظيم الحقوق والواجبات وتحديدها في حدود سياسة التسامح العامة التى كانت تجرى عليها الدولة الاسلامية منذ نشأتها

أما هذه السياسة المغرقة المثيرة التى جرى عليها الحاكم بأمر الله ازاء الذميين ،

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٣٩٩

(٢) المقريزى ج ٤ ص ١٥٧

(٣) راجع هذه الأحكام والقوانين فى فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٥١ ، وراجع كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » (الطبعة الثانية) ص ٢٢ و ٢٣

وأما هذا الاضطهاد المنظم ، فهو أبعد الأمور عن روح التسامح المستنير الذى جرت عليه السياسة الاسلامية ازاء الذميين فى جميع العصور والدول : ومهما تكن بواعث هذه السياسة العنيفة ، فانها في نظرنا سياسة غاشمة لا نستطيع أن نسيغها أو نتجاهل عواقبها الوخيمة ؛ بيد أنا نلاحظ مع ذلك أن مطاردة الأقليات الدينية أو الجنسية ليست خاصة من خواص العصور الوسطى وحدها ، وإنما هى نزعة تضطرم بها فى عصرنا طائفة من أرقى الدول الغربية ، وتتخذ صوراً لا تقل فى قسوتها وروعتها عما عرفته العصور الوسطى، وربما كان فى ذلك مايخفف بعض الشىء من تبعة الحاكم بأمر الله طاغية العصور الوسطى

— ٣ —

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها كانت تتناول الناحية الاسلامية أيضا ، بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة . وقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم فى مصر شعباً لايتبعها من الوجهة المذهبية ، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية ؛ وقد حذا الحاكم في ذلك حذو أبيه العزيز وجده المعز ،وعمل لبث الدعوة الفاطمية فى قوة وجرأة، ولكن فى نوع من التناقض أيضاً : ففى ٣٩٥ هـ ، أمر بسب السلف (أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة) ، وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد ولا سيما جامع عمرو فى ظاهره وباطنه ،وعلى أبواب الحوانيت والمقابر والدور والقياسر ولون بالاصباغ والذهب ، وارغم الناس على المجاهرة به ونقشه فى سائر الأماكن . وكان سب السلف مظاهرة شيعية عملية، ولكن سخيفة مبتذلة ، فلم يلبث أن ضج الشعب لهذا الاجتراء المثير ، وألغى المرسوم (سنة ٣٩٧) وأمر بمحو كل ما كتب على المساجد والدور وغيرها من ذلك ، وطافت الشرطة بمختلف الاحياء والاماكن تنفذ الامر الجديد ، وشدد فى هذا المنع فيما بعد ، وعوقب المخالفون بالضرب والتشهير ؛ وفي سنة ٤٠٣ هـ ثارت بين الكافة فتنة من جراء السلف، فتمسك بعضهم بالسب ، واعترض آخرون ، وهرعت جموع الفريقين الى القصر ، فصرفهم غبن قائد القواد ؛ ثم قرىء سجل جديد بالترحم على السلف ، وشدد في محو السب أينما وجد ، واستمرت الحال على ذلك حتى أواخر الدولة الفاطمية (١)

(١) المقريزى ج ٢ ص ٧٣ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠

وفى سنة ٢٩٨ هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها ، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض الأحكام وتطبيقها ، وهو مرسوم (سجل) يشف عن روح العصر ، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبين ، وإليك نصه بعد الديباجة :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين ، لا إكراه فى الدين . . . مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه ؛ معاشر المسلمين : نحن الأئمة ، وأنتم الأمة . . . من شهد الشهادتين . . . ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها من عصم ، وحرم عليها ماحرم ، من كل محرم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح ؛ والفساد والافساد من العباد يستقبح ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على مامر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت فى الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين ، سلام الله عليهم أجمعين ، مهديهم بالله ، وقائمهم بأمر الله ، ومنصورهم بالله ومعزهم لدين الله ، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية ، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية ؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لامانع لهم منها ولاهم عنها يدفعون : يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لايؤذنون ؛ لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف ، والخالف فيهم بما خلف ؛ لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، والى الله ربه ميعاده عند كتابه وعليه حسابه ؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ؛ لايستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده ، من جميع مانصه أمير المؤمنين فى سجله هذا ، وبعده قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ، الى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم تعملون » . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب فى رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة »(١)

(١) نقلنا نص المرسوم عن ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ . والظاهر أن هناك خطأ مادياً فى التاريخ وأن صحته هى « ثمان وتسعين » لأن الأمر بسب السلف صدر سنة ٩٥ أى قبل صدور المرسوم ، وصدر الأمر بمحوه سنة ٩٧ . راجع المقريزى ج ٤ ص ٧١

هذا هو نص المرسوم الفاطمى الشهير الذى تجمع فيه بعض الأحكام المذهبية المتناقضة فى صعيد واحد، ويسبغ عليها جميعا لون الصحة؛ وهذه سياسة لاتخفى حكمتها وأثرها فى تهدئة النزعات المذهبية المختلفة، وعقد الوئام بين الطوائف، وفي تغليب خطة التسامح المرن على خطة الجمود المذهبي؛ ويقول المستشرق ميلر تعليقا على هذا المرسوم، إن الحاكم أراد أن يفهم الشعب على اختلاف طوائفه، أنه مع انتسابه للشيعة المغرقة، لايرى بأساً من احتقار الأحكام الدينية المضنية سواء فى المأكل أو الملبس أو غيرها، وأن الأديان كلها سواء فى فروضها المرهقة وأنه لابأس من التحرر منها(١)

وفي سنة ٤٠٠ هـ صدر سجل بالغاء الزكاة والنجوى (أو رسوم الدعوة) وأعيدت صلاة الضحى وصلاة التراويح؛ وركب الحاكم الى جامع عمرو وأدى فيه صلاة الضحى وهو مالم يفعله خليفة فاطمى من قبل إذ كان جامع عمرو يعتبر ملاذ السنة، وأمر بأن تسقط من الأذان عبارة «حى على خير العمل»، وقد كانت شعار الأذان الفاطمى منذ الفتح، وأن تستبدل بقولهم فى أذان الفجر «الصلاة خير من النوم». ثم أعيدت «حى على خير العمل» فى ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ وألغيت صلاة الضحى والتراويح

ومن الصعب أن نحدد موقف الحاكم إزاء الشؤون والأحكام الدينية تحديداً واضحا، فقد نسبت اليه فى هذا الشأن تصرفات كثيرة متناقضة؛ وفى بعض الروايات أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الجوهرية كالصلاة والصوم والحج، وقيل إنه شرع في إلغائها أو إنه ألغاها بالفعل؛ ومن ذلك أنه ألغى الزكاة كما رأينا، وألغى صلاة الجمعة الرسمية فى رمضان، وفى العيدين، وألغى الحج وأبطل الكسوة النبوية غير مرة، ولكن لأسباب قاهرة كاستيلاء العرب على طريق الحاج واضطراب الامن فيه، أو وقوع الوباء أو غيرها؛ وتحمل نفس الرواية هذه التصرفات على أنها انحراف من الحاكم عن الاسلام وجنوح الى الدعوة الالحادية التى أذاعها الدعاة السريون وبشروا فيها بالوهيته كما سنرى (٢). والوقع أن أولئك الدعاة ينوهون فى

---

(١) Muller ; Der Islam, I p. 631

(٢) تاريخ الانطاكى ص ٢٢٤

رسائلهم باقدام الحاكم على الغاء فرائض الاسلام الجوهرية كالصوم والحج والصلاة لحكم زعموها . بيد أنه ليس ثمة ما يدل على أن الحاكم قد ذهب فعلا الى هذا الحد في تصرفاته الدينية ، وإن لم يك ثمة شك في أنه عمل على تعديل بعض الأحكام والرسوم تعديلا يجعلها أقرب الى الصبغة المذهبية . وأما عقيدة الحاكم الدينية فمن المجازفة أن نقطع فيها برأى حاسم ، ومن المحقق أنها لم تثبت على وتيرة واحدة ، وأنها حسبما تدل تصرفاته وأوامره الدينية ، كانت تختلف باختلاف فترات حكمه ؛ ونستطيع أن نصف الحاكم طورا بعد آخر بالتعصب الدينى والاغراق المذهبي ، واليقين والتشكك ، والايمان والالحاد ؛ وسنرى عند الكلام عن الدعوة الفاطمية السرية أن الحاكم كان فى أواخر عصره يذهب الى أبعدمدى من الغلو والاغراق ، فيؤيد الدعوة السرية الى نسخ أحكام الاسلام ، والى الدعوة بألوهيته وقيامه ، أوعلى الأقل يغضى عنها ؛ ويعترض ابن خلدون بشدة على القول بكفر الحاكم وإلحاده وإلغائه للصلاة، ويقول إنه زعم لايقبله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم شيء منه لقتل لوقته (١). بيد أن هذا المنطق لايتفق مع الأدلة والوثائق التى انتهت الينا عن الفترة الأخيرة من عصر الحاكم وعن تصرفاته الدينية ومؤازرته للدعاة السريين كما سنبين بعد

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

الفصل السادس

شخصية الحاكم وخلاله

خلال الحاكم وبعض خواصه . سخاؤه وبذله . تعففه عن أموال الرعية . منشآته . إنشاء الجامع الحاكمي وغيره . عنايته بالمساجد والمستشفيات . وقفه لبعض أملاكه على الأزهر ودار الحكمة . تحريره الرقيق . تعضيده للعلوم والآداب . رفع المكوس والنجوى . عدالته وتقديره للقضاء . عنايته بتوطيد الأمن ومطاردة الاجرام . تقشفه وزهده . تواضعه وجنوحه الى البساطة فى مظاهره ومواكبه . إلغاؤه للرسوم والزينات . ركوبه فى محفة . بساطته المؤثرة . إغراقه فى التقشف . إطلاقه لشعره . حياته الخاصة . الحاكم والنبيذ . تشريده للحظايا . ورعه وإضرابه عن الملاذ . شخصية الحاكم . كيف تقدرها الرواية السنية . خواص ذهنه وعقليته . شرح باتولوجى لأعماله وتصرفاته . أقوال المستشرق ميلر . الطاغية المصلح . المطاردة الدينية وبواعثها . قيامها فى عصرنا . القوانين الاجتماعية وحكمتها . الاصلاح الاجتماعى ومطاردة الفساد . بواعث الحجر على النساء . حكمة بعض القوانين التحريمية . أقوال غريبة فى تصرفاته . عبقرية الحاكم

— ١ —

ولننتقل الى ناحية أخرى من خلال الحاكم وتصرفاته . كان الحاكم باجماع الرواية جواداً وافر البذل ، وكان كثير الزهد فى المال ؛ وكانت الخلافه الفاطمية قد حققت في عهدها القصير من الأموال والثروات الطائلة من الجواهر والتحف الباذخة مايفيض فى وصفه المؤرخون المعاصرون بما يدهش ويبهر ، وتكدس لدى الحاكم من الأموال والتحف ما يجل قدره ووصفه (١) . ولكن الحاكم لم يغرق في تلك المظاهر الفخمة التى كانت تنثرها الخلافة الفاطمية من حولها ، وكان يؤثر بطبيعته مظاهر الانكماش والبساطة ؛ وكان خلافاً للطغاة يعف عن مال الرعية ، فاذا بدا له

---

(١) راجع المقريزى فيما نقله عن المسبحى وغيره من مؤرخى الدولة الفاطمية عن غنى هذه الدولة ووفرة بذخها وبهائها (ج ٢ ص ٢٥١ - ٢٨١) وراجع النجوم الزاهرة فيما نقله عن ثروة الحاكم بأمر الله (ج ٤ ص ١٩٢)

أن يصادر مال كبير مغضوب عليه فانه يضيفه الى الأموال العامة، وقد أنشأ لذلك ديواناً خاصاً يسمى بالديوان «المفرد» تضاف إليه أموال من يقضي عليهم بالمصادرة، وقد ترد هذه الأموال الى اصحابها متى زالت أسباب السخط عليهم، وقد تبقى نهائيا وتستعمل فى الشؤون العامة (١)

واشتهر الحاكم طوال عهده بالسخاء والبذل، وكان يسرف فى العطاء أحياناً الى حدود تهدد مالية الخزينة وتثير اعتراض الوزراء ورجال الدولة؛ ومما يؤثر فى ذلك أن أمين الأمناء الحسين بن طاهر الوزان اعترض ذات مرة على إسراف الحاكم في الصلات والعطايا، وبلغ الحاكم اعتراضه وتوقفه فى تنفيذ الأوامر، فبعث اليه بخطه في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٤٠٣ بهذه الرقعة المؤثرة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله كما هو أهله ومستحقه:

أصبحت لا أرجو ولا أتقى   إلا إلهى وله الفضل
جدى نبيّ، وإمامى أبى   ودينى الاخلاص والعدل

ماعندكم ينفد، وما عند الله باق، والمال مال الله عز وجل، والخلق عيال الله، ونحن أمناؤه فى الأرض، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام»(٢). ورأى الحاكم أن يضع نظاما خاصا وادارة خاصة للبر بالفقراء والمعوزين وكذلك الفقهاء والمؤذنين بالجوامع، فأصدر فى رجب سنة ٤٠٣ سجلا بأن تحبس عليهم طائفة كبيرة من الضياع والاماكن. وكان ذوو الحاجات يقصدون الحاكم أثناء طوافه، سواء بالنهار أو الليل، ويرفعون اليه حاجاتهم وظلاماتهم، فيقضي فيها بنفسه، ويقضى حاجات الكثيرين، وينثر العطايا على المحتاجين (٣). بيد أنه لم يكن يخلو في ذلك من الشذوذ أيضاً فيبخل أحيانا بأقل الصلات (٤)

ولم يخل عصر الحاكم على اضطرابه من الأعمال الانشائية الخطيرة، ومن الأعمال والمآثر الخيرية الجليلة؛ فقد عنى الحاكم بتجديد الجامع الأزهر وإصلاحه،

---

(١) المقريزى ج ٣ ص ٢٣

(٢) الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٩ وينسب ابن خلدون هذا الشعر الى الخليفة الآمر بأحكام الله (ج ٤ ص ٧١)

(٣) النجوم الزاهرة عن ابن الصابى ج ٤ ص ١٨٠

(٤) مرآة الزمان، المجلد المشار اليه ص ٤٠١ (ونقله النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦)

وأنشأ جامعة دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة (سنة ٣٩٥ ﻫ) وسنتناولها فيما بعد في بحث خاص ؛ وأنشأ جامعه الشهير المسمى باسمه جامع الحاكم أو الحاكمى أو الجامع الأنور أو بالحرى أتم بناءه ، وكان أبوه العزيز بالله قد بدأ بانشائه ، وتوفي قبل إتمامه ، فأمر الحاكم باتمامه فى سنة ٣٩٣ ﻫ ، واستغرق بناؤه زهاء عشر سنين ؛ ولما تم بناؤه عنى الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية كبيرة وزين بالستور الفخمة ، والتنانير الفضية ، وأقيمت فيه الجمعة في رمضان سنة ٤٠٣ ﻫ ، وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوما مشهوداً ، وألفى الجامع الأزهر لأول مرة فى جامع الحاكم منافساً ينازعه الصفة الرسمية التى استأثر بها حتى ذلك الحين ؛ وما زالت أطلال هذا المسجد الشهير قائمة الى يومنا (١) . وأنشأ الحاكم أيضاً جامع راشده (سنة ٣٩٣ ﻫ) وتم بناؤه سنة ٣٩٥ ﻫ ، وأشرف الحاكم على تأثيثه وتزيينه ، وأقام فيه الجمعة في رمضان سنة ٣٩٨ ﻫ وخطب فى الناس ؛ وأنشأ أيضاً جامع المقس وغيرها ؛ وعنى بفرش المساجد وتجميلها وتزويدها بالخطباء والمؤذنين واجراء النفقة عليها ؛ وأنشأ فى سفح جبل المقطم مصلى فخما يعرف بمصلى العيد ، وكان يختلف إليه من وقت الى آخر (٢)

وفى سنة ٤٠٣ ﻫ أمر الحاكم باحصاء المساجد التى لا غلة لها فوجدت ثمانمائة وثلاثين مسجداً رصدت لها النفقة اللازمة لأجراء الشعائر فيها ؛ وفي سنة ٤٠٥ ﻫ وقف الحاكم عدة ضياع وأملاك وقياسر على القراء والفقهاء والمؤذنين ونفقة المارستانات (المستشفيات) وأرزاق العمال والمستخدمين وثمن الاكفان للفقراء

ومن مآثر الحاكم وقفيته الشهيرة على مساجد القاهرة وفى مقدمتها الجامع الأزهر ، ودار الحكمة ؛ ففى سنة أربعمائة وقف الحاكم على تلك المعاهد طائفة من أملاكه ورباعه بالفسطاط ينفق عليها من ريعها ، وخص الجامع الأزهر منها بقسط لأصلاحه وفرشه وإنارته والانفاق على خطبائه وأئمته وخدمه ؛ وقد أورد لنا المقريزى نص هذه الوقفية الشهيرة ، وهى فيما نعلم أول وقفية ملوكية رتبت للجامع

---

(١) تقع أطلال هذا المسجد الشهير بين باب الفتوح وباب النصر داخل السور ، وكان موقعه فى البداية خارج السور

(٢) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٦

الأزهر ، وكان الوزير ابن كلس أول من رتب للأزهر وقرائه نفقة خاصة وذلك في أيام العزيز بالله (١)

ومن مآثره الشهيرة أيضاً أنه فى سنة ٤٠٤ هـ ، أعتق كل ما يملك من الرقيق بالقاهرة وجميع النواحى الأخرى ، وكانوا جمعاً كبيراً ، ووهبهم كل ما يملكونه في حال الرق ليكون مالا لهم فى حال العتق ؛ وكان هذا اجراء مؤثراً ، يشهد لصاحبه بسمو الفكرة الانسانية وجلالها (٢)

وفى مواطن كثيرة نرى الحاكم نصير العلوم والتفكير والآداب ؛ فقد أغدق المنح لأساتذة دار الحكمة عند افتتاحها ، وحمل اليها الكتب من خزائن القصر ، لينتفع بها سائر الباحثين والطلاب ؛ ويذكر لنا المسبحى أن الحاكم في سنة ٤٠٣ هـ ، استدعى أساتذة دار الحكمة من الفقهاء والرياضيين والأطباء ، وعقد لهم بالقصر مجلساً للمناظرة ، فكانت كل طائفة تحضر بين يديه للمناظرة على انفراد ، ثم خلع على الجميع ، وأجزل لهم الصلات (٣)

وكان من أصدقاء الحاكم وخاصته عدة من أقطاب المفكرين والأدباء فى هذا العصر ، منهم عز الملك المسبحى الكاتب والمؤرخ الكبير ، وكان يتولى النظر على ديوان الترتيب منذ سنة ٣٩٨ هـ ، وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ؛ ونال المسبحى لدى الحاكم حظوة كبيرة ، وكانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات شائقة (٤) ؛ ومنهم أبو الحسن على بن يونس الفلكى والمنجم المشهور ، وكان أديباً وشاعراً أيضاً ، وقد ألف للحاكم معجما ضخما فى الفلك يعرف بالزيج الكبير (٥) ، وابن مقشر الطبيب النصرانى ، وكان طبيب الحاكم وطبيب والده العزيز بالله من قبل

---

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٤٩ – ٥٢ ، وقد أثبتنا نص هذه الوقفية فى نهاية الكتاب

(٢) تاريخ الانطاكى ص ٢٠٧

(٣) المقريزى عن المسبحى ، الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ و ٣٣٥

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

(٥) هو على بن عبد الرحمن بن يونس المصرى ، كان ابوه عبد الرحمن بن يونس من أكابر محدثى مصر ومؤرخيها ، واشتغل ابن يونس بالرياضيات والفلك وبرع فيها براعة عظيمة ، وقربه الحاكم اليه ، وألف له الزيج الكبير ، وكان فوق علمه أديبا وشاعراً ، وقد توفى سنة ٣٩٩ هـ (راجع أخبار العلماء لابن القفطى ـ مصر ـ ص ١٥٥)

واستدعى الحاكم المهندس البصرى الكبير أبا على بن الحسين بن الهيثم لما بلغه من براعته وتفننه ، وعهد اليه بفحص أحوال النيل ، وماذا عسى أن يعمل للانتفاع بمائه ؛ ولكن ابن الهيثم رأى أنه لا يستطيع أن يزيد شيئاً على أعمال القدماء ، فاعتذر للحاكم عن قصوره ، وولاه الحاكم بعض الدواوين ، ولكنه خشى بطشه فتظاهر حيناً بالجنون حتى توفى الحاكم (١)

وكان الحاكم يميل الى التخفيف عن الشعب فى أمر الضرائب فكان يرفع عنه أحياناً بعض المكوس حين الأزمات العامة ، وقد يعيدها طبقاً للظروف والأحوال؛ ولما فتحت دار الحكمة كان من رسومها أن يؤدى « المؤمنون » مال النجوى ، وهو رسم اختيارى ينفق من دخله على النقباء ، وكانت تحصل أحياناً وتبطل أحياناً

وثمة خلة بارزة أخرى من خلال الحاكم هى العدالة ؛ وربما كان غريبا أن تمثل العدالة فى معترك من الخلال يشوبه كثير من الشذوذ والتناقض؛ ولكن الواقع أن هذا الذهن المضطرم كان يرتفع بمعيار العدالة الى حدود تحمل على التقدير والاحترام؛ وقد أشادت الروايات المعاصرة بهذه الخلة الرفيعة التى يدلل عليها الحاكم فى مواطن كثيرة ؛ وإليك ما يقوله مؤرخ نصرانى هو الأنطاكى : « وأظهر (أى الحاكم) من العدل مالم يسمع به ؛ ولعمرى إن أهل مملكته لم يزالوا فى أيامه آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم ؛ ولم تمتد يده قط الى أخذ شىء مال من أحد ؛ بل كان له جود عظيم ، وعطايا جزيلة وصلات واسعة ؛ ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته عن لهم الأموال العظيمة مالا يقع عليه الاحصاء لكثرته ، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم لا سيما من كان له وارث ؛ ومن لاوارث لهم كانت تركتهم تستوهب منه فيهبها على الأكثر ؛ وأسقط جميع الرسوم والمكوس التى جرت العادة بأخذها ؛ وتقدم الى كل من قبض منه شىء من العقار والأملاك بغير واجب أو فى مصادرة في أيامه وأيام أبيه وجده أن يطلق ما قبض منه »(٢) . ونقلت الينا الرواية الكنسية واقعة تدل على تقدير الحاكم لمعنى العدالة واحترامه القضاء ؛ وهو أنه حينما صدر مرسوم تحريم النبيذ وأمر باتلاف الكروم والزبيب والعسل ، تقدم الى قاضى القضاة شخص

---

(١) ابن العبرى ص ٣١٧ و ٣١٨

(١) تاريخ الانطاكى ص ٢٠٦

أتلفت بضاعته من الزبيب والعسل ، وادعى على الحاكم بأنه أتلف ماله الحلال بغير حق . وأنه لم يحرز الزبيب والعسل لصنع الخمر ، وإنما لصنع الحلاوة فقط ، وطالب الحاكم بأن يعوض له ماأتلف من ماله وقيمته الف دينار ؛ فقبل الحاكم الخصومة وطلب أن يحلف التاجر على صدق دعواه ، وأنه انما أحرز هذه البضاعة لصنع الحلاوة فقط ، فحلف التاجر ، وحكم له بماله ، وأدى له الحاكم ماطلب (١)

ولنلاحظ أن لأقوال الرواية النصرانية والكنسية فى هذا الموطن وهى أشد الروايات وطأة على الحاكم قيمتها ومغزاها ، بيد أن العدالة لم تكن لدى الحاكم عاطفة فقط ؛ وانما كانت مبدأ وركنا من أركان سياسته العامة ؛ وقد عنى الحاكم بتنظيم القضاء وتوطيد أركان العدالة وتطهيرها من الرشوة ؛ كما عنى بتوطيد الأمن ، واشتد فى مطاردة الاجرام والضرب على أيدى المجرمين والعابثين بالأمن ؛ وكان لسياسته أثرها المحمود ، اذ ارتفع معيار العدالة فى عصره ، وتوطدت أركان الأمن ، وقلت الجرائم ولا سيما السرقات قلة تذكر (٢)

— ٢ —

الى جانب هذا الجود الشامل ، وهذا التعفف عن أموال الرعية ، وهذا الجنوح الى العدالة ، كان الحاكم يتمتع بخلة أخرى أجمع المؤرخون على الاشادة بها : تلك هى زهده وتقشفه فى مظاهره العامة وفى حياته الخاصة ، ثم تواضعه المؤثر واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة التى كان يحيطه بها ملك قوى وخلافة باذخة . وكان لأول حكمه قد أمر بمنع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وحده ؛ ثم عاد فأصدر أوامره بألا يقبل أحد له الارض ، ولا يقبل أحد ركابه ولا يده عند السلام عليه ، إذ لايجوز الانحناء الى الارض لمخلوق ، وإنما هى بدعة من صنيع الروم لايجمل أن يجيزها أمير المؤمنين ؛ ويكفى فى السلام الخلافي أن يقال : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ، كذلك يجب ألا يصلى عليه أحد فى مكاتبة ولا مخاطبة ، بل يقتصر في ذلك على « سلام الله وتحياته وتوامى بركاته على أمير المؤمنين » ويدعى له بما تيسر من الدعاء فقط ؛ وقد كانت الصلاة

(١) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى)

(٢) تاريخ الانطاكى ص ٢٠٥ ، والمستشرق دى ساسى Religion des Druses V.I.p. 425

على أمير المؤمنين من أخص رسوم الخلافة الفاطمية ، وكانت الامامة عنوانها ، وكان يصلى على الخليفة كما يصلى على النبى فى الخطبة ، وفي المكاتبات والمحادثات الرسمية . ولكن الحاكم أبطل هذه الرسوم ولم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين ، آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك . . . . » ومنع الحاكم أيضا ضرب الطبول والأبواق حول القصر ، فصار الحرس يطوفون بلا طبل ولا أبواق . وركب الحاكم يوم عيد الفطر (٤٠٣ هـ) الى المصلى بلا زينة ولا جنائب ولا موكب فخم ، واكتفى بأفراس عليها سرج ولجم محلاة بفضة خفيفة ، وبنود ساذجة ، ومظلة خلافية بيضاء بلا ذهب ، وعمامة دون جوهر ، ولم يفرش المنبر ، ولم تتخذ بالمسجد أهبات غير عادية ؛ وركب الى الصلاة فى عيد الأضحى على هذا المنوال البسيط[1] ؛ وكان نقش خاتمه « بنصر المولى العلى ينتصر الامام أبو على »

وترك الحاكم ركوب العماريات والخيل والبغال المسومة ؛ وترك معظم الرسوم الفخمة التى امتازت بها مواكب الخلفاء الفاطميين ؛ وكان يدفعه الى ذلك شغف حقيق بالبساطة ؛ وكانت هذه النزعة الى البساطة تسود معظم المواكب والاستقبالات الرسمية . وكان الحاكم يركب فى المدينة فى أبسط المظاهر التى تذكرنا بديمقراطية المسلمين الأوائل ، فيرتدى ثياباً بسيطة ، أو يرتدى دارعة صوف بيضاء ، ويتعمم بفوطة وفى رجله حذاء عربى ساذج ؛ وقد يركب فرساً بلا زينة أو حماراً ؛ وفي أحيان قليلة يركب محفة يحملها الرجال ، أو عشارية تشق به النيل ؛ وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا ضجة ، لا يصحبه من الحشم سوى بضعة من الركابية

ومرض الحاكم فى سنة ٤٠٧ هـ ، فلم ينقطع عن الركوب والطواف ، واتخذ له محفة يجلس فيها أو يضطجع ، ويحملها أربعة من الركابية ، ويطوف بالليل والنهار على هذا المنوال ، فلما شفى من مرضه عاد الى ركوب الحمير ؛ وكان طوال حياته يميل الى الاتصال بالشعب والاختلاط به ؛ ومع أن أبواب القصر كانت تفتح دائماً لكل قاصد من ذوى الحاجات والمتظلمين ، فانه كان أثناء طوافه يشغل بتلقى رقاع

---

١) المقريزى ج ٤ ، ص ٧٢ و ٧٣ ؛ والانطاكى ص ٢٠٥

الكافة والاستماع الى ظلاماتهم بنفسه وقضاء ما استطاع من حوائجهم ، وربما حمل اليهم بنفسه السجلات والمراسيم المطلوبة : وجنح الحاكم فى تلك الفترة الى نوع من التصوف المدهش ، فأطلق شعره حتى تدلى على أكتافه ، وأطلق أظافره ، واستعاض عن الثياب البيضاء الساذجة بثياب سود ، فكان يرتدى جبة من الصوف الأسود العادى ، وقد لايغيرها مدى حين حتى يعلوها العرق والرثاثة ، وقد يرتدى أحياناً جبة مرقعة من سائر الألوان ، وكان الحاكم يبدو في هذه المظاهر شخصية روائية لايدرك كنهها ؛ وقد كان هذا اغراقاً يصعب تعليله ، وان كان يتفق فى مجموعه مع النزعات الهائمة التى عرف بها الحاكم طوال حياته (١)

وأما عن حياة الحاكم الخاصة فلم تصلنا سوى لمحات ضئيلة ؛ ولكن ما وصلنا منها يدل على أنه كان يعيش بنفس البساطة التى كان يبدو بها فى حياته ومظاهره الرسمية ؛ وقد رأينا كيف اضطلع الحاكم بأعباء الحكم صبياً دون السادسة عشرة ، وكيف أن انهماكه فى الشؤون العامة منذ حداثته لم يترك له فرصة للانغماس في مجالى اللهو والعبث التى يغرق فيها من كان فى سنه وفى ظروفه ؛ وقد كان الحاكم تحمله بلا ريب نزعة صوفية فلسفية ؛ ذلك أنه كان يرى فى التقشف والبساطة مثله ، ويحتقر متاع هذه الحياة الدنيا ؛ ويرتفع فى معظم الأحيان والمواطن عن مفاسد هذا المجتمع وعن غرائزه وشهواته النفسية الوضيعة

وقد نقلت الينا الرواية بعض لمحات عن حياته الخاصة تؤيد فى مجموعها هذه الحقيقة ؛ من ذلك أن كان يجانب الخمر ويحرمها على نفسه كما حرمها على رعاياه ، ولم يعدل عن هذا التحريم إلا حينما أشار عليه طبيبه النصرانى أبو يعقوب اسحق ابن ابراهيم بأن يشرب النبيذ لبواعث صحية ، فنزل على نصحه ، وجنح الى ما يستتبعه الشراب من مجالس السمر والغناء مدى حين ؛ فلما توفى أبو يعقوب امتنع عن الشراب ومجالسه وعاد الى زهده وتقشفه واشتد فى تحريم النبيذ ؛ وقيل أيضاً إن الحاكم كان يشغف بالنساء ، وكان لديه سرب من الحظايا والجوارى ؛ ولكنه حمل ذات يوم بنزعته الصوفية ، فأخرج من قصره معظم هؤلاء الحظايا ، بل قيل إنه

(١) راجع سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى المشار اليه) ، وتاريخ الانطاكى ص ٢٠٥ و٢١٧ و٢١٨ وأخبار الدول المنقطعة (المخطوط الفتوغرافى)

أغرق بعضهن فى النيل فى صناديق وضعن فيها وسمرت عليهن . وجنح الحاكم فى أواخر عهده الى النسك المطلق والزهد والورع ، وأضرب عن جميع الملاذ الحسية والنفسية واقتصر فى طعامه على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع ؛ ولبث أعواما يرتدى الثياب الساذجة والصوف الخشن كما رأينا ، بل قيل إنه أضرب عن دخول الحمام مبالغة فى الخشونة والتقشف[1] وعلى الجملة فلم تذكر لناالروايات المعاصرة أو المتأخرة ، أن الحاكم كان فى حياته الخاصة يتصف بشىء من تلك الرذائل الاجتماعية الشاملة التى يتصف بها معظم الطغاة فى تلك العصور ، بل تدل أقوالها جميعاً على أن هذا الطاغية الفيلسوف ، كان أميل الى النقاء فى حياته الخاصة ، والى الزهد فى ذلك الترف الناعم الذى يفت فى الأجسام والأرواح القوية

وهكذا نجد أن هـذه الشخصية العجيبة التى تقـدم الينا من نواحيها العامة فى صور مثيرة مروعة ، تحملنا فى كثير من نواحيها الخاصة على الاعجاب والاحترام ، بما تنسف عنه من سمو المثل ونقاء النفس واحتقار الشهوات الانسانية

— ٣ —

وهنا نحاول ، بعد أن استعرضنا أعمال الحاكم بأمر الله وغريب أحكامه وتصرفاته أن نعرض الى أدق وأصعب نقطة فى دراسة هذه الشخصية العجيبة

ما ذا كانت حقيقة هذه الشخصية التى جمعت بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشـذوذ والتناقض ؟ وبأى عين يجب أن تنظر اليها ، وبأى معيار نستطيع أن نقدر صفاتها وأعمالها ؟ وأى أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها فتقرب علينا فهم حقيقتها ؟

لدينا فى ذلك مادة منوعـة : أقوال الرواية الأسـلامية المعاصرة والمتأخرة ، وحوادث العصر ، وأعمال الحاكم وتصرفاته ذاتها . فأما الرواية الأسلامية فلا ترى فى أمر الحاكم لغزاً يصعب استجلاؤه : ولنـلاحظ أولا أن ما انتهى الينا من أقوال الرواية الأسـلامية ، إنمـا هو فى الغالب أقوال المؤرخين السنيين ، خصوم الشيعة وخصوم الدولة الفاطمية ، وأننا لم تتلق من تراث الشيعة الذى بددته الحوادث

(١) راجع تاريخ الانطاكى ص ١٩٢ و ٢٠٧ وابن قزأوغلى فى مرآة الزمان فى الجزء المشار اليه ص ٤٠١ ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦

والدول الخصيمة ما يلقى ضياء كافياً على ذلك الخفاء الذى يحيط بشخصية الحاكم وأعماله . والحقيقة أن الرواية الاسلامية تأخذ فى هذا الموطن بظواهر الحوادث المادية، وتكتفى بأن تقدم الينا الحاكم فى تلك الصور المروعة المثيرة التى أشرنا اليها ؛ وقلما تحاول أن تلتمس فيما وراء ذلك شيئاً من البواعث والأسباب التى يمكن أن نعلل بها بعض نزعات الحاكم وتصرفاته العجيبة . وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الاسلامية فى وصف الحاكم ، فهى لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير ، عنيف الأهواء والنزعات ، كثير العيث والسفك ، شديد التناقض ، لا يصدر عن روية أو منطق متزن ، ولا يتحرى غاية أو مثلا معقولة : هذه هى الصورة العامة التى تقدمها الينا الرواية الاسلامية عن الحاكم ؛ وهى صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية ؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البطش والسفك ، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لا غاية ، وكان القتل في نظره خطة سياسية ؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات ، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية ، وإنما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل العادية لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور ؛ وكان متناقضاً فى كثير من تصرفاته ، ولكن تناقض الذهن الذى يحاول مختلف الوسائل والتجارب لتحقيق غايات معينة . ومع ذلك فانه لم يفت بعض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم لم تكن بتلك البساطة التى تصور بها ، فقد وصفه الذهبى بأنه كان « خبيثاً ماكراً ، ردىء الاعتقاد » [١] ، وهى صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم الذى يفكر دون تدبر ويعمل دون غاية

والى جانب هذه النظرية الساذجة التى تكتفى من البحث والتعليل بباعث الخفة والاضطراب العقلى ، توجد نظرية أخرى فى تعليل هذه النزعات والاهواء العنيفة التى كانت تضطرم بها هذه الشخصية العجيبة ؛ تلك هى النظرية الباتولوجية [٢] إذا صح هذا التعبير لأنها ترجع هذه النزعات الى أسباب باتولوجية أى مرضية وصحية . وقد قال بهذه النظرية مؤرخ وطبيب نصرانى معاصر هو يحيى الأنطاكى ؛ وهو يشرح لنا نظريته فيما يلى :

---

(١) الذهبى ، النسخة المخطوطة ج ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١ ، وراجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٧٨

(٢) الباتولوجيا هى علم الأمراض والأعراض الشاذة التى لا تعتبر عادة من الامراض

« وكان سبب بغيـه (أى الحاكم) فى جميع ما يقصده من هـذه الفعال العجيبة المتضادة التى تقوم في نفسه ويفعلها شيئاً بعدشيء ، صنف من سوء المزاج المرضى فى دماغه أحدث له ضربا من ضروب المالنخوليا وفساد الفكر منه منذ حداثته ، فان من المتعارف فى صناعة الطب أنه قد يكون فيمن يعتريه هـذا المرض أنه يقوم فى نفسه أوهام ويتخيل أموراً وعجائب ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره في جميع أفعاله ولا يثنيه عن ذلك ثان ولا يرده راد ، وان قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبى ، ومنهم من يتوهم أنه الاله بنفسه تعالى كثيراً ، ويكون يقوم من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً واختلاله ، ما ينكشف حاله عند ما يشاهده ويحادثه وتزول الشبهة فيه فى أول وهلة ، وربما كان تخليط أحدهم فى الكلام مستوراً ، وتكون هذه التخيلات والخواطر الرديئة تعرض له فى أمور مستورة عن العوام فيكون صورته عندهم صورة العقلاء وحسن ظنهم به ونظرهم اليه كنظرهم الى أفاضل الناس ، فاذا أطالوا اختبارهم بان لهم ما انطوى عنهم فى نقصهم

وهذه صورة حال الحاكم ، فان نقصه كان يتبين لمن تطول صحبته له ؛ وأما من هو بعيد عنه فان أفعاله كانت توضحه له ؛ وقد يستدل على حقيقة هذا المرض المستحوذ عليه أنه كان قد عرض له فى حداثته تشنج من سوء مزاج يابس في دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث في المالنخوليات واحتاج في مداواته منه مع ما كان يعالج به الى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به ؛ وان كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المقدم ذكره ، وأن أبا يعقوب إسحق ابن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه ، واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب ، وعاد الى الامتناع من شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع الى ما كان فيه » (١)

وهذا شرح فطن طريف بلاريب ؛ بيد أنه لا يكفى فى نظرنا لتعليل هذا المزيج القوى المدهش من أعمال وتصرفات كانت رغم عنفها وتناقضها ترجع فى معظم

(٣) تاريخ الانطاكى ص ٢١٨ و ٢١٩

الأحيان كما سنرى الى بواعث سياسية أو مذهبية أو اجتماعية ؛ وتردد بعض الروايات الأسلامية المتأخرة هذه النظرية فى تعليل نزعات الحاكم وأهوائه المغرقة ، فيقول لنا النويرى مثلا إن الحاكم أصيب في سنة ٣٩٣ ﻫ أعنى وهو فتى فى الثامنة عشرة بضرب من المالنخوليا ، فأخذ فى قتل رجال الدولة ؛ ويتحدث فى غير موطن عن غلبة هذه «المالنخوليا» على الحاكم[1] ويقول لنا المقريزى «ويقال انه (أى الحاكم) كان يعتريه جفاف فى دماغه ، فلذلك كثر تناقضه ؛ وما أحسن ما قال فيه بعضهم كانت أفعاله لا تعلل ، وأحلام وساوسه لاتؤول»[2]

على أننا لا نستطيع أن نقف عند هذا الشرح والتصوير . والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة ، وكان لغزاً عسير الفهم ؛ واذا كان قد أشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه ، فانه ما زال أيضاً فى بعض نواحيه لغزاً على عصرنا ، وإن كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحى ، وأن نعلل كثيراً من أعماله ومراسيمه . ويصفه العلامة الألمانى ميلر بأنه «من أعجب وأغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ» ويقول : «ان من يقرأ ماأورده المؤرخون المتأخرون من مختلف الأساطير والقصص يخرج بأنهم لم يفهموه ، وأنهم اعتبروه مجنوناً فقط ، وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة ، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير الذى هو أعجب من أنجبت أسرته ، كان أشدهم اثارة للأساطير من حوله ، وان حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته فلا نستطيع أن نظفر منها الا بلمحات»[3] .

والآن ماذا نستطيع أن نقول فى قوانين الحاكم وتصرفاته ؟ وكيف ننظر اليها ؟ هل كانت فى مجموعها فورات مجنون ونزعات مخبول كما تصورها معظم الروايات الاسلامية ؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والاغراق ؛ ولكن من التحامل والظلم أن نصفها بالسخف المطبق ، وأن ننعت صاحبها بالجنون . ولقد ظلم التاريخ الحاكم كما ظلم كثيراً من الطغاة المصلحين ؛ وقد كان الحاكم طاغية ، ولكن مصلحاً على طريقته ؛ وكان يرمى بما يصدر من القوانين

(١) نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢٦ ص ٥٢ و ٥٦

(٢) الخطط ٤ ص ٧٤

(٣) Muller, Der Islam I. p 628

والأحكام الى تحقيق غايات معينة ، دينية وسياسية واجتماعية ، ربما خفيت على الكافة ، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا ، ومن ثم كان الريب فى حكمتها والسخط عليها : وكانت القسوة فى تطبيقها

فأما معاملة الذميين : أعنى اليهود والنصارى ، وما صدر فى شأنها من الأوامر والأحكام المشددة ، فلم تكن بدعة فى ذاتها ، ولم تكن حدثاً جديداً فى الخلافة الاسلامية : ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة التى جعلت منها نوعاً من الاضطهاد المنظم . ولقد كانت الخلافة الاسلامية تأخذ كما رأينا بسياسة التسامح الدينى وتطلق لرعاياها الذميين الذين يؤدون الجزية حرية الاعتقاد والشعائر ؛ ولكن الذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائماً نوعاً من المعاملة الخاصة ؛ ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود التى تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين ، وكان منها كما قدمنا قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل ، وحمل السلاح ، واقتناء العبيد ؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ فى عصور الحماسة الدينية لوناً من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال. وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الدينى نحو اليهود والنصارى ، وأنهم فى ظلها ازدهروا وتبوأوا أرفع مناصب الثقة والنفوذ ، وأن موقف الحاكم نحوهم ، واشتداده في معاملتهم على هذا النحو ، كان انقلاباً فى السياسة الفاطمية . وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم ، بأنه نوع من الغلو الدينى له بواعثه السياسية ؛ فى هذه المرحلة التى اشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى ، كان الحاكم يبدى كثيراً من التعصب والغلو سواء من الناحية الدينية العامة أو الناحية المذهبية الخاصة ؛ ولكن هذه الشدة استحالت فى أواخر عصره الى نوع من اللين والرفق بالنصارى واليهود ؛ ذلك لأن هذا الذهن المضطرم يستحيل عندئذ الى ذهن فلسفى حر التفكير ، ينظر الى الأديان كلها نظرة واحدة ؛ وان كانت السياسة العليا تحتم عليه أن يؤيد دين الدولة ومذهبها الرسمى ؛ ومما يلاحظ فى هذا الصدد أن موقف الحاكم ازاء النصارى واليهود هو من المواقف القليلة التى ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة ، وأنه لم يجنح فيه من الشدة الى اللين الا فى أواخر عصره حينما ظهر الدعاة السريون يدعون الى دين جديد وعقائد جديدة

واذا كان فى هذا الاضطهاد المنظم لليهود والنصارى ، وهذه النزعات العنيفة المغرقة فى معاملة الأقليات الدينية ما يؤخذ على الحاكم بأمر الله ، فان فى روح العصور الوسطى ، وهى روح تعصب ورجعية ما يخفف هذه التبعة ويقرب فهم هذه السياسة ؛ بل ألسنا نشهد فى عصرنا ، وفى أرقى الأمم المتمدينة ألواناً شنيعة من اضطهاد الأقليات الدينية أو الجنسية ، وهو اضطهاد يمتد الى النفس والمال وجميع الحقوق العامة ؟ وهـذه النزعة لا تختلف فى جوهرها عن نزعات العصور الوسطى (١)

وقوانين الحاكم الاجتماعية ؟ هل كانت تشريعات جنونية خالية من كل باعث وحكمة ؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضى أن نفهم روح العصر وخواص المجتمع المصرى يومئذ ؛ كان الحاكم بأمرالله على رأس خلافة مذهبية يقوم سلطانها السياسى على صفة الأمامة الدينية ، وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها فى مصر بسياج قوى من الخلال القوية التى أحاطت ملكها في المغرب ؛ ولكنها ألفت فى مصر مجتمعاً متحضراً يميل إلى الترف والحياة الناعمة ؛ ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادىءذى بدء ، لأنها كانت تخطب وده وتسعى الى تأليفه ، ولهذا كانت تسايره ، وتغريه بذخها وبهائها ، وتطلق له أعنة البهجة والمرح ، وتغمره بالمواسم الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة ؛ فكانت تذكى بذلك مرحه وخفته واستهتاره بدلا من أن تذكى فيه الخلال القوية التى تنشدها . وكانت عوامل الانحلال تجثم فى قرارة هذا المجتمع الذى يخفى انحلاله تحت أثواب من الفخامة والبهجة ، وكانت الرذائل الاجتماعية على أشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله ، وظهر ذلك الانحلال الاجتماعى في أشد مظاهره حينما نظمت حياة الليل ، وشهد الأمير فى مواكبه الليلية مظاهر هذا الفساد الشامل . عندئذ عمد الحاكم الى وضع هذه الخطة التى يمكن أن توصف

(١) يقدم لنا الدعاة السريون فى رسائلهم تعليلا لسياسة الاضطهاد الدينى التى سنها الحاكم ، ففى الرسالة التى عنوانها : «خبر اليهود والنصارى» والتى نشير اليها فيما بعد ، أن جماعة من اليهود والنصارى لقوا الحاكم ذات يوم بالقرافة واستغاثوا به من سياسته وبينوا له أنها تنافى قواعد الاسلام ، وحدثت بينهم وبينه مناقشة أوضح لهم فيها الحاكم حكمة إصدار هذه القوانين ، وهى أنه قد مضت منذ صاحب الشريعة (أعنى محمدا) اربعمائةسنة ، وظهر الامام المنتظر فى شخصه ، وأضحى له عندئذ أن يدعوهم الى الدخول فى شريعته فان أبوا ، قاتلهم وعطل شرائعهم وكتبهم ، وهذا مافعله ازاءهم

بحق بأنها برنامج للاصلاح الاجتماعي، ولجأ الى تلك القوانين والاجراءات الصارمة كوسيلة لمكافحة هذا الفساد الاجتماعي الشامل ؛ وفيم تحريم الخمر ومطاردة المدمنين(١) وتحريم الغناء واللهو الخليع إلا أن يكون لتقويم أخلاق الشعب ، وحماية أمواله وصحته من الاسراف والعبث ، وحماية المجتمع من ضروب الفساد التى يغرق فيها ؟ إن الأمم العظيمة فى عصرنا تلجأ فى أحيان كثيرة الى إصدار مثل هذه القوانين لبث الاصلاح الاجتماعى ؛ وما عهد التحريم الأمريكى ببعيد ؛ فقد حرمت الخمر في أمريكا مدى أعوام، وكانت تجربة اجتماعية هائلة لا تزال ذكراها ماثلة في الأذهان؛ وما تزال بعض الدول تحرم بعض الملاهى التى تراها خطراً على الأخلاق العامة ؛ وما تزال بعض الحكومات تحد من حريات الشعب في التجوال بالليل في ظروف معينة حرصاً على الأخلاق والأمن العام

ومطاردة المرأة والحجر عليها ؟ لاريب أن الحاكم كان يذهب فى ذلك الى ذروة الغلو والاغراق؛ ولكن المرأة من أشد عوامل الفتنة والغواية ، ولا سيما فى عصور الفساد والانحلال ؛ وقد شهد الحاكم بنفسه أثناء طوافه الليلى كثيرا من ضروب التهتك والخلاعة التى كانت تغرق فيها نساء العصر؛ ونقلت اليه على يد رسله وعيونه - ومنهم نساء وعجائز كن ينفذن الى أعماق الأسر - أقوال ونوادر كثيرة عن خبثهن، وافتنانهن في أساليب الافساد والغواية ؛ وقد رأى الحاكم فى الحجر على المرأة والمباعدة بينها وبين الرجل في حياة المدينة ، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الاخلاق الفاضلة . أما الاغراق فى تطبيق التجربة ، فهو بلا ريب أثر من إغراق هذا الذهن الهائم فى كل مايعتقد ويبتكر ؛ واذا كنا نستطيع أن نعلل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة ، فمن الصعب علينا أن نعلل ذلك الاغراق فى تطبيقها الى حدود من القسوة الذريعة . بيد أنه ليس من الانصاف أن ننكر على الاجراء كل حكمة ، فمن المحقق أنه كان ذا أثر كبير في درء الفساد الشامل وتنقية حياة المدينة ؛ وإنا لنشهد فى عصرنا فى بعض الأمم العظيمة فكرة مماثلة فى الحد من حريات المرأة

---

(١) أشار « السجل المنهى فيه عن الخمر » ، وهو الذى أورده الدعاة السريون فى رسائلهم كما سنبين بعد الى حكمة هذا التحريم وهو : « نهى الكافة عن الالمام بالمسكر ، واستحسان المنكر من الاسرار (الاصرار) على المسكر الذى هو مجمع السيئات ، والقائد الى قبائح الأفعال والسوءات . . . حتى تطهر الممالك من سوء آثاره » وقد أرخ هذا السجل بسنة ٤٠٠ هـ ، وهو التاريخ الذى صدر فيه مرسوم التحريم

الاجتماعية وردها الى حظيرة الأسرة ، مع فرق فى العصر والظروف . فنى ايطاليا الفاشستية ، وألمانيا الهتلرية ، تفقد المرأة كثيرا من حرياتها ، ويحظر عليها التبذل والتهتك فى الأزياء ؛ ويحظر كثير من ضروب اللهو الخليع، وتمنع الحانات الليلية والملاهى العارية . ولا ريب أن الفكرة التى أملت على الحاكم خطته وتملى اليوم على هذه الدول المحدثة خطتها نحو المرأة ، ترجع فى جوهرها الى أصل واحد ، هو مكافحة عوامل الغواية والفساد التى يبثها تهتك المجتمع النسوى وإمعانه فى صنوف الاستهتار والخلاعة

وأما تحريم بعض أنواع الأطعمة والبقول ، فيرجع الى أسباب مذهبية أو صحية لها قيمتها فى ذلك العصر ؛ فقد حرم الجرجير مثلا لأنه ينسب الى السيدة عائشة ، وحرمت الملوخيا لأنها كانت من الأشياء المحبوبة لمعاوية ، وحرمت المتوكلية لأنها تنسب الى الخليفة المتوكل العباسى(١) ؛ وهذه بواعث مذهبية واضحة ؛ وحرم الفقاع لأنه مسكر ضار؛ وحرم الدلينس والترمس والسمك الذى لاقشر له لبواعث مماثلة. وأما تحريم ذبح الأبقار السليمة فهو إجراء ظاهر الحكمة وهو المحافظة على النسل والاكثار من الماشية (٢) . وأما قتل الكلاب فهو تحوط صحى لا يزال يتبع فى عصرنا فى جميع الأمم المتمدنة

ولسنا ندعى أننا نستطيع أن نعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن تنفذ الى بواعثها وحكمتها جميعاً ؛ فهناك كثير منها مما لايستطاع فهمه وتعليله ؛ ولكن الذى نود أن نقوله هو أن هذه القوانين والاجراءات ، كانت عكس ماتصوره الرواية الاسلامية بأنها نزعات طاغية مضطرب الذهن ، تكون فى مجموعها برنامجا إصلاحيا شاملا ، وترمى فى مجموعها الى تحقيق غايات لاريب فى حكمتها وسموها

يقول العلامة دوزى : «لم تكن قوانين الحاكم سخيفة كما يحب أن يصورها الرواة السنيون الذين اعتادوا أن يقدموا الينا من هذا الأمير شخصية مضحكة لا صورة حقة » ثم يقول : « ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذى سرى الى

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٤ ص ١٥٨

(٢) وقد شرحت حكمة هذا التحريم فى قانون من هذا النوع صدر فى عهد الظاهر ولد الحاكم (سنة ٤١٧هـ) اذ جاء فيه : « ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته ، خلق ضروب الانعام ، وعمل فيها منافع الأنام ، فوجب أن تحمى البقرة ، المخصوصة بعمارة الأرض ، المذللة لمصالح الخلق ، فان فى ذبحها غاية الفساد ، واضرار للعباد والبلاد » (راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢)

بجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة ، وأحياناً غريبة شاذة ، ثم يشرح رأيه بعد ذلك على ضوء هذه القوانين والأحكام المختلفة ، ويحدثنا بعطف عن تواضع الحاكم وتقشفه[1] ويقول ميللر بعد أن يلخص قوانين الحاكم الاجتماعية : «ان هذه التصرفات ليست كلها تنم عن الحماقة ، وإذا كنا لا نستطيع أن نعلل كل أعماله ، فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد ، ولا سيما ونحن نراها في نواحي أخرى سليمة معقولة ، وكل ما وصلنا من الروايات إنما هو وقائع مجردة ، مشوهة ومبالغ فيها بلا ريب ، وإنه ليكون من المدهش اليوم أن نستطيع أن نحل رموز هذه المعضلة الشاملة » ثم يقول : «وليس لدينا الا أن نعتقد أنه إما باطني متعصب ، توهم في نفسه الاغراق والألوهية ، وإما أمير ذكي بارع فى تاريخ أسرته ومذهبها ، اعتقد أنه يستطيع أن يسمو فوق البشر وأن يحتقرهم ويصنفهم كالشمع طوع إرادته وربما كان يجمع فى طبيعته المتناقضة بين شيء من هذا وشيء من ذاك . وربما لا يستطيع أن يظفر بالحقيقة هنا سوى خيال شاعر » [2]

والخلاصة أن الحاكم بأمر الله لم يكن تلك الشخصية الوضيعة الساذجة ، ولا تلك العقلية المخرفة التى تقدمها الينا الرواية ، ولم تكن أعماله وأحكامه كما صورت على كر العصور ، مزيجاً من النزعات والأهواء الجنونية . إنما كان الحاكم لغز عصره ، وكان ذهناً بعيد الغور ، وافر الابتكار ، وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل ، وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ فى التاريخ مكانها الحق

---

(١) Dozy : Essai sur l'islamisme p. 287 & 288

(٢) Muller ; ibid ; p. 630

الفصل السابع

الأحداث الخارجية

الثورة فى صور وفلسطين . مسير ابن الصمصامة الى الشام . نجدة البيزنطيين للثوار . قمع الثورة ومصرع زعمائها . إخماد الفتنة فى دمشق . الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين . غزو البيزنطيين للثغور . الهدنة بين مصر وقسطنطينية . حوادث طرابلس . الحرب بين الفاطميين وباديس الصنهاجى . هزيمة الفاطميين . عود الفتنة الى الشام . خروج بنى الجراح بالرملة . الدعوة لجعفر الحسنى . تفاقم الثورة . التفاهم بين الحاكم والثوار . الدعوة للحاكم فى الموصل . محضر القدح العباسى . كتاب الحاكم الى محمود الغزنوى . اختيار عبد الرحيم بن الياس لولاية العهد . حوادث حلب . انهيار سلطة بنى حمدان . الوزير لؤلؤ . غزو العرب لحلب . دخولها فى طاعة الحاكم . ولاية فاتك لها . ابو ركوه . أصله ونشأته . الريب فى نسبته . دعوته لبنى أمية . خروجه فى برقة . هزيمته للفاطميين واستيلاؤه على برقة . المؤامرة على غزو مصر . زحف أبى ركوه الى مصر . ارتداد الجند الفاطمى . المعركة الحاسمة . هزيمة ابى ركوه ومصرعه

كان عصر الحاكم بأمر الله مليئاً بالحوادث الخارجية كما كان مليئاً بالحوادث الداخلية ؛ وقد أفضنا في استعراض الأحداث الداخلية ، ولا سيما تلك التى تلقى ضياء على شخصية الحاكم وعقليته ووسائله فى الحكم والادارة ؛ والآن نستعرض حوادث العصر الخارجية ونبسط ما أشرنا اليه منها خلال حديثنا

ترك العزيز بالله لولده مملكة ضخمة مترامية الأطراف تشمل مصر وإفريقية والشأم ؛ وكانت المملكة الجديدة ما تزال بحاجة الى الاستقرار ؛ وكانت المعركة الهائلة التى شهرها القرامطة على الدولة الفاطمية قد تركت آثارها المخربة ، ولبث سلطان الفاطميين فى الشأم مدى حين عرضة للانتقاض ، وتعاقبت الثورات والأحداث الخطيرة ؛ ومن جهة أخرى فقد كانت الدولة البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) جارة مصر من الشمال تجوز مرحلة من القوة والنهوض فى عصر الأسرة البسيلية ، ولا سيما فى عهد الامبراطور باسيل الثانى معاصر العزيز وولده الحاكم

بأمر الله (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) ؛ وكان البيزنطيون (الروم) قد انتهزوا فرصة الاضطراب الذى أثارته غزوات القرامطة فى الشام فاستولوا على أنطاكية وبعض الثغور والمواقع الأخرى؛ وشجعوا حركات الانتقاض على حكومة القاهرة وتحالفوا مع الخوارج، واشتبكوا مع جيوش الدولة الفاطمية فى عدة معارك خطيرة فى البر والبحر

وقد رأينا كيف تفاقمت حوادث الشأم فى أواخر عهد العزيز ، وكيف كان يعتزم العزيز أن يتابع الحرب فى الشأم بنفسه لولا أن عاجله الموت فى بلبيس وهو على رأس جيشه ؛ وهكذا بدأ الحاكم عهده فى فترة اضطراب وفتنة ؛ ولكن كان من حسن الطالع أن كان الوصى برجوان ، وهو يومئذ مدبر الدولة وزعيمها ، رجلا قويا وافر الذكاء والعزم ، فنشط لقمع الفتنة وتوطيد الأمور ؛ وبدأ برجوان عهده بمقارعة المغاربة ولا سيما الكتاميين والعمل على سحق سلطانهم وقد كاد يغشى كل شىء فى الدولة ؛ وقد رأينا كيف انتهى الصراع بينه وبين ابن عمار الى تمزيق كتامة وثل سلطانها ونفوذها ، وتدعيم نفوذ الصقالبة فى القصر وفى الادارة (٣٨٧ ﻫ) . وفى سنة ٣٨٨ ﻫ اضطرمت الثورة فى صور بزعامة بحار مغامر يدعى العلاقة فقبض على زمام الحكم فيها وضرب السكة باسمه ونقش عليها هذه العبارة : « عزاً بعد فاقة للأمير علاقة » ؛ وثار بالرملة فى نفس الوقت زعيمها المفرج بن دغفل الجراح ؛ فأرسل برجوان الى فلسطين جيشاً ضخما بقيادة جيش بن الصمصامة ؛ وكان جيش جنديا جريئا من زعماء كتامة الذين التفوا حول برجوان، وكانوا يومئذ يستأثرون بمعظم مناصب الولاية والقيادة ؛ فسار جيش الى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها، وطارد المفرج بن دغفل وقواته حتى أذعن الثائر لطلب الأمان والصلح ، فعفا عنه وأمنه ؛ ثم عطف بقواته على صور ، وكان العلاقة قد استنجد بالامبراطور باسيل الثانى ووعده بتسليم صور ، فبعث اليه المدد فى البحر ؛ فسارت الى مياه صور وحدة من الاسطول المصرى بقيادة الحسين بن ناصر الحمدانى وفايق الخادم ؛ وحصرت صور من البر والبحر ونشبت بين الفريقين معارك شديدة فى مياه صور وفى أرضها ؛ فهزم الروم وحلفاؤهم الخوارج ، وأسرت سفينة بيزنطية كبيرة وقتل جميع من فيها ؛ وسقطت صور فى أيدى القوات الفاطمية ونهبت وسبى جمع من أهلها ؛ واسر زعيم الثورة العلاقة ، وأرسل الى القاهرة فاعدم

وصلب ومثل بجثته (سنة ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م) (١)

وسار جيش بن الصمصامة بعد ذلك الى دمشق ، وكان عليها سليمان بن جعفر الكتامى من قبل ابن عمار ، ولاه عليها منذ انتصاره على بنجوتكين واليها السابق فى الحرب الأهلية التى أتينا على ذكرها ، فنزعه جيش من الولاية وألجأه الى الفرار، وقمع عوامل الفتنة ووطد سلطة الدولة ؛ وواصل سيره الى « افامية » وهنالك التقى بالروم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها المسلمون أولا ، ولكن سرية من الفرسان بقيادة بشارة الاخشيدى ثبتت فى وجه الروم ، ونفذ الى المعسكر البيزنطى جندى مسلم ، ووثب بقائد البيزنطيين داميانوس ديلاسينوس المعروف « بالدوقس » على غرة منه فقتله ؛ وعلى أثر ذلك وقع الاضطراب فى صفوف الروم ، وهاجمهم المسلمون بشدة فمزقوهم شر ممزق ، وقتلوا منهم عدة آلاف وطاردوهم حتى أبواب أنطاكية ، وأسر أبناء الدوقس وجماعة من أكابر القادة البيزنطيين وارسلوا الى مصر حتى افتدتهم حكومتهم (سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٩ م) وعاد جيش بعد ذلك الى دمشق وعسكر فى ظاهرها مدى حين ؛ وتتبع الخوارج والمخالفين فقتلهم ، وأذل الأشراف والزعماء ، وبسط حكم الارهاب على المدينة ؛ بيد انه لم يلبث أن اضطر الى مواجهة خطر البيزنطيين مرة أخرى . ذلك أن باسيل الثانى لما رأى ما حل بجيشه من الفشل ، سار بنفسه الى الشأم ثانية ، وعاث فى بسائط الساحل مابين أنطاكية وبيروت ، فاستصرخ جيش حكومة القاهرة . فأرسلت اليه المدد من كل صوب ؛ ونزل باسيل على طرابلس بينما كان جيش يتهيأ للقائه ، ونشبت بينه وبين حاميتها معركة شديدة فى البر والبحر ، وقتل من جنده عدة كبيرة (المحرم سنة ٣٩٠ هـ) (٢) ، ووصلته فى نفس الوقت أنباء مزعجة عن تحرك البلغار فارتد بجيشه الى الشمال ؛ وأما جيش فانه لم يلبث أن مرض وتوفي (ربيع الأول سنة ٣٩٠) ، فخلفه فى ولاية الشأم فحل بن تميم ، وسادت السكينة فى الشأم حينا

وكان برجوان قد رأى أن يهادن الروم لكى يتفرغ لمعالجة الأحداث والقلاقل الداخلية ، فأرسل الى الامبراطور باسيل يقترح عقد الصلح والمهادنة . فاستجاب الامبراطور

(١) تاريخ الانطاكى ج ١ ص ١٨١ و ١٨٢ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٤١ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ٥٧

(٢) الانطاكى ص ١٨٣ و ١٨٤ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ٥٧ ؛ والمقريزى ج ٤ ص ٦٨ و ٦٩

لدعوته وأنفذ سفارة الى بلاط القاهرة؛ وبينما كانت مفاوضات الصلح تجرى إذ غزا الامبراطور الشأم للمرة الثانية، وكاد مشروع الصلح ينهار؛ ولكن الأمبراطور ارتد مسرعا كما رأينا وآثر استتباب السلم فى حدوده الجنوبية لكى يتفرغ لمواجهة الخطر البلغارى، فاستؤنفت مفاوضات الصلح؛ واحتفى بلاط القاهرة بالسفير البيزنطى احتفاء عظيما، وزين الديوان الخلافى لاستقباله زينة تنوه الرواية بفخامتها وروعتها؛ وانتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك للسير مع السفير البيزنطى وتقرير شروط الهدنة مع القيصر، وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين؛ فسار أريسطيس الى قسطنطينية، وقام بالمهمة؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين، وأقام أريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى. ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح أنها وقعت فى أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ (١٠٠٠ م) قبيل مقتل برجوان بأشهر قلائل (١)

وسير برجوان أيضا جيشا الى طرابلس الغرب بقيادة يانس الصقلى لكى يعيد اليها سلطة الخلافة الفاطمية؛ وكانت عندئذ تحت حكم باديس بن المنصور الصنهاجى؛ وكان المعز لدين الله حينما سار من المغرب الى مصر فى سنة ٣٦١ ه قد استخلف على المغرب يوسف بن زيرى الصنهاجى المسمى بلكين ليحكم باسم الخلافة الفاطمية وتحت سيادتها، وخوله فى الحكم سلطة مطلقة؛ فأدى بلكين مهمته بحزم، وقمع دابر الفتنة، ووطد سلطان الحكم؛ وسأل العزيز بالله أن يضيف اليه ولاية طرابلس فأجابه الى ملتمسه واستخلف بلكين عليها حاكما من قبله. ولما توفى بلكين خلفه ولده المنصور وأقره العزيز على ولايته؛ ثم خلف المنصور ولده باديس فى سنة ٣٨٦ ه وبعث اليه الحاكم بأمر الله بالعهد والخلع المعتادة، وجدد البيعة للحاكم. ولكن الظاهر أن آل زيرى استطاعوا خلال تلك الفترة أن يستأثروا بالسلطة وأن يجعلوا من سلطان الخلافة الفاطمية اسماً لا وجود له؛ ولما كانت طرابلس تجاور مصر من الغرب، وكان يخشى عليها من أطماع أولئك البرابرة الأشداء فقد رأى برجوان أن يسترد طرابلس وأن يحصنها لتكون درعا يقى مصر شر العدوان والغزو؛ فتفاهم

---

(١) الانطاكى ص ١٨٤، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢

مع حاكمها المغربي ، وبعث اليها يانساً الصقلي كما قدمنا ؛ وعينه لحكمها : فاستراب باديس من تلك الحركة وبعث الجند لمقاتلة يانس ، فهزم يانس وقتل ، وامتنع جند مصر بطرابلس (سنة ٣٩٠ هـ) فسير الحاكم الى برقة جيشا ثانياً بقيادة يحي بن على الأندلسى ، فخاض مع البربر المحليين عدة معارك ، ولكنه اضطر أخيراً الى الانسحاب وترك طرابلس الى مصيرها ؛ وبعد خطوب وأحداث لامحل لذكرها استطاع باديس أن يستعيد طرابلس وأن يبسط حكمه عليها(١)

وكان برجوان مدبر الدولة قد قتل منذ سنة ٣٩٠ هـ حسبما قدمنا وقبض الحاكم على زمام السلطة ؛ واستمر الهدوء الذى استطاع برجوان أن يحققه بعزمه وحزمه مدى حين ؛ وتوفى فحل بنى تميم والى الشام لأشهر من ولايته فعين مكانه على بن فلاح ، ثم تموصلت بن بكار (سنة ٣٩٣ هـ) فتوفى بعد قليل وخلفه مفلح اللحيانى؛ وكان الصلح الذى عقدته مصر مع الدولة البيزنطية قد قضى على آمال الخوارج فركنوا حيناً الى السكينة . بيد أن الفتنة عادت فاضطرمت فى الشام ثانية فى سنة ٤٠٠ هـ ؛ ففى تلك السنة فتك الحاكم بآل المغربى وهم أسرة قوية من الأعيان والوزراء كان لها شأن في الدولة ؛ ففر عميدهم الوزير أبو القاسم بن المغربى الى الشام ؛ وكان كبيرهم أبو الحسن بن على المغربى قد خدم العزيز وزيراً فى الشأم واشترك فى محاربة بنى حمدان أمراء حلب ؛ ولما تولى الحاكم بأمر الله الملك ، كان أبو الحسن وولده أبو القاسم من جلسائه وخاصته ، ولكن الحاكم لم يلبث فى بعض فوراته أن نقم على آل المغربى ، ولعله استشعر خوفا من دسائسهم ؛ فقبض على أبى الحسن وولده محمد وقتلهما ، واستطاع ولده أبو القاسم أن ينجو بنفسه ، ففر الى الشأم ، واستغاث بحسان بن مفرج بن الجراح زعيم عرب فلسطين ، وأغراه بالخروج والثورة ؛ وكان آل الجراح من خصوم الدولة الفاطمية ، وقد خرجوا عليها فى بدء عهد الحاكم كما رأينا ؛ فثار حسان وزحف على الرملة واستولى عليها وقتل حاكمها ، وعاث جنده فيها ؛ واتفق الخوارج على استدعاء الحسن بن جعفر الحسنى أمير الحرمين ونادوا به خليفة علوياً مكان الحاكم ، وتسمى بأمير المؤمنين الراشد لدين الله ، ونزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة وضربت نقوداً باسمه ؛

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٤ و ١٥٥ ؛ وابن الاثير ج ٩ ص ٤٤ و ٥٣ و ٦١

وحرض ابن المغربى سائر القبائل فى الحجاز على خلع الطاعة وسار في جمع كبير منهم الى الرملة ؛ وبعث الحاكم الجند الى فلسطين بقيادة يارختكين (أو يارتكين) العزيزى فهزم وأسر ثم قتل ؛ واستفحل أمر بنى الجراح ، وبسطوا نفوذهم على جنوب الشأم كله ، وحاصروا حصون السواحل ؛ فرأى الحاكم أن يأخذهم باللين والمصانعة وبعث إليهم الأموال والتحف ، فاستجابوا الى الصلح وعادوا الى الطاعة ، وعاد الحسن بن جعفر الى مكة خوفا من سوء العاقبة واعتذر الى الحاكم فقبل اعتذاره ؛ واستمال الحاكم أيضاً آل المغربى وأصدر أماناً للوزير أبى القاسم ، ولكنه آثر المضى الى بغداد وعادت السكينة بذلك الى الشأم (١)

وفى العام التالى أعلن صاحب الموصل ، ابن المقلد العقيلى الملقب بمعتمد الدولة طاعة الحاكم ودعا له فى الخطبة في جميع أعماله من الموصل الى الكوفة وقطع دعوة بنى العباس ؛ فغضب لذلك القادر بالله الخليفة العباسى ، وهاله انتشار الدعوة الفاطمية على هذا النحو ، وبادر بأرسال الجند لمحاربة معتمد الدولة ، فخشى معتمد الدولة عاقبة الحرب وقطع دعوة الحاكم وعاد الى طاعة بنى العباس

ورأت الخلافة العباسية أن تلجأ فى محاربة الخلافة الفاطمية الى سلاح الدعوة والتشهير بعد أن عجزت عن مناوأتها بالسيف ، فأصدر القادر بالله فى ربيع الآخر سنة ٤٠٢ ، محضراً بالقدح في نسب الخلفاء الفاطميين وفى عقائدهم ، وقعه جمهرة من العلماء والأشراف وقرئت نسخه فى بغداد ؛ وكان من الموقعين عليه الشريف الرضى وأخوه المرتضى وعدة من أكابر العلويين ؛ ومن أكابر الفقهاء أبو القاسم الجزرى ، وأبو حامد الاسفراينى ، وأبو الحسين القدورى ، وغيرهم ؛ وقد أشرنا الى موضوع هذا المحضر فيما تقدم ؛ وكان لصدوره وقع سيء فى بلاط القاهرة ، بيد أنه لم يكن له صدى يذكر

ومن الغريب أن الحاكم بأمر الله أرسل فى العام التالى (٤٠٣ هـ) كتاباً الى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى ملك أفغانستان يدعوه الى طاعته والأقرار بأمامته، فاستقبل الدعوة بالسخط والسخرية ، ومزق الكتاب وأرسله الى القادر ليطلع عليه ؛ ولعل الحاكم كان يرى فى ذلك وسيلة لمغالبة دعوة التشهير العباسية وتحديها (٢)

(١) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٦ ، والانطاكى ص ٢٠١ ؛ والمقريزى ج ٣ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ و ج ٤ ص ٧٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ٥٧ وبه تحريف ظاهر للوقائع

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ ، والمكين ابن العميد ص ٢٥٦

وفى سنة أربع وأربعمائة اختار الحاكم لولاية عهده ابن عمه أبا القاسم عبدالرحيم بن الياس بن المهدى ، وهو اختيار لم تبد حكمته أو تعرف بواعثه ، إذ كان للحاكم يومئذ ولد في التاسعة من عمره ، هو أبو الحسن على الذى تولى الخلافة فيما بعد باسم الظاهر ؛ وكان يعيش مع أمه فى قصر عمته ست الملك خشية عليه من سطوة أبيه(١) . ولكن الحاكم اختار عبد الرحيم دون ولده لولاية عهده ؛ وأفرد له مكانا فى القصر ، ودعى له على المنابر ، وضربت باسمه السكة ؛ وكان فى أحيان كثيرة ينفرد بالنظر فى شؤون الدولة ، والحاكم مشغول بطوافه ؛ ثم عين عبد الرحيم فى سنة ٤٠٩ هـ لولاية دمشق ؛ بيد أن اختيار الحاكم لم يصادف قبولا فيما بعد ؛ ولما توفى الحاكم اختير ولده الظاهر للخلافة وامتنع عبد الرحيم حينا بدمشق ؛ ولكنه استقدم الى مصر بالحيلة ، ثم اعتقل وتوفى منتحراً أو قتيلا (سنة ٤١٤ هـ) وتولت ست الملك أخت الحاكم تدبير هذه الشؤون كلها ببراعة وحزم نادرين(٢)

— ٢ —

وكان سقوط حلب فى يد الخلافة الفاطمية وزوال الدولة الحمدانية منها من أعظم الحوادث الخارجية فى عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكان بنو حمدان قد استعانوا كما رأينا بمحالفة البيزنطيين على استبقاء دولتهم وسلطانهم ، واستمروا سادة فى حلب يؤدون الجزية لامبراطور قسطنطينية وينضوون تحت لوائه ؛ ولم تنجح حملات الفاطميين أيام العزيز فى فتح حلب ؛ وقد عاون الصلح الذى عقده برجوان مع الامبراطور باسيل الثانى على استتباب السلم فى شمال الشام ؛ فأمن بنو حمدان غزو الفاطميين مدى حين

وكان أمير حلب فى أوائل عهد الحاكم ، أبو الفضائل بن حمدان الملقب بسعد الدولة ، فاستمر فى حكمها بمعاونة وزيره القوى أبى نصر لؤلؤ ؛ ولما توفى سعد الدولة وثب لؤلؤ بولديه أبى الحسن وأبى المعالى فانتزع الولاية منهما لنفسه ، وحكم باسمهما مدى حين ثم أخرجهما من حلب فسارا الى مصر والتجآ الى الحاكم ؛ فاستقل لؤلؤ بالحكم ولكنه رأى أن يتقى خصومة الفاطميين فأعلن طاعة الحاكم

---

(١) تاريخ الانطاكى ص ٢٣٥

(٢) المقريزى ج ٤ ص ٧١ و ٧٤ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٣ و ١٩٤ ، والانطاكى ص ٢٠٩

ودعا له حينا ، بيد أنه عاد فنقض الدعوة وعاد الى موقف الخصومة والمقاومة(١)

وكانت المعارك المحلية تضطرم فى تلك الأنحاء بين الأمراء المحليين ؛ وكان أمير الموصل قد استولى على الرحبة من أعمال الشأم ، فسار اليه لؤلؤ الشيرازى والى الشأم واستردها منه ؛ ولكنه ما كاد يتركها حتى تجددت المعارك المحلية ، وأسفرت في النهاية عن سقوطها فى يد زعيم محلى يدعى صالح بن مرداس الكلابى ؛ ولما اشتد أمره وقوى جمعه أخذ يتطلع الى انتزاع حلب من يد صاحبها لؤلؤ ويرهقه بمطالبه ؛ وفى أوائل سنة ٤٠٢ هـ (١٠١٢م) سار صالح بن مرداس فى قواته الى حلب وحاول أن يدخلها فردته قوات لؤلؤ واسرته ؛ ولكنه فر من أسره وعاد فجمع قواته وحاصر حلب زهاء ثلاثين يوما حتى ضاق أهلها ذرعاً ؛ وخرج لؤلؤ لقتاله ، فهزم وأسر ، ولم يطلقه صالح إلا لقاء فدية كبيرة ؛ ثم ارتد صالح عن حلب واستمر بها لؤلؤ ؛ ولكن خلافا نشب بين لؤلؤ وغلامه فتح قائد القلعة انتهى بأن كاتب فتح الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته ودعا له وأعلن الثورة على سيده ؛ وعاونه صالح على استخلاص المدينة ؛ ولما لم يجد لؤلؤ سبيلا الى استبقاء سلطانه غادر حلب الى انطاكية ، ونزل بها على حلفائه الروم ؛ وتسلم نواب الحاكم حلب ، واختار الحاكم لولايتها أميراً من بنى حمدان يدعى عزيز الدولة فاتك ولقبه أمير الأمراء ، فدخلها سنة ٤٠٧ هـ واستمر على حكمها فى طاعة الحاكم وتحت لوائه حتى نهاية حكمه (٢) . بيد أنها مالبثت أن عادت بعد وفاته الى يد المتغلبين عصراً آخر ،

— ٣ —

وكان أعظم حوادث العصر الخارجية بلاريب قيام «أبى ركوة» وغزوه لمصر، فقد كاد هذا الداعية القوى أن يزعزع اسس الدولة الفاطمية وأن يقضى على ملك الحاكم وأسرته

فمن هو أبو ركوة هذا ؟ تقول الرواية إنه سليل بنى أمية الأندلسيين ، وإنه ولد هشام بن عبد الملك بن مروان واسمه الوليد ، وإنما لقب « بأبى ركوة » لأنه كان يحمل دائما ركوة ماء لوضوئه على طريقة الصوفية ؛ وتقول الرواية فى سبب مقدمه الى المشرق ، أنه حينما حجر المنصور بن أبى عامر المتغلب على حكومة قرطبة على

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ ، والمكين ابن العميد ص ٢٥٦
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٢ و ٧٩ ، والنجوم الزاهرة ٤ ص ٢٣٥

الخليفة هشام المؤيد بالله الأموى ، وتتبع زعماء بنى أمية وفروعهم للتخلص منهم ، فر الوليد (أبو ركوة) فيمن فر من أعضاء أسرته خيفة القتل ؛ وكان عند مغادرته لقرطبة شابا فى نحو العشرين من عمره ؛ فاخترق المغرب وافريقية وأقام بالقيروان حينا يقرىء الصبيان ؛ ثم سار الى مصر فدرس بها الحديث ؛ وبعد أن تجول حينا فى الحجاز واليمن والشام عاد الى مصر، ثم نزح الى برقة واستقر بين بطون بنى قرة اقوى قبائلها ، وهناك افتتح له مكتبا يعلم فيه الصبيان ؛ وكان يتشح بثوب من الورع المؤثر ، ويجتذب اليه الناس بنسكه ، ووعظه ، وذلاقته ، ونبل خلاله

ويبدى ابن خلدون ريبه فى نسبة ابى ركوة وفى دعواه أنه سليل بنى أمية ؛ ونحن معه فى هذا الريب ؛ والظاهر أن قصة أبى ركوة هى قصة كل الدعاة الطامحين الى ملك أو إمامة ؛ فهم ينتمون الى أصل ملكى أو زعامة دينية ؛ وقد سلك أبو ركوة طريق الفريق الأول فنسب نفسه الى بنى أمية بالأندلس؛ ولما قطع مرحلة التجوال والاستطلاع والدرس ، ورأى الفرصة سانحة للدعوة والعمل ، كشف عن شخصه وأظهر نسبته ، ودعا الى عمه هشام المؤيد الأموى[1] وزعم أنه يملك مصر ، ويقيم الأمامة على أسس من العدل والتقوى ؛ وكانت قفار المغرب وقبائله الساذجة دائما مهدا خصبا لبث الدعوات الدينية ، فاستجاب اليه بنو قرة والتف حوله البدو فى أنحاء برقة ؛ وكان حكم الارهاب الذى بسطه الحاكم على البلاد قد وصل يومئذ الى ذروته وأسرف الحاكم فى قتل الكبراء والزعماء وتمزيق الأسر والعصبيات القوية ؛ وكان بنو قرة ممن أصابتهم يد البطش والمطاردة ، وقتل بعض أعيانهم أو سجنوا ، فكانوا يضطرمون نحو حكومة القاهرة سخطاً ، ويلتمسون الفرصة للخروج والانتقام ؛ فلما دعاهم أبو ركوة استجابوا إليه، وهرعت إليه بطون برقة من سائر النواحى، واتفق الداعى وأولياؤه على الجهاد في سبيل الله وأن يكون له ثلث الغنائم ، ولبنى قرة وحلفائهم الثلثان ؛ وشعر والى برقة ينال الطويل بخطورة هذه الحركة ، فهم بقمعها ولكن الحاكم أمره بالكف عنهم وإغفال شأنهم ؛ ولما شعر أبو ركوة بقوته وازدياد عدده ، زحف بجموعه على برقة فخرج الجند للقائه ، واقتتل الفريقان فى رمادة فهزم جند الحاكم هزيمة شديدة

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٥ ؛ ويذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ٦٨) أنه دعا للقائم ، ويتابعه ابن خلدون فى ذلك ، وهذا خطأ ظاهر لأن القائم العباسى لم يتول الخلافة إلا سنة ٢٢؛ ه

واستولى الثائر على خيلهم وسلاحهم ، ودخل برقة ظافراً وبسط حكمه عليها ، وذلك في سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م)

واستقر أبو ركوة في دار الامارة وأظهر الرفق والعدل ، وقطع الدعوة الفاطمية من الخطبة ولعن الحاكم وآباءه في خطبته وشهر بنسبهم الزائف وتلقب بالثائر بأمر الله ، وكان فصيحاً مؤثراً ؛ وضرب السكه باسمه ؛ وهرعت إليه الوفود لتأييده واشتد بأسه ؛ وذعر الحاكم لتطور الحوادث على هذا النحو ، وبادر بارسال المدد الى والى برقة ، وسار ينال مرة أخرى لمحاربة الثائر واسترداد برقة منه ؛ فخرج أبو ركوة للقائه ، والتقى الفريقان في واد مقفر على مقربة من برقة ، وكان الثوار قد طمسوا آباره ، وأجهد العطش جند مصر ، وتسلل عدد من الضباط والجند المغاربة الناقمين على الحاكم الى معسكر الثائر ، فازداد بهم قوة على قوته ؛ ودارت الدائرة على جند مصر مرة أخرى ، فمزقوا شر ممزق ، واسر قائدهم ينال وقتل ؛ وعاد الثائر الى برقة وقد امتلأت يده من الغنائم ، واستفحل أمره وزادت هيبته وسلطانه

وعندئذ أخذ أبو ركوة يتطلع الى امتلاك مصر ، وشجعه على هذا الأمل بعض أكابر الزعماء الناقمين مثل الحسين بن جوهر قائد القواد وزعيم المغاربة ؛ وكان رغم سمو مركزه يخشى غدر الحاكم ونقمته ، وكان زعماء المغاربة قاطبة قد نزعوا ثقتهم منه وأخذوا يتربصون به الفرص ؛ فبعث أبو ركوة سراياه الى الصعيد اولا ، فعاثت في بعض أعماله ، ولم تلق كبير مقاومة ؛ ولما رأى طريق مصر مفتوحا أمامه سار بجموعه الجرارة نحو الصعيد ؛ واتفق فيما بينه وبين حلفائه أن يقتسموا تراث الدولة الفاطمية ، فتكون مصر من نصيب الثائر ، ويختص العرب ببلاد الشأم

وكانت في الواقع مؤامرة خطيرة تهدد مصير مصر ومصير الدولة الفاطمية ؛ ولم يكن زحف أبي ركوة على مصر أقل خطرا من زحف القرامطة ؛ ولكن من حسن الطالع أن كانت القوى الغازية في الحالتين ، ينقصها النظام والوحدة والتناسق في الرأى والعمل ؛ وكان جيش أبي ركوة كجيش القرامطة مزيجا من الأنصار المتعصبين ، والبدو المغامرين ، والمرتزقة الذين لا تجمع بينهم سوى رابطة المصلحة المؤقتة ؛ وشعر الحاكم من جهة أخرى بفداحة الخطر الذى يهدد ملكه ، فضاعف أهبته واستقدم الجند من الشأم ، وسير للقاء الغزاة جيشا ضخما بقيادة الفضل بن

عبد الله (١) في ربيع الأول سنة ٣٩٦ هـ، فالتقى بالغزاة في كوم شريك على مقربة من الاسكندرية، ودارت بين الفريقين معارك شديدة قتل فيها كثير من الجانبين؛ ورأى الفضل من كثرة جمع الغزاة ماهاله، فلجأ الى الخديعة وتفاهم مع بعض زعماء بني قرة من أنصار ابى ركوة ليكونوا له عينا عليه؛ واستمرت المعارك بين الفريقين مدى حين، ورجحت كفة الهاجمين، وارتد الفضل بجنده صوب القاهرة؛ فذعر الناس وسرى الخوف؛ وبلغ أبو ركوة صحراء الهرم، وهزم الجيش الذى أرسله الحاكم لرده بقيادة على بن فلاح؛ ثم ارتد صوب صحراء الفيوم، فتبعه الفضل بقواته بعد أن نظمها وعززها بالمدد؛ واستؤنف القتال بين الفريقين بمنتهى الشدة؛ وكانت المعركة الفاصلة في اليوم الثالث من ذى الحجة سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٦م) فهزم أبو ركوة، ومزقت جموعه، وبعث الفضل بآلاف من رؤوسهم الى القاهرة؛ وارتد الثائر جنوبا والفضل يطارده حتى حدود النوبة، وهنالك قبض عليه، وحمل الى القاهرة؛ فسر الحاكم بذلك أيما سرور، وخلع على الفضل وغمره بعطفه، وذاعت أنباء النصر في طول البلاد وعرضها، فاطمأنت النفوس، واستقرت الأحوال

ولما قبض على أبى ركوة أبدى جزعاً كبيراً والتمس الصفح من الحاكم، وبعث اليه برقعة فيها هذه الأبيات:

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن … مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة … سوى فزع الموت الذى أنا شارب
وقد قادنى جرمى اليك برمتى … كما هز ميت في رحا الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلى … فيارب ظن ربه فيك كاذب
وما هو الا الانتقام وينتهى … وأخذك منه واجب لك واجب

بيد أن الحاكم لم تأخذه بالثائر رأفة، وأمر بمعاقبته والتنكيل به، فطيف به في شوارع القاهرة في هيئة زرية ومن ورائه قرد مدرب يصفعه؛ ولما مر الموكب بمنظرة الذهب حيث كان الحاكم يرقبه، استغاث أبو ركوة بالحاكم مرة أخرى فلم يصغ الى تضرعه؛ ولم يصل الى ظاهر القاهرة حيث تقرر اعدامه حتى كان جثة هامدة، فقطع رأسه وحمل الى الحاكم، وصلب جسده في الميدان الكبير (٢)

(١) ويسميه المقريزى فضل بن صالح

(٢) راجع في تفاصيل هذه الحوادث: أخبار الدول المنقطعة (المخطوط)، ونهاية الأرب ج ٢٦.

وهكذا انهارت تلك الثورة التى كادت تجتاح فى طريقها كل شىء ، والتى ارتجفت لها أسس الدولة الفاطمية مدى حين ؛ وقد كانت بلا ريب أعظم حوادث عصر الحاكم بأمر الله وأعظم أزماته ؛ وقد أبدى الحاكم فيها ثباتاً وحزماً ينمان عن قوة نفسه ؛ وكان للحادث أثره فى سياسة الحاكم الداخلية ، فقد جنح مدى حين الى الرفق والمسالمة بعد أن شهد آثار العسف والارهاب فى صرف النفوس عنه وحقدها عليه ؛ بيد أنه ما كاد يجوز الأزمة ويخرج بالظفر ، حتى عاد الى سابق عسفه وبطشه ؛ وكان من ضحاياه منقذ دولته الفضل بن عبد الله ، فقد انقلب عليه بعد أن حباه حيناً بعطفه ، وأمر به فقتل شر قتلة ؛ وقد ذكرنا من قبل ما تقدمه الرواية الكنسية فى مقتل الفضل ، من أنه دخل يوماً على الحاكم بالقصر فرأى بين يديه صبياً مليحاً وقد ذبحه واستخرج أمعاءه ، وكيف ان الفضل ارتد مذعوراً الى منزله ، فبعث اليه الحاكم بمن قتله ؛ بيد أننا نرجح ان القتل هنا يرجع الى باعث سياسى ، فقد خشى الحاكم فيما يظهر أن يسبغ الظفر على قائده هيبة يأبى أن تكون لأحد من الزعماء أو القادة

* ص٥٤ و ٥٥ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٦٨ - ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص٥٨ ؛ والمقريزى (الخطط) ج ٤ ص ٧٠ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٠٢ و ٢١٥ - ٢١٧

الفصل الثامن

رهــــط الدعاة

التيارات الخفية . ذروة الحوادث . الحاكم والحياة الروحية . تطور الدعوة المذهبية : طواف الهائم . المرأة التمثال . غضب الحاكم . الدعوة الجريئة . حمزة بن على . أصله ونشأته . دعوته بألوهية الحاكم . رهط الدعاة الملاحدة . ظهور الأخرم الفرغانى ومقتله . محمد بن اسماعيل الدرزى . ترديده لدعوة الألوهية . الخصومة بين فريقى الدعاة . الدعاة يجاهرون بدعوتهم فى مسجد مصر . الفتنة الدينية . مطاردة الدعاة الملاحدة . فرار الدرزى ومصيره . مصير حمزة بن على . موقف الحاكم من الدعوة الالحادية . غضبه على أهل مصر . خطة الانتقام . مهاجمة مصر وإحراقها . خبث الحاكم ورياؤه . المناظر المروعة . ختام المأساة

الى ذلك الحين سلخ الحاكم زهاء خمسة عشر عاماً في الحكم ؛ وكانت فترة يطبعها الاضطراب والعنف والمفاجأة بما تخللها من غريب الأحكام والتطورات التى أتينا على ذكرها . ولكن الحوادث تدخل من ذلك الحين فى طور آخر ، ويميل العهد الى نوع من الهدوء ، ويتجه الحاكم وجهة أخرى . كان ذلك الذهن المضطرم الهائم معاً ، لا يسكن الى ركود الحياة العادية ؛ وكان دائماً يؤثر التوغل فى عوالم الحياة الروحية ؛ وكانت أعوام العصر الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية التى تحجب عنا أغوارها ريب وظلمات كثيفة ؛ وكانت مصر فى هذه الأعوام مهداً خصبا لطائفة من الدعاة السريين والدعوات المذهبية والالحادية المغرقة ؛ وكان الحاكم ، كما سنرى من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها ، حتى استحالت فى أواخر عهده الى دعوة جريئة الى « ألوهيته » ونعت الحاكم عندئذ « بقائم الزمان وناطق النطقاء » . وعندئذ تمخضت هذه التيارات الخفيـة ، وهذا الهدوء المحموم عن عاصفة دموية مروعة اختتم بها ذلك العهد الحافل بصنوف المفاجآت والأحداث العجيبة . ثم كانت ذروة الخفاء ، وكان ختام المأساة ، فغاض الحاكم من هذا العالم فى ظروف كالأساطير ، وأسبغ الخفاء على ذهابه حجباً كثيفة من الغموض والريب ، كتلك التى أسبغها على حياته ، وعلى شخصيته كلها

وسوف نتناول فى هذا الفصل حوادث هذه المرحلة من عصر الحاكم بأمر الله ، ونبسط ما انتهى الينا من أعمال الدعاة وحركاتهم الظاهرة ؛ ولكننا نرجىء شرح مبادئهم ودعواتهم الى القسم الثانى من هذا الكتاب حيث نعنى بشرح الدعوة الفاطمية السرية وكل نظمها وآثارها

* * *

كان هذا العهد الغريب الحافل قد أخذ بعد هذه الفترة الطويلة المروعة يستقر ويبدو طبيعياً لا غرابة فيه ؛ وماذا عسى أن يخترع الحاكم بعد من صنوف الأحكام والقوانين المدهشة ؟ وماذا عسى أن يستجد من الأحداث والخطوب والمحن بعد أن تقلب الشعب فى هذه الغمار أعواماً ، وروض نفسه على قبولها والرضوخ لأحكامها ؟ لقد شهد الشعب فى هذه الخمس عشرة عاماً من الحوادث والمفاجآت السياسية والدينية والاجتماعية ما لم يسمع به من قبل فى أى مجتمع مسلم ؛ فرأى القتل الذريع يخمد كل صوت أو رأس يرتفع ، والاضطها المنظم يحطم الطوائف والأقليات ، والقوانين الصارمة تقلب أوضاع الحياة الاجتماعية ، وتخمد كل الرغبات والأهواء ؛ وقد احتمل كل شىء فى صبر وجلد ، ودفع من حرياته وماله ودمه ثمن الاحتجاج والتذمر ، ولم يبق الا أن يشهد الحوادث تجرى فى طريقها المحتوم ، حتى يأذن القدر بتحويلها وتبديلها

بيد أن الحوادث لم تكن قد بلغت بعد ذروتها ونهايتها ، وكانت ثمة مفاجآت مروعة أخرى

ولقد كان الحاكم خلال هذه الأعوام الحافلة . روح كل شىء فى الدولة وفى المجتمع ؛ وكان هذا الذهن المضطرم الذى رماه التحامل والتسرع بالجنون ، يسيطر على أقدار هذا الملك الشاسع بقوة مدهشة ، ويقبض بيديه القويتين على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الشعب الداخلية والخارجية ؛ بيد أنه كان الى جانب هذه الحياة العامة المضطربة المضنية ، يحيا لنفسه حياة عقلية وروحية أخرى ، قد يلمس الشعب أحياناً آثارها المادية ، ولكنه لا يلمس أصولها الحقيقية . وقد ظهرت آثار هذه الحياة الخفية بنوع خاص فى أواخر العهد ، أعنى منذ سنة ٤٠٥ هـ ؛ فمن ذلك الحين يزداد الحاكم شغفاً بالطواف ، والتجول في الفضاء ، ورصد النجوم ؛ وتحمله نزعة

قوية من التقشف والتصوف ، ويهيم في عوالم جديدة من الفلسفة الروحية ، لم تلبث أن ظهرت آثارها المادية فى صورة دعوة جريئة الى تقديس هذه الشخصية المدهشة والارتفاع بها الى ما فوق البشر ، واحاطتها بحجب كثيفة زادتها خفاء على خفائها وروعة على روعتها

وقد كانت الامامة عنوان الدولة الفاطمية ؛ وكانت هذه الامامة تصطبغ بصبغة مذهبية عميقة ، ولم تحجم فى هذا السبيل عن أن تعدل أحكاما بأحكام وشعائر بشعائر ، وأن تستحدث كثيراً من النظم والتقاليد الدينية المذهبية ؛ وكانت الدولة الفاطمية منذ قيامها بمصر تعمل بكل ماوسعت لبث الدعوة الشيعية المغرقة ، تارة فى الجهر وتارة فى الخفاء ، وكانت مجالس الحكمة الشهيرة ، وهى مجالس الدعاية المذهبية تعقد كما سنرى تارة فى القصر الفاطمى نفسه وتارة في الجامع الأزهر ؛ ولكن الأمامة الفاطمية تتشح في عصر الحاكم بأمر الله بنوع من القدسية الرهيبة وتستحيل الدعوة المذهبية الى نوع من الفلسفة الحرة أو بعبارة أخرى الى معترك من الالحاد المغرق ، وتكتنفها نفس الحجب المظلمة ، وكان الحاكم هو روح هذا التطور الخطير فى توجيه الدعوة الفاطمية ؛ وسنرى كيف ينشىء الحاكم جامعة خاصة هى دار الحكمة ، تلقن فيها الدعوة الالحادية المغرقة فى نظم ومراتب مدهشة ، كانت من أغرب وأروع النظم السرية التى عرفها التاريخ

* * *

فى سنة ٤٠٥ هـ ازداد الحاكم شغفا بالطواف كما قدمنا ، فكان يركب مراراً فى اليوم ، بالنهار وبالليل ؛ وكان يقصد غالبا الى المقطم ، وكان قد أنشأ له هناك منزلا منفرداً يخلو فيه الى نفسه ويهيم في عوالمه وتصوراته ، ومرصداً خاصا يرصد منه النجوم ويستطلعها ؛ وربما قصد الى بعض الحدائق والمواقع المنعزلة ، ثم يخرج منها الى الجبل ويجوب الفضاء الشاسع (١) ، وكان يؤثر ركوب الحمير ولا سيما الشهباء منها ـ وكان أبوه العزيز أيضا يؤثر ركوبها ـ ويخرج دون موكب ولا زينة ومعه نفر قليل من الركابية ، ويرتدى ثياباً بسيطة ساذجة ؛ وكان يبدأ كعادته بالتجوال

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٧٣ و ٧٤ ؛ والنجوم الزاهرة عن ابن الصابى ج ٤ ص ١٨٠ ؛ وأبو صالح الأرمنى ص ٤٧ ب

في شوارع القاهرة ، ويحادث الكافة حسبما قدمنا ، ويستمع الى ظلامات المتظلمين ، ويفصل فيها لوقته أو يحيلها الى جهة الاختصاص ، وكانت تنهال عليه الرقاع والعرائض المختومة ، ومنها ما يحتوى السب المثير له ولأسلافه أو الطعن المر فيه وفى أسرته ؛ وكان توجيه الرقاع القاذفة الى الخليفة الفاطمى من الأمور المألوفة ، وكان يتلقى الكثير منها فى القصر أو المسجد أو الموكب ذاته ؛ ففى ذات يوم صادف الركب الخلافى امرأة تمد يدها برقعة كأنها ظلامة ، فتقدم الحاكم وتناولها بنفسه وقرأها ، فاذا فيها أشنع السباب والقذف ، فطلب اعتقال المرأة ، فأجيب أنها تمثال من الورق المقوى قد ألبس ثياب امرأة ؛ فثارت نفسه لذلك الاجتراء ، وأضمر التنكيل بأهل مصر (الفسطاط) . وتقول بعض الروايات إنه نفذ مشروعه فعلا فأصدر أمره الى العرفاء والمقدمين بالمسير الى مصر وحرقها ونهبها والفتك بأهلها ، ووقع الاعتداء المروع بالفعل فى مناظر رائعة من السفك والعيث ؛ ولكن بعض الروايات الأخرى على اتفاقها فى وقوع هذه الجريمة الشنعاء ، ترجعها الى مناسبة أخرى ، والى تاريخ متأخر عن ذلك بنحو خمسة أعوام أعنى الى أوائل سنة ٤١١ هـ ، ولما كنا نؤثر الأخذ بهذه الرواية الأخيرة ، فانا نرجىء استعراض هذه الحوادث الى مكانها المناسب (١) .

وهنا ينحدر عصر الحاكم بأمر الله الى مرحلة جديدة من الخفاء ؛ وكانت تلك القوانين المدهشة والأحداث المروعة التى توالت فى الأعوام الأخيرة ، وما يحيط بكل بواعثها من غموض ، وما يحيط بشخصية الخليفة نفسه وبأهوائه وتصرفاته الغريبة من ضروب الخفاء والروع ، كلها قد بثت الى المجتمع المصرى نوعاً من الرهبة والخشوع ؛ ولكن الخفاء فى هذه المرحلة يتجه وجهة أخرى : وبينا يغرب عن فهم الكافة ، اذا به يثير التوجس والروع فى نفوس الخاصة ؛ ذلك لأن الدعوة السرية الفاطمية تذهب عندئذ الى ذروة الغلو والاجتراء فتزعم أن الحاكم « إله » يجب أن يعبد وأن تعنوا له الجباه .

---

(١) يقول بهذه الرواية ابن الصابى (ويرويه النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨١) ، ويتابعه فى ذلك ابن الأثير (ج ٩ ص ١٠٨) ، ويقول بالرواية الثانية الانطاكى فى تاريخه ص ٢٢٤ و ٢٢٥ والوزير جمال الدين المصرى فى (أخبار الدول المنقطعة) ، ويتابعه فى ذلك النويرى فى نهاية الأرب (ج ٢٦ ص ٦٠) ، وهى أرجح فى نظرنا لأنها أكثر اتفاقاً مع المنطق وأكثر دقة فى شرح الأسباب والظروف وايراد التواريخ .

ولم تسجل الرواية الاسلامية مثل هذا الزعم المنكر من قبل الا فى فرصة واحدة هى ظهور المقنع الخراسانى؛ وقد كان أقصى ما يطمح اليه الدعاة المغامرون أن ينتسبوا الى الامامة وربما الى نوع من الرسالة أو النبوة؛ وهذا ما ذهب اليه بعض الدعاة المغرقين مثل داعية القرامطة أشد الفرق الاسلامية الثورية غلوا واغراقا؛ ولكن الارتفاع بالانسان الى قدس الالوهية إجترام لم يسمع به منذ ظهور المقنع أعنى منذ مائتين وخمسين عاما الا في عصر الحاكم بأمر الله؛ وسنرى فيما يأتى أن هناك كثيرا من وجوه الشبه بين الحادثين وبين الدعويين

* * *

فى أوائل سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ظهر بمدينة القاهرة رجل يدعى حمزة بن على بن احمد الزوزنى، ويعرف باللباد، ودعا الى الوهية الحاكم بأمر الله، وشرح دعواه فى عدة كتب ورسائل غريبة نتحدث عنها فيما بعد؛ فمن هو هذا الداعية الجرىء الذى كان لمزاعمه كما سنرى أثر بعيد المدى؟ إن الروايات المعاصرة والمتأخرة لا تقدم الينا عنه سوى اشارات موجزة؛ وقد استقينا معظم التفاصيل المتعلقة به وبدعوته من رسائله ذاتها التى وفقنا الى قراءتها واستعراضها فى بعض المجموعات الخطية القديمة. وكل ما نعرف عن شخصه أنه فارسى من مقاطعة «زوزن»، وأنه كان فى بدء أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد، وأنه وفد الى القاهرة حوالى سنة ٤٠٥ هـ (١)، وانتظم بين الدعاة الذين كانت تغص بهم العاصمة الفاطمية يومئذ، وخاض غمار الجدل الدينى والدعوات السرية التى كانت تضطرم بها يومئذ؛ ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة الذين خرجوا على الاسلام وحاربوه باسمه ينتمون الى أصل فارسى، ومنهم عبدالله بن ميمون القداح الذى ترجع اليه بعض الروايات نسب الفاطميين انفسهم؛ وفي رسائل حمزة ما يلقى بعض الضياء على شخصيته وعلى طبيعة دعوته ومهمته؛ فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات، وتلقوا وحيه أو استوحوا دعوته واستظلوا في بثها برعايته، وكان لهم أكبر الأثر في التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر؛ وسنرى حين نعرض الى مهمته الحقيقية والى رسائله الغريبة أنه يقدم لنا نفسه أيضاً فى صفة النبوة، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات

(١) أخبار الدول المنقطعة (المخطوط)

والظاهر أن حمزة بن على عكف مدى حين على بث دعوته سراً ، ولم يجاهر بها إلا فى أواخر سنة ٤٠٧ أو أوائل سنة ٤٠٨ هـ ؛ وعندئذ يبدو على مسرح الحوادث الظاهرة ، ويلازم الجلوس فى مسجد ريدان (أو مسجد تبر) بظاهر باب النصر ، ويدعو جهراً الى عبادة الحاكم ، وينادى بالتناسخ فى الأديان والشرائع وبالحلول ، ويزعم أن الحاكم ليس بشراً ، وإنما هو رمز حل فيه الأله ؛ فاجتمع اليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الاسماعيلية ، وتلقب بهادى المستجيبين ، ولقب الحاكم « بقائم الزمان » وكثر جمعه وذاع أمره ؛ وكان الحاكم حين يمر ركبه بالمسجد يخرج اليه حمزة ويحادثه طويلا على انفراد ؛ ولم يلبث أن أولاه الحاكم رعايته بصورة ظاهرة ، وبعث اليه والى اتباعه بالسلاح ليدافعوا عن انفسهم وقت الحاجة إذ كانوا يوجسون شراً من الكافة ؛ ثم تمادى حمزة في مشروعه فاتخذ له بطانة قوية من الدعاة والرسل ، ولقب احدهم وهو اسماعيل بن محمد التميمى « بسفير القدرة » ، وكان ينفذه لأخذ البيعة من الرؤساء والكبراء للحاكم فى صفته الجديدة التى أسبغها عليه حمزة وشيعته ، أعنى باعتباره « قائم الزمان » فكان الكثير منهم يضطر الى التظاهر بالقبول خوفا من البطش والانتقام (١) .

وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه حمزة بهذه الدعوة الجريئة ظهر بها عدة من رسله وتلاميذه ، وفى مقدمة هؤلاء حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ، ومحمد بن اسماعيل الدرزى ، وهذان تذكرهما بعض الروايات المعاصرة والمتأخرة ؛ واسماعيل بن محمد التميمى ، وعبد الله بن محمد القرشى ، وعلى بن أحمد السموقى ، وعبد الله اللواتى ، ومبارك بن على ، وابو منصور البردعى ، وابوجعفر الحبال ، وهؤلاء يذكرهم حمزة فى رسائله الى جانب الدرزى ؛ وقد كان للأخرم والدرزى شأن عظيم فى تلك الحركة ، وكان الدرزى فى المبدأ حليف حمزة وداعيته ، ولكنه انقلب فيما بعد الى منافسته وخصومته كما يقرر لنا حمزة ذلك فى بعض رسائله (٢) .

وقد اختلفت الرواية فى تواريخ ظهور هؤلاء الدعاة ، فيقول لنا الأنطاكى وهو

(١) راجع تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٠ و ٢٢٣ ؛ والمكين ابن العميد ص ٢٦٤ و٢٦٥ ؛ وراجع أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وأورده فستنفلد فى « تاريخ الفاطميين » ص ٢٠٥ و ٢٠٦

(٢) راجع المجموعة الخطية المحفوظة بدار الكتب رقم ١٣٢ عقائد النحل ، وهى التى تضم رسائل حمزة بن على كما سنوضح بعد

مؤرخ معاصر ، إن الدرزى أول من ظهر منهم فى سنة ٤٠٨ هـ ، وأول من أذاع الدعوة بالوهية الحاكم ، ثم ظهر حمزة بعد مقتل الدرزى فى نفس العام ؛ ويتابعه فى ذلك ابن العميد ؛ ويقول لنا الوزير جمال الدين فى « أخبار الدول المنقطعة » إن الأخرم كان أول من ظهر بمصر من أولئك الدعاة ، وذلك فى رجب سنة ٤٠٩ هـ ، وأن حمزة ظهر من بعده فى سنة ٤١٠ هـ ثم تبعه الدرزى فى بث الدعوة ؛ ولكن رسائل حمزة التى وقفنا عليها تدلى بالعكس بأن حمزة كان أول من ظهر من أولئك الدعاة ، وأول من بث دعوة الألوهية ، وأن ظهوره بالدعوى كان فى سنة ٤٠٨هـ ، وهو ما يقرره لنا صراحة فى خاتمة رسالته الأولى المسماة « بالنقض الخفى »[(١)]

وظهر حسن بن حيدرة الفرغانى المسمى بالأخرم بمدينة القاهرة عقب ظهور حمزة بقليل ، ودعا مثل ما دعا اليه حمزة من التناسخ والحلول ، والوهية الحاكم ؛ وذاعت دعوته بسرعة في جماعة من المغامرين والمرتزقة ، فاستدعاه الحاكم ، وخلع عليه وأركبه فرساً مطهماً ، وسيره فى موكبه ، وأولاه عطفه ورعايته ؛ بيد أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل حتى قتل الأخرم ؛ وذلك أنه كان يسير فى ركبه بالقاهرة ذات يوم ، فوثب به رجل من متعصبى السنة ، وأرداه قتيلا ، فتفرق فى الحال صحبه وانهارت دعوته ؛ ونهبت دار الأخرم وطورد أنصاره فى كل مكان ؛ وغضب الحاكم لذلك أيما غضب وأمر باعدام القاتل في الحال ؛ وكفن الأخرم بأكفان من القصر ودفن فى حفل رسمى ؛ وحمل أهل السنة صاحبهم ودفنوه مكرماً ، وهرع الناس أياماً لزيارة قبره ؛ ولكن القبر نبش بعد أيام واختفت جثته ، وكان ذلك على ما يظهر بوحى الحاكم ورغبته [(٢)]

ولم ين الدعاة لهذا الاعتداء ، ولم تفتر دعايتهم رغم ثورة الشعب وتحفزه للفتك بهم ؛ وكان محمد بن اسماعيل الدرزى ، ويعرف « بأنوشتكين البخارى » وهو من أصل تركى ، فيما يرجح [(٣)] أقوى رسل حمزة وأشدهم عزماً وجرأة ؛ وكان يسير على طريقة حمزة فى الدعوة الى التناسخ والحلول ؛ ويزعم أن روح آدم قد انتقلت

---

(١) راجع المخطوط المشار اليه ص ٥١

(٢) مرآة الزمان (المخطوط) المجلد الحادى عشر ج ٣ ص٤٠٤ ، وأخبار الدول المنقطعة ؛ وأورده فستنفلد ص ٢٠٤ و ٢٠٥

(٣) ويقول الانطاكى إنه يرجع الى أصل أعجمى (ص ٢٢٠)

الى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على الى الحاكم صفوة سلالته ؛ وشرح الدرزى دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها الى الحاكم ؛ فقربه الحاكم ، وأغدق عليه عطفه ورعايته ، وارتفعت لديه منزلته ، واشتد نفوذه حتى غدا ملاذ الكبراء وسفيرهم لديه فى قضاء مطالبهم ورغباتهم[١] ؛ وسمى الدرزى نفسه « بسند الهادى ، وحياة المستجيبين » . و « الهادى » هو حمزة كما رأينا ، وفي ذلك ما يدل على أن حمزة كان السابق والدرزى هو اللاحق ، وان الرجلين كانا فى البداية على الأقل ، حليفين يعملان لبث الدعوة معاً بمنتهى التعاون والوفاق[٢]

ولم يكن لهذه المزاعم المغرقة أثر يذكر ، وإن كان بعض الكافة من الجهلاء والمرتزقة وبعض الذميين المنافقين قد تظاهروا بقبولها اجتناء للنفع أو اتقاء النقمة ؛ وكان هؤلاء إذا لقوا الحاكم في ركبه قالوا : السلام عليك يا أحد ، يامحي ، ياميت ؛ وأمثال ذلك من الهذر المنكر[٣] . وكثرت الفتن والمناقشات الدينية ولا سيما بين أنصار حمزة وأنصار حتكين داعى الدعاة وهو المشرف على توجيه الدعوة الفاطمية الأصلية ، وأخذ كل فريق يرمى صاحبه بالكفر والضلال[٤]

والواقع أن هذه المزاعم السخيفة كانت تثير من السخط والانكار أكثر مما تثير من الروع ، ولولا ما يلقاه الدعاة من الحماية الرسمية لكان الشعب قد فتك بهم منذ الساعة الأولى ؛ ولكن السخط لم يلبث أن بلغ ذروته ، وسنحت فرصة الانفجار أخيراً بما أبداه الدعاة من جرأة لا نظير لها . فنى الثانى عشر من صفر سنة ٤١١ هـ ، ركب فريق من أصحاب حمزة على خيول وبغال ، ودخلوا الجامع العتيق (جامع عمرو) عليها ركبانا ، وهم يجاهرون بمذهبهم ؛ وكانت الساحة قد أعدت لجلوس قاضى القضاة ، واحتشد الناس في جنباتها ينتظرون مقدمه ، فتقدم ثلاثة من الملاحدة واحتلوا منصة القاضى ، وأخذوا يلقون على الحضور أصول دعوتهم وفكرتهم فى الألوهية ، فضج الناس بالتكبير والتهليل والتضرع لله عز وجل ، وهرع الكافة الى المسجد لرؤية ذلك المنظر الغريب ؛ ولم يلبث أن قدم

(١) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار اليه ص ٤٠٥ ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤
(٢) أخبار الدول المنقطعة
(٣) ابن الصابى ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣
(٤) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٤

القاضي في موكبه الى المسجد ، وهو يومئذ أحمد بن محمد بن أبي العوام؛ فأخبره الناس بما حدث ؛ ولما تقدم من المنصة ليتبوأ مجلسه ، قدم إليه أحد الدعاة الثلاثة رقعة من حمزة ، أولها « باسم الحاكم لله ، الرحمن الرحيم » وفيها يأمره بالاعتراف بألوهية الحاكم، وإذاعة ذلك في الكافة ، فأجاب القاضي محتجاً منكراً ، وأنه سيعرض الأمر على مولاه ، فأغلظ له الدعاة الكلام ، فثار الناس ، ووثبوا بالدعاة الثلاثة فقتلوهم في الحال ، ثم انقضوا على باقي الملاحدة فمزقوهم تمزيقاً وقتلوهم أشنع قتل ، وانطلقوا في الجامع يتتبعون أصحاب حمزة واتباعه حيث وجدوا ، ويقتلونهم ثم يحرقونهم ؛ ولما وقف الحاكم على هذه الحوادث ثارت نفسه غضبا ، وأمر بالقبض على قتلة الملاحدة ، فقبض على كثيرين ، وأعدموا ؛ فاشتد سخط الكافة ، وشاطرهم الجند شعورهم ، وأحاط جماعة من الترك بدار مواطنهم الدرزي ، فقاتلهم الدرزي وأصحابه من داخلها ، ثم فر الدرزي ناجياً بنفسه والتجأ الى القصر ، وهدم الجند داره ونهبوا ما فيها وقتلوا عدداً كبيراً من أصحابه ؛ ولما علموا بالتجائه الى القصر ، طالبوا الحاكم بتسليمه باعتباره مواطنهم ، فوعدهم الحاكم أولا باجابة مطلبهم ، ولما عادوا إليه في اليوم التالي قيل لهم إن الدرزي قد قتل ، فارتدوا مغضبين ، وقصدوا الى مسجد ريدان حيث يجلس حمزة الزوزني فلم يجدوا له أثرا (١)

وفي رواية أخرى ، وهي رواية الأنطاكي ، أن الدرزي قتل أثناء ركوبه في موكب الحاكم ذاته ؛ قتله مواطنوه الترك على أثر ما شملهم وشمل جميع رجال الدولة ومعظم طبقات الشعب من السخط لمزاعمه الالحادية المثيرة (٢) ؛ وفي رسائل الدروز السرية ما يشعر بأنه قتل في سنة ٤١٠ هـ بتحريض حمزة ، وقتل معه عدة من الدعاة الخوارج (٣)

والحقيقة فيما يرجح هي أن الدرزي لم يقتل في هذا الظرف ، ولكنه اختفى في القصر أياما حتى هدأت العاصفة وسكن الجند ؛ ثم دبر الحاكم له سبيل الفرار ، وعاونه بالمال ، فسار الى الشام ونزل ببعض قرى بانياس ، وأذاع في الناس دعوته

---

(١) اخبار الدول المنقطعة

(٢) تاريخ الانطاكي ص ٢٢٣

(٣) دائرة المعارف الاسلامية في مقال الدرزي

فكانت أصل مذهب الدروز الشهير الذى سمى باسمه (١)؛ وأساسه القول بالتناسخ ، وحلول الروح ، وأن الروح القدس انتقلت من آدم الى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على الى الحاكم بأمر الله ؛ وسنرى فيما بعد كيف أن حمزة بن على هو في الواقع مؤسس مذهب الدروز وإمامه الحقيق ، وان كان الدرزى يستأثر دونه بانتساب المذهب اليه حتى يومنا.

أما مصير حمزة فتحيطه معظم الروايات بالصمت وينفرد الانطاكى ببيان مصيره فيقول لنا إنه فر بعد فقد الحاكم ثم قتل بعد ذلك وطورد أنصاره ومزقوا كل ممزق (٢) ، بيد أن هنالك ما يدل على أنه لبث قائماً بدعوته حيناً آخر ؛ ذلك أنه توجد لدينا مجموعة خطية أخرى من رسائل إلحادية (٣) نعتقد من روحها وأسلوبها أنها من تأليف حمزة بن على ذاته ، ومنها رسائل كتبت فى سنة ٤٢٢ ه ، أى بعد التاريخ الذى نتحدث عنه بنحو احدى عشر عاما ؛وربما استتر حمزة بمصر حيناً يبث دعايته في الخفاء ، وربما انتقل الى الشام فى أثر زميله الدرزى ؛ بيد أنه لا توجد لدينا تفاصيل شافية عن حركة أولئك الدعاة بعد أن انهارت دعوتهم بمصر على النحو الذى قدمنا

* * *

ماذا كان موقف الحاكم بأمر الله من هذه الحركة الالحادية المدهشة ؛ لقد كان فيما يرجح موقف تأييد ورعاية ،وهذا ماتقوله معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة ؛ وإذا كان من الصعب أن نحدد مدى هذا التأييد ، فى وسعنا أن نقول إن الحاكم كان من وراء الدعاة يشد أزرهم ، ويمدهم بالمال والنصح ، ويسهر على حمايتهم من الكافة ؛ وإذا صدقنا ما يقدمه الينا الدعاة فى هذا الصدد ، فقد نستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول إن الحاكم كان يشرف على توجيه الدعوة ، ويشترك فى تنظيمها وتغذيتها بطريقة فعلية ؛ وهذا ما يذكره لنا حمزة في بعض رسائله كما سنرى (٤) ؛ وفي سياق الحوادث وتتابعها حسبما قدمنا ما يدل على أن تحطيم الدعوة

(١) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار اليه ص ٤٠٥ ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤-
(٢) تاريخ الانطاكى ص ٢٣٧
(٣) تحفظ هذه المجموعة بدار الكتب رقم ٣٥ عقائد النحل
(٤) راجع رسائل حمزة (المخطوط رقم ١٣٣ عقائد النحل) ص ٧٥

وتمزيق الدعاة على هذا النحو كان ضربة شخصية للحاكم بأمر الله ؛ وقد ثارت نفس الحاكم غضباً على الجند والكافة لأنهم اجترأوا على مطاردة الدعاة وتمزيقهم بهذه القسوة دون اكتراث لما أولاهم من رعاية ظاهرة ، وعول على الانتقام لنفسه وللدعاة ؛ بيد أنه لم يكن ليجرؤ على معاقبة الجند خشية الفتنة ، فلم يلبث أن أظهر الرضى عنهم ؛ ونمى اليه أن أهل مصر هم الذين حرضوا الجند والكافة على مطاردة الدعاة وقتلهم ، فعول على أن يختص مصر وأهلها بانتقامه ، وأن ينكل بهم وبمدينتهم شر تنكيل

وقد أشرنا فيما تقدم الى حادث المرأة التى صنعت من الورق ونصبها أهل مصر فى طريق الحاكم وفى يدها رقعة كأنها ظلامة ، والى ما أثارته محتويات هذه الرقعة القاذفة فى نفس الحاكم من الحفيظة والغضب على أهل مصر ، وقلنا إن بعض الروايات ترجع الى هذه المناسبة والى هذا السبب إحراق الحاكم لمصر والتنكيل بأهلها ؛ ولكنا لم نأخذ بهذه الرواية ، وآثرنا أن نرى سبب هذا الانتقام الشنيع ، فيما أقدم عليه أهل مصر من مطاردة الملاحدة وتمزيقهم ؛ ولم يذكر لنا الانطاكى فى روايته المعاصرة قصة المرأة الورق ؛ ولكنه يذكر عن عوامل الفتنة ما يتفق مع الرواية العامة ، وهو أنه لما ذاعت الدعوة الالحادية ذاعت معها بين أهل مصر رقاع تهديدية تنذرهم بالويل والهلاك إذا لم يعتنقوا الدعوة الجديدة ، وأذاع المصريون من جانبهم الرقاع القاذفة فى حق الحاكم وتكفيره ونعته بمختلف القبائح ، فثارت نفسه لذلك (١) ؛ ويأخذ الوزير جمال الدين فى تاريخه ، بلب الرواية ، ويفصلها لنا تفصيلا حسنا (٢) ، ويتابعه في الأخذ بها صاحب « نهاية الأرب » كما قدمنا

اعتزم الحاكم إذن أن ينكل بمصر وأهلها ؛ فاستدعى العرفاء والقادة ونظم معهم خطة العمل ؛ وعهد الى مقدمى العبيد وغيرهم من الطوائف بافتتاح الهجوم ، فأخذوا يغيرون على أحياء مصر فى هيئة العصابات ، وينهبون الحوانيت والسابلة ، ويخطفون النساء من الدور ، والشرطة تغضى عن جرائمهم ، والحاكم معرض عن كل شكاية

---

(١) تاريخ الانطاكى ص ٢٢٤ و ٢٢٥

(٢) أخبار الدول المنقطعة

وتضرع ؛ وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ ؛ ثم اتسع نطاق الاعتداء ، فهاجمت قوى العبيد والترك والمغاربة مصر من كل صوب وأضرموا النار فى أطرافها ؛ وهب أهل مصر للدفاع عن أنفسهم ، واستمرت المعارك بين الفريقين ثلاثة أيام ، وألسنة اللهب تنطلق من المدينة القديمة الى عنان السماء ؛ والحاكم يركب كل يوم الى الجبل ، ويشاهد النار ، كما شهد نيرون من قبل نيران رومة ، ويسمع الصياح ، ويسأل عن حقيقة الأمر ، فيقال له إن العبيد يحرقون مصر وينهبونها ، فيظهر الأسف والتوجع ، ويقول : ومن أمرهم بهذا لعنهم الله ! وفى اليوم الرابع اجتمع الأشراف والكبراء فى المساجد ورفعوا المصاحف ، وضجوا بالبكاء والدعاء ، فكف الأتراك والمغاربة عن متابعة الاعتداء ، واستمر العبيد في عدوانهم ، وأهل مصر يدفعونهم بكل ما استطاعوا ؛ وطلب الأتراك والمغاربة الى الحاكم أن يأمر بوقف هذا الاعتداء الصارخ على أهل مصر وعلى أموالهم خصوصاً وأن لهم بين المصريين كثيراً من الأصهار والأقارب ولهم في مصر كثير من الأملاك ؛ فتظاهر باجابة مطلبهم ، ولكنه أوعز الى العبيد أن يستمروا في القتال ، وأن يتأهبوا لمدافعة الترك والمغاربة ؛ فاضطرمت المعارك بين الفريقين ، ودافع الترك والمغاربة عن أهل مصر ، ومزقوا جموع العبيد ونكلوا بهم ؛ ثم هددوا الحاكم باقتحام القاهرة وحرقها إذا لم يوضع حد لتلك الجرائم ، فخشى الحاكم العاقبة ، وأمر العبيد بالتفرق ولزوم السكينة ؛ واعتذر لأشراف مصر وزعماء الترك والمغاربة عما وقع ، وتنصل من كل تبعة فيه ، وأصدر أماناً لأهل مصر قرىء على المنابر ؛ وسكنت تلك الفتنة الشنعاء بعد أن لبثت الفسطاط بضعة أسابيع مسرحاً لمناظر مروعة من السفك والعيث والنهب ، وأحرقت معظم شوارعها ومبانيها وخربت معظم أسواقها ونهبت ، وسبى كثير من نسائها واعتدى عليهن ، وانتحر كثير منهن خشية العار ؛ وتتبع المصريون أزواجهم وبناتهم وأمهاتهم وافتدوهن من الخاطفين ؛ ويروى أن أحد الأشراف العلويين قال للحاكم بهذه المناسبة : « أراك الله فى أهلك وولدك مثل ما رأينا في أهلنا وأولادنا ؛ فقد اطرحت الديانة والمروءة بأن رضيت لبنات عمك بمثل هذه الفضيحة ، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيرة » فأغضى الحاكم عن جرأته وقال له : « أنت أيها الشريف محرج ،

ونحن حقيقون باحتمالك ، والا غضبنا عليك وزاد الأمر على الناس » (١)

وكان انهيار الحركة الالحادية ومصرع دعاتها ، وما تلا ذلك من المناظر الدموية ، هو آخر الحوادث الهامة فى ذلك العهد الحافل ؛ وكانت بداية النهاية ؛ وكانت الخاتمة تدنو مسرعة ، وقدأشرف ذلك العام المليء بالحوادث - سنة ٤١١ هـ - على نهايته ؛ وأشرف العهد نفسه على الخاتمة ؛ وكانت الخاتمة ذروة الخفاء

(١) رجعنا فى هذه التفاصيل الى أخبار الدول المنقطعة (وقد أوردها فستنفلد ص ٢٠٩ - ٢١٣) وابن الصابى (وقد وردت فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨١ و ١٨٢)

الفصل التاسع

ذروة الخفـــاء

الجتمع المضطرم . سجل الحرية للذميين . خفاء شخصية الحاكم . عنصر المؤامرة فى اختفاء الحاكم . ما يرجح هذا الفرض من الظروف والبواعث . الأميرة ست الملك . اعتراضها على سياسة الحاكم وجزعها من العواقب . اتهام الحاكم لأخته . ست الملك والحسن بن دواس . المؤامرة . الليلة المشؤومة . خروج الحاكم الى المقطم . بعض الاعراب يعترضونه . مصرع الحاكم واخفاء أشلائه . ست الملك تقضى على شركائها فى الجريمة . رواية القضاعى . خروج رجال الدولة للبحث عن الحاكم . العثور على حماره وثيابه . مصرع الاعراب الذين اعترضوه ليلة الجريمة . رواية الانطاكى . مغزى هذه الرواية فى تبرئة ست الملك . رواية المسبحى ومغزاها فى تأييد هذه البراءة . مقارنة بين الروايات المختلفة . الريب فى رواية المسبحى . ما يرجح رواية القضاعى . ست الملك روح المؤامرة . الطابع المكيافيلى لهذه السياسة . خلافة الظاهر ولد الحاكم . إلغاؤه لقوانين أبيه . إعادة الحريات الدينية والاجتماعية . مطاردة الدعاة الملاحدة . ست الملك تتولى إدارة الشئون . بعض أعمال العنف والسفك . مصرع الوزير خطير الملك وعبد الرحيم ولى العهد وعزيز الدولة . سفارة الى قيصر بيزنطية . وفاة ست الملك

ها نحن أولاء نقترب من الخاتمة ، ونقترب من الذروة ؛ خاتمة العهد الذى استعرضناه وخاتمة تلك الشخصية العجيبة التى ملأت العهد عنفاً واضطراباً وروعة ؛ وذروة ذلك الخفاء الذى كان يغمرها في حياتها الخاصة والعامة ، ويسبغ على العهد كله لوناً من الطرافة الممزوجة بالرهبة والخشوع

كان المجتمع المصرى قد بلغ فى هذه الأعوام الخمسة والعشرين غاية اليأس والسخط والروع ؛ وكانت قد أضنته تلك الأحداث الهائلة التى توالت عليه ، فقلبت أوضاعه ، وقوضت نظمه من الأساس ، ونكبته فى النفس والمال غير مرة ، وعصفت بتراثه الروحى وتقاليده الاجتماعية وكل معتقد عزيز لديه ؛ وكانت اليد الحديدية تقبض على مصايره ، والنظم العنيفة التى تطوق أعناقه تخمد لديه كل نزعة الى الخروج

والمقاومة ؛ بيدأن ذلك الخضوع الذى فرضه عليه تتابع الحوادث وهولها وروعتها لم يكن نهائياً ؛ فلما ظهر دعاة « الألوهية » وبثوا دعوتهم الجريئة ، وكشفوا القناع عن شنيع مزاعمهم ، كان السخط قد بلغ ذروته ، وآذن الانفجار ؛ فثار الشعب بالدعاة وحطم حركتهم ودعوتهم ؛ وإذا كانت القوة الطاغية قد استطاعت أن تخمد الثورة وأن تنكل بالمجتمع الثائر ، فانها لم تخمد لديه كل نزعة الى النضال والمقاومة ، بل لقد سرت عوامل السخط الى العسكرية ذاتها فابدت أنها قد ضاقت ذرعاً بهذه الأهواء العنيفة ، وأنها لا تريد أن تكون بعد أداةً للطغيان الأعمى والانتقام الذريع . كان الحاكم بأمر الله يجلس عندئذ فوق بركان مضطرم من الأحقاد والشهوات ، وكان يتخبط بين مختلف النيات والمشاريع ، ويرى أداة الطغيان وقد فسدت ، وكادت تفلت من يديه القويتين ؛ وبينا يضطرم الشعب سخطاً ، ويرقب فرص الانتقاض والمقاومة ، وبينا يرتجف الطاغية فى أعماق قصره رهبة من المستقبل ويمعن فى تدبر الموقف ، ويتلمس الوسائل لتمكين أغلاله وإحكام قبضته ، إذا بيد القدر الأعلى تحول مجرى الأمور فجأة الى وجهة أخرى ، وإذا مشيئته القاهرة تهيء خاتمة العهد ، وخاتمة الطاغية ؛ فيتنفس المجتمع الصعداء ، وينطلق من أغلاله المرهقة دون سفك ودون نضال

وقعت المناظر الدموية التى أتينا على وصفها فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ واستمرت مدى أسابيع ؛ وصدر فى نفس الوقت سجل (مرسوم) بابطال المراسيم التى صدرت من قبل فى حق النصارى واليهود ، ورفع الفروض التى ضربت عليهم ، واطلاق الحرية لهم فى اعادة كنائسهم وارتداد من أسلم منهم الى دينه حسبما قدمنا[١] ، فكان صدور هذا السجل فى هذا الظرف الفياض بالحوادث المثيرة ، عاملا جديداً في إذكاء السخط على الحاكم ، والريب فى نياته وعقيدته وتغذية المطاعن الشنيعة التى يرمى بها من كل صوب

ومضى على ذلك زهاء شهرين ؛ وبينا كانت النفوس على اضطرامها ، وجزعها وتوجسها ، إذا بالحدث الأكبر يقع فجأة ، وإذا بالحاكم بأمر الله يغيض من هذه الحياة الدنيا في ظروف كالأساطير

---

(١) الانطاكى ص ٢٣٠ - ٢٣٢ وأخبار الدول المنقطعة ، وأبو صالح ص ٤٦ (أ)

كان مصرع الحاكم بأمر الله ، أو بالحرى كان اختفاؤه ، من أعجب مآسى التاريخ وأشدها غموضاً

ولقدكانت شخصية الحاكم كما رأينا ، مثال الخفاء ذاته ؛ ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تنتاب هذه الشخصية الغريبة في كثير من المواطن ، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التى تتمتع بها فيأحيان كثيرة . بيد أن الخفاء يغمر هذه المظاهر جميعاً ، سواء فى فترات قوتها أو ضعفها ؛ وكان هذا الخفاء المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة ، وفى تصرفاته العامة ، فى أقواله وفى أفعاله. وأى خفاء أشد من ذلك الذى تنفثه حولها شخصية ترتفع في سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم في دعوى الألوهية ، وتنحط مع ذلك فى كثير من نزعاتها وتصرفاتها الى نوع من الجنون الغامض ؟

وكان اختفاء الحاكم كحياته لغزاً مدهشا ، بل كان ذروة الخفاء والروع؛ ومازالت قصة هذا الاختفاء وظروفه وحقيقة عوامله مثار الريب والجدل . ركب الحاكم ذات مساء فى بعض جولاته الليلية ، وقصد الى جبل المقطم ؛ ثم لم ير بعد ذلك قط لاحياً ولا ميتاً ؛ ولم يعرف مصيره قط ؛ ولم يوجد جثمانه قط ؛ ولم تقدم الينا الروايات المعاصرة أو المتأخرة أية رواية حاسمة عن مصرعه أو اختفائه

وسوف نستعرض فى هذا الفصل تفاصيل هذه المأساة العجيبة على ضوء الروايات المختلفة ونستخرج منها بالتمحيص والمقارنة أرجح الفروض التى يمكن أن يعول عليها البحث التاريخى ويطمئن اليها

* **

هنالك فى سير الحوادث وأحوال العصر ، مايحمل رغم خفاء المأساة وغموض الظروف التى أحاطت بوقوعها ، واضطراب الروايات بشأنها ، على الاعتقاد بأن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية المؤامرة ، وأن مصرعه لم يكن سوى جريمة سياسية ارتكبت لتحقيق غايات الملك والسياسة ؛ وهذا ما تقرره بعض الروايات المعاصرة على اختلافها فى الشرح والتعليل؛ ولكن من دبر هذه المؤامرة ؟ ومن قام بتنفيذها ؟ وكيف نفذت ؟ وأين ذهبت جثة الحاكم ؟ هذه أمور يحيط بها الخفاء والريب ، وإن كنا نجد الجواب عليها أيضاً فى بعض الروايات المعاصرة

والحقيقة أن افتراض المؤامرة السياسية ربما كان خير تعليل للمأساة . ذلك أن الحاكم بأمر الله كان طاغية خطر الأهواء والنزعات ، سريع الانتقام ، ذريع الفتك ؛ وكانت تضطرم حوله بلا ريب شواظ من البغضاء والسخط : وقد شمل هذا السخط جميع الطوائف والطبقات ؛ وكان رجال الدولة وأكابر الزعماء والقادة يعيشون جميعا في جو من الخيانة والروع ، ولا يأمنون على نفس أو مال . ومن المدهش حقا أن هذه البغضاء المضطرمة لم تصب الحاكم من قبل بنارها ، ولم تسحق ملكه وسلطانه ، بل استطاع أن يخمدها فى صدور ذويها مدى هذه الأعوام الطويلة ؛ ذلك لأن هذه الشخصية القوية كانت تثير دائما من الرهبة والروع أكثر مما تثير من البغضاء والحفيظة والسخط

كانت المؤامرة إذن ترقب الحاكم بأمر الله ، وبرصده الموت ، ولكن من دبر هذه المؤامرة ، وأقدم على الاضطلاع بتلك المهمة الخطرة ؟ لم يكن مدبرها الأول رجلا من رجال الدولة أو زعيما ممن نزلت بهم نقمة الطاغية ، ولكن كان مدبرها ، على ما تقرره معظم الروايات المعاصرة امرأة ، هى ست الملك ، أخت الحاكم ذاته ؛ وقد أشرنا الى ست الملك فيما تقدم ؛ كان مولدها بالمغرب فى سنة ٣٥٩ ﻫ ، وقد عرفت منذ فتوتها بالعقل والحزم وحسن التدبير ؛ وكان أبوها العزيز يحبها ويستشيرها فى كثير من الأمور ويستمع الى رأيها ونصحها ؛ ولما توفى العزيز استمرت ست الملك على نفوذها فى القصر مدى حين ، وقامت بدور كبير فى تدبير الشؤون وتوجيهها فى بداية عهد الحاكم بأمر الله ، فكانت تمده بحسن رأيها وتدبيرها فى كثير من الأمور ، وتسهر على سلامته وسلامة ملكه ؛ ولما استأثر الحاكم بالسلطة ، واندفع فى تيار العنف والاغراق ، وأسرف في القتل وإصدار القوانين والأحكام المتناقضة ، كانت ست الملك تعترضه ، وتسدى اليه النصح وتحذره من العواقب ؛ فكان يغضب لتدخلها ويردها بغليظ القول واللوم ، ويقصيها عن كل تدخل واشتراك فى الشؤون (١)

وكانت ست الملك ترقب تطورات الحوادث فى جزع وتوجس ، وتخشى أن تنقض العاصفة وتضطرم الثورة ، فتحمل عرش الحاكم ومستقبل الأسرة كله ، ويختم

(١) أخبار الدول المنقطعة (فى فستنفلد ص ٢١٥) ؛ ومرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) فى الجزء المشار اليه ص ٤٠٥ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ و ١٩٥ ؛ ونهاية الأرب ج ٢٦ ص ٦١

عصر المجد والسؤدد في غمر الدماء والشقاء والذلة ؛ وكان الحاكم من جانبه يحقد على ست الملك ، وينقم عليها تدخلها وقارص لومها ؛ وتضيف الرواية الى ذلك أن الحاكم كان يشدد عليها الحجر والمراقبة ، وينعى عليها سوء مسلكها وفضائحها الغرامية ، ويتهمها بتناوب العشاق عليها ، وانه هددها بانفاذ القوابل اليها لاستبرائها ، فكانت لذلك تخشى بطشه وفتكه ؛ وفى اتهام ست الملك بهذه الفضائح ما يدعو الى التأمل ؛ ذلك أنها كانت يومئذ قد جاوزت عهد الشباب ببعيد وأشرفت على الثانية والخمسين من عمرها ؛ ولم تذكر الرواية عنها ما يشينها قط ، بل نراها تجمع على امتداحها ، والاشادة بحزمها وعقلها وكياستها (١) ؛ وإذن فمن المشكوك فيه أن تنحدر هذه الأميرة الفطنة الحازمة ، فى كهولتها الى مثل هذا المسلك المشين ؛ وعندنا أن العوامل السياسية التى أشرنا اليها هى كل شىء فى تلك الخصومة التى ثارت بين الحاكم وأخته ، وهى التى دفعت ست الملك الى طريق الجريمة

وبحثت ست الملك حولها بين العناصر الناقمة ، فوقع اختيارها على سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم كتامة ليكون حليفها ومنفذ مشروعها ؛ وكانت كتامة من بين القبائل المغربية التى شدت بأزر الدولة الفاطمية ، أقواها وأوفرها عصبية وبأسا ؛ وكانت قد فقدت فى ظل الحاكم بأمر الله كثيراً مما تتمتع به من النفوذ ، وكان زعيمها الحسين بن دواس يعيش بعيداً عن القصر ، ويقاطع الحفلات والمواكب الرسمية خشية غدر الحاكم وفتكه ؛ وكان الحاكم يراجعه فى ذلك وينعى عليه مسلكه ، فيزداد إباء وتمسكا ، ويصارح الحاكم بما يخالجه من ريب وجزع ؛ فاتصلت ست الملك سراً بالحسين بن دواس ، وعرضت اليه ما انتهت اليه الأمور من الاضطراب والفوضى من جراء تصرفات أخيها ، وتطرفه وإغراقه ، وانتهاكه حرمات الشريعة والايمان بادعاء الالوهية ، وما يهدد الدولة والاسلام كله من خطر التمزق ، إذا استمر الحاكم فى غيه ، ولم يوضع حد لشنيع تصرفاته وجرائمه ، وأنه لا سبيل الى تدارك الموقف ودفع الخطر غير قتل الحاكم وتولية ولده ؛ فلبى ابن دواس دعوة الجريمة وتعهد بالتنفيذ ، وأخذت عليه الأميرة ميثاقا بالوفاء والكتمان ، وقطعت على نفسها مختلف المواثيق والعهود ، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ و ٢٤٨

الـكلمة العليا فى شؤونها ؛ وعهد ابن دواس بالتنفيذ الى عبدين من أخلص عبيده ، خلعت عليهما ست الملك ووهبتهما مالا وخيلا وغيرها ، وزودتهما بسكينين ماضيين ؛ واتفق على أن يكون التنفيذ في مساء اليوم التالى حينما يخرج الحاكم كعادته ليلا الى المقطم ، ويتوغل فيه منفرداً أو مع اثنين من الركابية فقط ،فعندئذ يتم التنفيذ ويحقق مشروع الجناة بأيسر أمر (١)

— ٢ —

وقد أشرنا فيما تقدم إلى شغف الحاكم بالطواف بالليل ولا سيما فى جنبات المقطم : ولم يكن ذلك الطواف عبثا فقد كان الحاكم كأبيه وأجداده يهيم باستقراء النجوم ورصدها ، وكان يتوغل فى الجبل ويقصد الربى فى مكان يسمى « صحراء الجب » ، وهنالك فى خلوته المنعزلة التى بناها خصيصا لذلك يتأمل النجوم مليا ويحسب طالعها ؛ ففى ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم كعادته للطواف فى الجبل ؛ وتصف لنا الرواية منظراً مؤثراً وقع بينه وبين والدته قبيل ركوبه ؛ فقد ذكر الحاكم لوالدته أنه يتوقع فى الغد قطعا فى طالعه ينذر به ظهور نجم معين وأنه يتوجس من ظهوره ؛ ويخشى أن يصيبها مكروه ولا سيما من أخته ، وأعطى أمه مفاتيح خزانة مليئة بالمال لتحولها الى قصرها ؛ فجزعت أمه وكانت تعبده ويعبدها حبا ، وتضرعت اليه الا يخرج ، فوعدها بذلك ؛ ولبث الحاكم أرقا والضجر يكاد يقتله حتى مضى من الليل ثلثاه : وعندئذ قال لأمه لابد من ركوبى الليلة والا خرجت روحى ؛ ثم ركب فى الحال حماره الأشهب المدعو بالقمر ورافقته بطانته المعتادة ؛ وكان أبو عروس صاحب العسس (كبير الشرطة) يطوف كل ليلة بالقصر مع رجاله وهم يضربون الطبول والبوقات الخفيفة ، فاذا خرج الحاكم تبعه في رجاله حتى أبواب المدينة . وخرج الركب الى الجبل من درب يقال له درب السباع (٢) ؛ ولما وصل الى الجبل رد أبا عروس ورجاله ، ونسيا صاحب الستر والسيف ، ولم يصحبه سوى اثنين من الركابية (٣) ثم سار متوغلا فى شعب المقطم ؛ وكانت اخته ست الملك ساهرة ترقب كل حركاته فى قصرها ، وهو القصر

(١) مرآة الزمان النسخة الفتوغرافية فى الجزء المشار اليه ص ٤٠٦

(٢) سمى كذلك لأن دار السباع كانت تقع فيه وكان موقعه فى طريق القرافة الموصل الى مقبرة الشافعى

(٣) هم الذين يصحبون الركب الخلافى ويعنون بركوب الخليفة والدواب التى يركبها

الصغير أو القصر الغربى المقابل للقصر الخلافى أو القصر الكبير ، فما كادت تعلم بخروجه حتى اتخذت كل اهبتها ؛ وسبق الجناة فريستهم الى المكان المقصود . وهنا تقول الرواية نقلا عن أبى عروس صاحب الشرطة ، إن الحاكم لما وصل الجبل صعد الى رابية مرتفعة ، وتأمل النجوم قليلا ثم ضرب يدا على يد وقال ظهرت يا مشئوم! ثم توغل قليلا فى شعب الجبل ، فاعترضه فى الطريق عشرة من عرب بنى قرة ، والتمسوا منه صلة وإحسانا ؛ فانفذ معهم أحد الركابيين الى صاحب بيت المال ليحقق ملتمسهم ؛ والظاهر أن اعتراضهم للحاكم على هذا النحو لم يكن عفوا (١) واستمر الحاكم فى سيره مع الركابى الآخر حتى المكان الذى يقصده وهو في شرقى حلوان وقد لاح الفجر ؛ فخرج عبدا ابن دواس من مكمنهما ؛ وانقضا عليه وطرحاه أرضا وهو يصيح بهما « ويلكما ماذا تريدان» فقتلاه وقطعا ذراعيه ، وشقا جوفه واستخرجا أمعاءه وقتلا الصبى الركابى ، وقطعا قوائم الحمار ، وحملا أشلاء الحاكم الى سيدهما في كساء ، فرافقهما ابن دواس فى الحال الى ست الملك ، وسلمها الجثة ، فدفنتها فى نفس مجلسها ، وأنعمت على ابن دواس وعبديه بمال وتحف كثيرة ؛ ودعت فى الحال كبير الوزراء خطير الملك أبو الحسين عمار بن محمد وأخطرته بما وقع ، واستحلفته على الكتمان والطاعة ، وأمرته باستدعاء ولى العهد عبد الرحيم بن الياس من الشام ، وأذاعت أن اخاها سيغيب سبعة أيام ، واتخذت كل أهبة لاخفاء الجريمة وتدبير ما يجب لاختيار الخليفة الجديد.

وكان أول هم لست الملك أن تقضى على شركائها فى الجريمة فيذهب سرها معهم إلى الأبد ؛ فلما استكملت أهبتها ، وأخذت البيعة للخليفة الطفل أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله ، وأعلن خليفة مكان أبيه فى العاشر من ذى الحجة (٤١١ هـ) واستوثقت من طاعة كتامة وباقى الطوائف والزعماء ، استدعت ابن دواس وكان يعتقد أنه غدا أعظم رجل فى الدولة ؛ وبينا هو فى بعض أبهاء القصر ، صاح نسيم صاحب الستر فى صبيان الخاص بايعاز ست الملك ، بأن هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه ، فانقضوا على ابن دواس وقطعوه بسيوفهم اربا ؛ ثم قتلوا العبدين

(١) يقول النويرى إن العشرة الذين اعترضوا الحاكم إنما هم عبيد ابن دواس أعدهم لتنفيذ الجريمة ، وانهم سبقوا الحاكم ليلة خروجه الى الجبل ، ثم انقضوا عليه وقتلوه (نهاية الأرب مجلد ٢٦ ص ٥٨)

اللذين ارتكبا الجريمة ؛ ثم دبرت ست الملك أيضا مقتل الوزير خطير الملك بعد ذلك بأشهر قلائل ولم تفر أحدا ممن وقفوا على السر ؛ وتمت هذه الاجراءات الدموية بسرعة وإحكام ، وذهب السر الرهيب مع الجناة الى الأبد (١)

— ٣ —

هذه خلاصة ضافية لما تعرضه الروايات التى انتهت الينا عن مصرع الحاكم بأمر الله ، وعن ظروف المأساة وبواعثها . ولكن القضاعى وهو مؤرخ معاصر تقريباً كتب روايته بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما فقط ، يضيف الى هذه الرواية فصلا آخر فيحدثنا عن خاتمة المأساة ، وكيف اكتشفت آثار الجريمة ؛ فيقول إن الحاكم لما سار فى طريقه الى المقطم ، وبعث أحد الركابيين مع نفر بنى قرة الذين اعترضوا طريقه ، صرف الركابى الآخر عند قبر «الفقاعى» فى وسط القرافة الكبرى . ولما لم يعد الحاكم كعادته في صباح اليوم التالى ، خرج القضاة والأشراف والقواد الى الجبل فبحثوا عن الحاكم حتى آخر النهار ولم يعثروا له على أثر ، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى ؛ وفى اليوم الرابع أعنى يوم الخميس آخر شوال ، خرج مظفر صاحب المظلة ، ونسيم صاحب الستر ، وابن مسكين صاحب الرمح ، وعدة من زعماء الجند والقضاة ورجال الدولة وتوغلوا فى شعب المقطم حتى بلغوا دير القصير ، على مقربة من حلوان ؛ وعكفوا على البحث والتنقيب حتى عثروا بحمار الحاكم الأشهب وقد قطعت ساقاه الأماميتان ، وعليه سرجه ولجامه ؛ فتتبعوا الأثر فاذا أثر راجل خلف أثر الحمار ، وأثر راجل أمامه ؛ فتتبعوا ذلك الأثر حتى وصلوا الى البركة الواقعة شرقى حلوان ؛ فنزلها البعض وعثروا فيها بثياب الحاكم ، وهى سبع

(١) أورد هذه التفاصيل عن مصرع الحاكم كثير من المؤرخين وفى مقدمتهم أبو هلال الصابى وقد كتب روايته بعد الحادث بنحو ثلاثين عاما فقط (راجع هذه الرواية فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ وما بعدها) وكذلك ابو عبد الله القضاعى وكتب بعد الحادث بقليل أيضا (راجع عيون المعارف — مخطوط بدار الكتب ص ١٨١ و ١٨٢) والذهبى (راجع المخطوط بدار الكتب مجلد ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١) وهو ينقل رواية القضاعى ; وابن قزأوغلى فى مرآة الزمان (المخطوط الجزء المشار اليه ص ٤٠٥ - ٤٠٨) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٧ و ١٦٨) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٠٨ و ١٠٩) ؛ وراجع أيضا أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وابن العميد (تاريخ المسلمين ص ٢٥٨) وابن العبرى (مختصر تاريخ الدول طبع اليسوعيين ص ٣١٢ و ٣١٣) ونهاية الأرب (ج ٢٦ ص ٥٨) وابن خلدون (ج ٤ ص ٢٦١ وغيرها)

جباب مزورة لم تحل أزرارها وفيها أثر الطعان ، فعندئذ أيقن الناس بقتله (١)

ثم تقول الرواية إن ست الملك بعد أن استتب لها الأمر وثبت مصرع الحاكم على هذا النحو ، أبدت الحزن عليه ، وأقامت عزاءه بالقصر ثلاثة أيام، ثم استدعت جماعة العرب الذين اعترضوا سبيل الحاكم ليلة الجريمة التماسا للعطاء وطلبت اليهم أن يقولوا ما يعرفون عن مقتل الحاكم ، ووعدتهم بالعفو والاحسان اذا أجابوا والا أعدمو فى الحال؛ فأقسموا جميعا بأن لاعلم لهم بشيء ، فضربت أعناقهم ؛ وتوسلت ست الملك لستر جريمتها بارتكاب جريمة أخرى ، فكانت كما قال الشاعر (٢)

وأهل خباء صالح ذات بينهم قد احتربوا فى عاجل أنا آجله

فأقبلت في الباغين أسأل عنهم سؤالك بالشيء الذى أنت جاهله

على أن هنالك رواية فى شأن هؤلاء الأعراب ينفرد بها الانطاكى، وهو مؤرخ معاصر للمأساة (٣) ، فهو يقول إن الحاكم ليلة خروجه الى المقطم ، ومعه صبى ركابى فقط اعترضه سبعة من البدو ، والتمسوا منه الصلة بجفاء وغلظة ، فأجابهم بانه لايحمل مالا يدفعه لهم ، ولكنه يرسلهم الى متولى بيت المال ابن بدوس ليدفع لهم خمسة آلاف درهم ، فقالوا إنهم لايمضون لأنه لايدفع لهم شيئا ، واشتد الجدل بينهم وبينه ، فطلبوا اليه أن يرسل معهم الصبى الركابى لينجز لهم ما وعد من عطاء؛ وسار الركابى مع أربعة منهم صوب المدينة ، وتخلف الثلاثة الباقون ؛ ثم عاد الركابى بعد أن أدى مهمته يبحث عن سيده فى المكان الذى اعتاد انتظاره فيه ، وطال بحثه دون جدوى حتى لقيه مساح بالجبل ، فسأله وذكر له صفة الحاكم وصفة حماره فأخبره أنه رأى هذا الحمار فى طريقه معرقبا ، وسار معه الى الموضع الذى شهده فيه

وفى صباح اليوم التالى سارت الأميرة ست الملك وجميع الأمراء والقواد الى الجبل يتتبعون أثر الحاكم حتى وصلوا الى دير القصير ، وبحثوا فى الدير وجميع المواضع التى كان يرتادها فلم يقفوا له على خبر ؛ ثم عثروا بعد ذلك بثيابه وفيها آثار

---

(١) راجع رواية القضاعى فى النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ١٩٠ و ١٩١)

(٢) أخبار الدول المنقطعة (المخطوط)

(٣) بدأ الانطاكى كتابة تاريخه حسبما يقرر فى مقدمته سنة ٤٠٥ هـ فى انطاكيه واستمر فى كتابته حتى أوائل عهد الظاهر

الطعان والدماء، ولكنهم لم يجدوا جثته فاستدلوا من ذلك على أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم هم الذين قتلوه ودفنوه فى الجبل وأخفوا أثره

واتجهت مظنة التحريض الى ابن دواس، وكثرت فى حقه الأقاويل ، فعملت ست الملك على استدعائه الى القصر ، حيث قتل ؛ ووجدت ست الملك فى بعض صناديقه السكين التى كان يحملها الحاكم فى كمه ، فثبت لدى الجميع حينئذ أنه هو مدبر الجريمة (١)

وربما كان لهذه الرواية التى ينفرد بها الأنطاكى قيمتها من حيث التفاصيل الجزئية؛ وليس بعيداً أن يكون هؤلاء الأعراب هم القتلة وأن يكون وقوفهم فى طريق الحاكم أمرا مدبرا كما أشرنا الى ذلك فيما تقدم ؛ ومن جهة أخرى فهى تنفى تهمة تدبير الجريمة عن ست الملك وإن كانت تتفق فى اتهام ابن دواس وتخصه بتدبيرها . وإذا كان من الصعب أن نقف عند هذه الرواية وأن نؤثر الأخذ بها دون غيرها من الروايات المعاصرة ، نظرا لانفرادها بهذا التفصيل، فانه مما يدعو الى التأمل أنها ليست هى الرواية الوحيدة التى تنفى تهمة الجريمة عن ست الملك مع اتفاقها فى جوهر الموضوع وهو أن الحاكم بامر الله قد ذهب ضحية المؤامرة والجريمة

— ٤ —

ذلك أن المقريزى أعظم مؤرخى مصر الاسلامية يأبى أيضا أن يأخذ بالرواية العامة ولا يسلم باتهام ست الملك ؛ وهو يعتمد فى ذلك على رواية هامة أخرى فى مصرع الحاكم بأمر الله ينقلها الينا عن عز الملك المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية ووزير الحاكم وصديقه ؛ ونص هذه الرواية هو أنه « فى المحرم سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التى كانت عليه ، فقيل له لم قتلته ؛ فقال غيرة لله وللاسلام ؛ فقيل له كيف قتلته ، فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه وهو يقول هكذا قتلته ؛ فقطع رأسه وأنفذ به الى الحضرة مع ما وجد معه ؛ وهذا هو الصحيح فى

(١) تاريخ الانطاكى ص ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٨

خبر قتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته » (١)

وقد كان المسبحى مؤرخا كبيرا ثقة ، وكان من عظماء الدولة ومن معاصرى الحاكم نفسه . والمرجح أنه وقف بنفسه على كثير من التدابير التى اتخذت عقب اختفاء الحاكم ، وسمع من المصادر الوثيقة كثيرا من الأحاديث التى ذاعت حول مصرعه ؛ وليس ثمة شك فى روايته للواقعة التى ينقلها الينا عن ذلك الرجل المقبوض عليه . ولكن هل قال ذلك الرجل حقا ؟ وهل كان حقيقة من قتلة الحاكم بأمر الله ؟ هذا ما نشك فيه ؛ ومن الصعب أن نعتقد أن رجلا أو رجالا من الكافة يستطيعون أن يدبروا وأن ينفذوا وحدهم مثل هذه الجريمة الهائلة ، فى مثل هذا الخفاء والاحكام ، اللهم الا إذا كانوا مأمورين يعملون لحساب الرؤوس المدبرة ذات القوة والحول ؛ والظاهر أن الرجل المشار اليه كان من الفدائية أو الدعاة الهائمين ، وانه أراد أن يجعل من نفسه بهذه الدعوى بطلا وشهيدا

والمهم فى رواية المسبحى هو أنها تبرىء ست الملك من تبعة الجريمة ، وهى تبرئة يقويها المقريزى بتأييده ؛ وإذن فالرواية تختلف فى شأن ست الملك اختلافا ظاهراً بين الاتهام والنفى ؛ ولكن مما يلفت النظر أنها تتفق جميعا فى أن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية الجريمة والمؤامرة ، وانه توفى قتيلا ، وان لم يسفر البحث عن أى أثر لجثته . ومن الصعب أن يقف المؤرخ عند أحد الرأيين بصورة حاسمة ، بيد أننا نستطيع بتمحيص هذه الروايات أن نستخلص منها ما يحملنا على ترجيح رأى بعينه فى شأن المحرض على الجريمة ومرتكبها

ذلك أن لدينا أربع روايات معاصرة ؛ فابو هلال الصابى والقضاعى يتفقان فى اتهام ست الملك ، وكونها دبرت المؤامرة وقامت على تنفيذ الجريمة بمعاونة ابن دواس ورجاله ؛ ويتفق المسبحى والانطاكى فى تبرئة ست الملك من تبعة هذه الجريمة ؛ والصابى مؤرخ محقق ثقة ؛ واذا كان قد كتب روايته فى المشرق بعيدا عن مصر ، فالظاهر انه نقلها عن نفس المصادر التى نقل عنها معاصره القضاعى ؛ وكذلك الانطاكى فان روايته عن الحاكم وعن الحوادث المعاصرة من أدق الروايات

---

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٧٤ ؛ ولم يصل الينا تاريخ المسبحى وهو تاريخ مصر الكبير ، ولكن انتهت الينا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين حسبما ذكرنا من قبل

وأحفلها ، فاذا كان يغفل الاشارة الى ست الملك فربما كان فى اشارته الى اتهام ابن دواس قرينة غير مباشرة على اتهام ست الملك باعتبارها أقوى شخصية فى القصر يومئذ ؛ وأما المسبحى والقضاعى [1] ، فقد كتب كلاهما فى مصر ، واتصل كلاهما بشؤون الدولة وحوادث العصر اتصالا وثيقا ؛ وربما كانت رواية المسبحى أقرب الى التحقيق ، لأنه كان معاصرا للحوادث نفسها ، وكان وثيق الصلة بالحاكم نفسه وكل شخصيات البلاط يومئذ ؛ ولكن المسبحى كان شيعيا يدين بالدعوة الفاطمية ؛ أفلا تسبغ هذه الصفة بعض الريب على روايته ؟ ثم ألا يمكن أن تكون هذه الرواية ، رواية قصر يغذيها التحفظ والحرص على عدم المساس بشخصيات سامية كانت ماتزال ذكراها مقرونة بالاجلال ؟ والظاهر أن اتباع المقريزى لهذه الرواية يرجع أيضا الى انتمائه الى الفاطميين ، والعطف على ذكراهم ، وميله الى الأخذ بما يبرئهم . أما القضاعى فقد كتب بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما ، فى عصر تضاءل فيه الحرص على الذكرى ، ولم يكن يخشى المؤرخ أن يتمتع فيه بنوع من حرية الرأى والرواية ؛ هذا الى أن القضاعى لم يكن شيعيا بل كان سنيا ، وكان فقيها شافعيا ثقة ، وبذا كان أبعد عن التأثر بنفوذ القصر الفاطمى

وعلى ذلك فربما كانت رواية القضاعى أقرب الروايات كلها الى الصحة ، خصوصا وقد أيدتها رواية معاصرة أخرى هى رواية ابن الصابى ، وأيدها بعد ذلك كثير من الروايات المتأخرة ؛ واذا كنا لانستطيع أن نقف عند جميع شروحها وتفاصيلها فقد نستطيع أن نقف عند حقيقة واحدة ، هى أن الأميرة ست الملك كانت روح المؤامرة ، وكانت هى الرأس المدبر للجريمة ؛ وفى ظروف العصر ، وفى تتابع الحوادث كما شرحناها ، وفيما انتهت اليه سياسة الحاكم الدموية وفوراته المذهبية المغرقة ، من إثارة الأحقاد والحفائظ ودفع الدولة فى طريق الدمار والانحلال ، مايؤيد هذا الرأى ؛ بل لقد كان فيما اتصفت به هذه الأميرة النابهة من قوة الخلال ، والفطنة والحزم ، مايحملها على انتهاج هذا السبيل الدموى لتنقذ دولة تصورتها مشرفة على الانهيار ، وملك أسرة تحرص على توطيده وتخليده

واذا كان لنا أن نحمل على هذه السياسة المكيافيللية الغادرة ، فقد يخفف من

(١) توفى المسبحى فى سنة ٤٢٠ هـ ، والصابى سنة ٤٤٨ ، والقضاعى سنة ٤٥٤ هـ ، ويحيى الانطاكى سنة ٤٥٨ هـ

وقعها، ويشفع في اتباعها مثل الحاكم ذاته ووسائله الدموية المثيرة فى تحقيق أغراض السياسة؛ وقد تبررها قبل كل شيء خطورة الغايات التى اتخذت سبيلا لتحقيقها

— ٥ —

ولما طويت صفحة الحاكم، واستقر فى الأذهان مصرعه، وصفا جو الارجاف الذى ثار حول اختفائه نوعا، اتخذت الأهبة لتولية ولده أبى الحسن على؛ وكانت ست الملك قد غدت منذ مصرع أخيها مرجع السلطان والأمر كله في شؤون القصر والدولة. وجلس الظاهر على كرسى الخلافة فى يوم عيد النحر (عيد الأضحى) فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١ ه أعنى بعد مصرع أبيه بستة أسابيع، ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله. وكان مولده بالقصر الفاطمى فى العاشر من شهر رمضان سنة ٣٩٥ ه، ومن ثم فقد كان في مستهل عامه السابع عشر حينما ولى الملك (١)، وكان الحاكم قد انجب من الأولاد ثلاثة، أبو الحسن على وهو الظاهر، وأبو الأشبال الحارث وقد توفى فى حياته فى ربيع الآخر سنة ٤٠٠ ه (٢)، وابنة تسمى ست مصر (سيدة مصر) (٣)، وكان الظاهر قد حجب مذ ترعرع مع أمه فى قصر عمته خوفا من سطوة أبيه كما قدمنا؛ وكان لعمته عليه أعظم نفوذ وتأثير (٤)

وافتتح الظاهر عهده باقامة مأتم أبيه فى يوم الخميس ٢٠ ذى الحجة سنة ٤١١ ه فجلل القصر بالسواد، واستمر البكاء والعويل طول الليل (٥) وأسبغت بذلك على المأساة صفتها الرسمية، واختتمت فترة طويلة من الهمس والارجاف والريب

وأخذ الظاهر بوحى عمته ست الملك، فى نقض سياسة أبيه تباعا، فألغى أحكام التحريم الصارمة، ورخص للناس فى شرب النبيذ والفقاع، وفى سماع الغناء وتنظيم الملاهى، وفي أكل الملوخيا والسمك وجميع ما حرم الحاكم من قبل؛ بيد أن أعظم خطوة اتخذها فى هذا السبيل هى الغاء سياسة الاضطهاد الدينى، والعود الى سياسة

---

(١) الانطاكى ١ ص ٢٠٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٦٠

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢

(٤) الانطاكى ص ٢٣٥

(٥) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٦١

التسامح الفاطمية التى سار عليها المعز والعزيز من قبل ، فأصدر سجلا الى النصارى واليهود باعلان سياسة التسامح ، وأنهم أحرار فى عقائدهم وفي شعائرهم وأنه لا إكراه فى الدين ، وأن يزيلوا من أنفسهم ما تخيلوه ، ويتحققوا أنهم يحملون على حكم الصيانة والرعاية ، وينزلون منزلة أهل الحياطة والحماية . من آثر منهم الدخول فى الاسلام اختياراً من قلبه وهداية من ربه ، فليدخل فيه مقبولا مبروراً ، ومن آثر بقاءه على دينه من غير ارتداد ، كان عليه ذمته وحياطته، وعلى جميع أهل الملة حفظه وصيانته[1]

وهكذا بدأ عهد جديد من السكينة والسلام ، وتنفس الجميع الصعداء ؛ وأبدى الظاهر اعتدالا وروية ، وكان عاقلا جواداً يجنح الى الحلم والتواضع[2] ، وينبو عن سياسة العنف التى أمعن فيها أبوه ؛ وكان يشغف باللهو والشراب والغناء ، وكثيراً ما يعتكف بالقصر بين مجالى اللهو ، بينما تشرف عمته على تدبير الشؤون بقوة وذكاء وحزم . وفى أوائل عهده ، طورد الملاحدة بمنتهى الشدة ، وقبض على زعمائهم وشيعتهم ، وقتل كثيرون منهم ، وصدرت الأوامر بتتبعهم في سائر الأنحاء ، وأطلق من استتاب منهم ورجع عن غيه ؛ وهرب زعيم الدعاة حمزة بن على ، ولكنه أخذ بعد ذلك ثم قتل حسبما أشرنا الى ذلك فيما تقدم ؛ ورأت ست الملك أن تعيد النظر فى جميع الاقطاعات والمنح التى قررها الحاكم والتى غدت عبئاً ثقيلا على موارد الدولة ، فألغت معظمها وأبطلت كثيراً من الرواتب والأرزاق التى قررت دون حكمة ، وردت ما أبطله الحاكم من المكوس وما تنازل عنه من حقوق الخزينة[3] فانتظمت بذلك مالية الدولة وتحسنت مواردها

ولم يخل عصر الظاهر من بعض أعمال العنف التى اقتضتها بواعث السياسة القديمة ؛ فقد رأت ست الملك أن تقضى على الوزير خطير الملك مدبر الدولة ، إما لأنه كان على علم بشيء من أسرار المؤامرة والجريمة التى أزهق فيها الحاكم حسبما أشرنا الى ذلك من قبل ، واما لأنها خشيت من نفوذه وتأثيره على الظاهر ومن انقياد الظاهر اليه وشغفه بملازمته ومنادمته ، فدبرت مصرعه وقتل فى ربيع الأول سنة ٤١٢ هـ لأشهر قلائل من جلوس الظاهر ؛ وكان ولى العهد السابق عبدالرحيم

---

(١) الانطاكى ص ٢٣٥

(٢) مرآة الزمان الجزء المشار اليه ص ٤٠٩ والانطاكى ص ٢٣٥

(٣) الانطاكى ص ٢٣٧

ابن الياس قد استقدم من دمشق بالحيلة والملاطفة، واعتقل منذ مقدمه، فرأت ست الملك أيضا أن فى بقائه خطرا على العرش ، فدست عليه من قتله ؛ ويقال أيضا إنه مات مسموما من فاكهة مسمومة أرسلت اليه. بيد أن هنالك رواية أخرى بأنه توفى منتحرا بسكين أدخلها فى، بطنه وأن الظاهر حينما بلغه أمره بعث اليه القضاة والشهود فاثبتوا اعترافه ؛ وكان مصرع ولى العهد فى أواخر سنة ٤١٤ هـ قبل وفاة ست الملك بقليل (١)

ونمى الى ست الملك أن عزيز الدولة فاتك الوحيدى والى حلب ينوى الخروج والعصيان والاستقلال بحكم المدينة، فلجأت الى مصانعته وأرسلت اليه خلعا وأموالا ودست عليه فى نفس الوقت غلامه بدرا ليدبر مقتله، وبذلت له وعودا كبيرة؛ ونفذ بدر جريمته على يد فتى هندى كان يهواه فاتك ، فطعنه الفتى أثناء سكره فى بعض مجالس أنسه واستأسر بدر بعد مصرع سيده بحكم المدينة وأقرته ست الملك على ولايته (٢)

وعنيت ست الملك أيضا بأمر السياسة الخارجية فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا الى باسيل الثانى قيصر قسطنطينية ، ليعمل على عقد أواصر التفاهم ، والصداقة بين الدولتين ، ويقفه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الاجراءات لتحرير النصارى ورفع الارهاق عنهم وحمايتهم فى أنفسهم وأموالهم ، وتجديد الكنائس ولاسيما كنيسة القيامة ، وما ترجوه مصر من عقد السلم والتفاهم مع الدولة البيزنطية واستئناف العلائق التجارية معها ؛ ولكن هذه السفارة لم تثمر ثمرتها لأن ست الملك توفيت قبل أن يوفق البطريرك الى أدائها (٣). بيد أن الهدنة المنشودة عقدت بين الدولتين بعد ذلك بأربعة أعوام (سنة ٤١٨ هـ) وأعيد المسجد بقسطنطينية كما أعيدت كنيسة القبر المقدس (٤)

وبقيت هذه الأميرة القوية النابهة منذ مصرع أخيها ، مدة ثلاثة أعوام ، تسهر على مصاير الدولة ، وعلى توطيد دعائمها ، وتوجيه شؤونها بفطنة وبراعة ؛ ثم توفيت فى أواخر سنة ٤١٤ هـ ، وقد بلغت الخامسة والخمسين (٥)

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٣ و ١٩٤

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٥

(٣) الانطاكى ص ٢٤٤

(٤) المقريزى ج ٢ ص ١٦٩

(٥) هذه رواية الانطاكى ، وفى رواية أخرى انها توفيت سنة ٤١٥ هـ

الفصل العاشر

معترك الأساطير

غموض المأساة . روايات من نوع آخر . الرواية الكنسية المعاصرة . رواية أبى صالح الأرمنى . رواية ابن العبرى . قصة شروط شبيه الحاكم . مدلول هذه الروايات . أسطورة قبطية عن مصير الحاكم . عقلية الكنيسة فى هذا العصر . عصر الاضطهاد والمعجزات . الروح الذى أملى على الكنسية مزاعمها . نظرية الاختفاء . بعض قرائن تدلى بها . الشك فى مصرع الحاكم . مزاعم الدعاة الملاحدة . السجل المعلق على المشاهد . كيف يستعرض حمزة أعمال الحاكم ويعللها . مايقوله عن بواعث اختفائه . تبشيره برجعته . القيمة التاريخية لهذا السجل . إغفال الرواية لذكره . رسالة الغيبة . مايقوله الداعى عن غيبة الحاكم . استغلال الدعاة لهذا الزعم . اتخاذه أصلا من أصول مذهبهم . تصويرهم الخرافى لرجعة الحاكم . إشارة حمزة الى هذه الرجعة . اشتقاق هذه النظرية من فكرة المهدى المنتظر . قولهم فى رجعة على وبنيه . هل للدعاة يد فى اختفاء الحاكم أو فى مصرعه ؟ رأى المستشرق ميلر . رجحان نظرية المؤامرة والجريمة . فتنة سكين الداعى

لم يكن اختفاء الحاكم فى تلك الليلة الشهيرة ، ليلة السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ هـ ، واجتماع مختلف القرائن والآثار على مصرعه بيد الجناة خاتمة حاسمة لعهده وسيرته وذكراه . أجل أعلنت وفاة الحاكم ، وأقيم ولده أبو الحسن على مكانه فى كرسى الخلافة ، وذلك يوم النحر (عاشر ذى الحجة سنة ٤١١ هـ) لأسابيع قلائل من اختفائه ، ولقب الظاهر لاعزاز دين الله ؛ وبدأت الخلافة الفاطمية عهداً جديداً ؛ ولكن ذكرى الخليفة الذاهب لبثت تغمر الأفق مدى حين ، وتثير فى المجتمع مختلف الفروض والأساطير . ذلك أن أدلة الجناية لم تكن واضحة ، ولم يقم دليل قاطع على القتل أو الوفاة ؛ ومن جهة أخرى فان الحاكم بأمر الله لم يكن فيما زعموا ، شخصية عادية يغمرها العدم كما يغمر سائر البشر ، وتطوى آثارها من ذلك العالم لتغيض فى العالم الآخر بتلك البساطة التى أحاطت باختفائه . ألم يكن الحاكم شخصية خارقة تهيم فى الخفاء ، وتزعم الاتصال بعوالم الغيب ، وترنو الى مدارك السمو فوق البشر ؟ ألم يقدمه الدعاة السريون الى الناس بأنه « ناطق الزمان » وأنه الله

وروح حل في صورة البشر ؟ وهل من كانت هـذه خواصه ومزاعمه يسرى عليه قانون الفناء كما يسرى على جميع الناس؟

لقد أجمع معظم الروايات المعاصرة والمتـأخرة كما رأينا على أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة على اختـلاف بينها فى مدبرى المؤامرة ومرتـكبي الجريمة ، ولـكن هذه الروايات ليست كل شيء فى تلك المأسـاة العجيبة ؛ فهنالك طائفة أخرى من روايات ذات نوع خاص ودلالة خاصـة لا تأخذ بنظرية المؤامرة أو الجريمة ؛ ولـكنها تؤيد فـكرة الاختفاء العمد والهجرة الأبدية ، وتسبغ بذلك على ذهاب الحاكم لونا من الخفاء الغامض ، كذلك الذى يغمر شخصيته وحياته كلهـا ؛ وإذا كانت هذه الروايات تجنح فى مجموعها الى نوع من الأسطورة ، فأنها مع ذلك تدخل فى عداد التاريخ وتستحق الدرس بهذه الصفة ، خصوصاً وأن ما تقدمه الينا من التفاصيل والوقائع ليس في ذاته مستحيلا ولا خارقاً

وأول رواية من هذا النوع رواية كنسية كتبت في عصر الحاكم ذاته ، ووردت ضمن سير البطاركة ، أو سير البيعة المقدسة في ترجمة الأنبا زخاريا البطريرك القبطى المعاصر للحاكم ؛ وخلاصتها ، أن الحاكم خرج الى الجبل ذات ليلة ، وسار فى الجبل ومعه ركابى واحد الى أن بلغ حلوان ، ثم نزل عن حماره ؛ وأمر الركابى أن يعرقبه ففعل ، ثم أمره بالانصراف الى القصر وتركه بمفرده ، فعاد الركابى كما أمر ؛ فلما لم يعد الى القصر فى اليوم التالى سأل رجال القصر هذا الركابى عن سيده ، فأجابهم بأنه تركه فى حلوان ، وعاد وحـده نزولا على رغبته ، فمضوا فى طلبه ، فوجدوا الحمـار معرقباً ، وبحثوا عن الحاكم فى كل موضع ، فلم يجدوه ولم يقفوا له على خبر أوأثر[1]

ووردت في تاريخ الـكنائس المنسوب لأبى صالح الأرمنى ، والذى كتب فى أواخر القرن السادس الهجرى رواية مماثلة نصها : « وبهذه الناحية (أى حلوان) نزل الامام الحاكم بأمر الله عن الحمـار الذى كان راكبه ؛ وتقـدم الى الركابى الذى كان يصحبه الى حيث يذهب بأن يعرقب الحمار ، وذهب هو وحده الى داخل البرية ولم يرجع يعود ، ولا عرف أين توجه الى يومنا هذا ، وكان ذلك فى سنة إحـدى عشرة وأربعمائة » [2]

---

(١) وردت هذه الرواية الـكنسية بتفاصيلها التى أوردناها فى المخطوط الـكنسى الذى سبقت الاشارة اليه

(٢) تاريخ أبى صالح الأرمنى ص ٥٢ ب

ويشير مؤرخ نصرانى آخر، هو ابن العبرى الذى كتب تاريخه فى أواخر القرن السابع الهجرى الى مثل هذا الرأى، فيقول فى حوادث سنة ٤١١ هـ : « وفيها فقد الحاكم بن العزيز بن المعز العلوى صاحب مصر، ولم يعرف له خبر »، ثم ينقل قصة طوافه ومصرعه عن رواية القضاعى التى أوردناها فيما تقدم، وذلك على سبيل الرواية والترديد فقط (١)

وتقول الراوية الكنسية أيضا، « ولم تزل الناس مدة غيبة الحاكم والى أن انقضى مدة ولده يقولون إنه بالحياة. وكثير كانوا يتزيون بزيه ويقول كل واحد منهم أنا الحاكم، يتراءون للناس فى الجبال حتى يأخذوا منهم الدنانير» ثم تروى لنا قصة رجل يسمى « شروط » كان نصرانيا وأسلم ثم تعلم السحر والشعوذة، وكان يشبه الحاكم شبها عجيبا، ولو أنه أطول منه بقليل؛ فلما اختفى الحاكم ظهر فى الناس باسم « أبى العرب »، وادعى أنه الحاكم، والتف حوله بعض الناس، وكان يطالب الأغنياء بالمال، ويقول لهم إنه سيعيده إليهم عند رجعته الى مملكته؛ ثم استتر طيلة عهد الظاهر، وهو مستمر على دعواه حتى اعتقد كثير من الناس أنه الحاكم، وأنه يخفى نفسه لأمر مكتوم لايعرفه سواه؛ وفى أوائل عهد المستنصر نزح الى البحيرة ونزل عند بعض البدو، وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب واستمر فى دعواه أنه الحاكم وأنه يعتزل الحياة العامة حتى ينتهى قطع طالعه الذى يخشاه؛ ولما ذاع أمره، واهتمت السلطات بمطاردته توارى عن الأنظار، ولبث مختفيا حتى عرف بأمره البطريرك سانونيوس، وأنفذ اليه مالا وتعهده بعونه ورعايته (٢)

وأول ما يلفت النظر فى هذه الرواية الكنسية هو أنها لاتشير أية اشارة الى فكرة المؤامرة أو الجريمة، بل لا تشير مطلقاً الى فكرة الوفاة، ولكنها تميل فى مجموعها الى تأييد فكرة الغيبة والاختفاء، وتستأنس فى ذلك بالاشاعات والأساطير التى ذاعت فى ذلك الشأن منذ اختفاء الحاكم، واستمرت ذائعة أيام ولده الظاهر

على أن الرواية الكنسية لاتقف عند ذلك الحد؛ ذلك أن ابن العبرى يحدثنا عن مصير الحاكم بعد اختفائه، ويقول لنا إن كثيرا من الناس اعتقدوا حين اختفائه

---

(١) مختصر تاريخ الدول ص ٣١٢ و ٣١٣

(٢) المخطوط الكنسى المشار اليه

أنه لجأ الى مكان بالصحراء واعتنق النصرانية ، ثم ترهب وقضى أيامه هنالك ؛ ثم يقول إنه ، أى المؤرخ ، حينما كان بدمشق سمع بعض كتاب الأقباط يقولون إن الحاكم حينما اشتد في مطاردة النصارى ظهر له يسوع المسيح كما ظهر لبولس الرسول فآمن به ، وتوارى سراً فى الصحراء حتى توفي (١)

ومما يجدر ذكره أن هذه الأسطورة - أى أسطورة تنصر الحاكم وترهبه - ليست هى الأولى من نوعها ، فقد نسب جده المعز لدين الله الى مثل ما نسب اليه ، وزعمت الرواية الكنسية أن المعز تأثر بما شهده من معجزة نصرانية هى تحرك جبل المقطم لدى صلوات الأحبار النصارى وتضرعاتهم ، فنزل عن الخلافة لولده العزيز وتنصر وترهب ، ودفن باحدى الكنائس (٢) ؛ ويجب لكى نقدر مغزى هذه الروايات الكنسية أن نذكر الظروف التى نشأت فيها ، وأن نذكر موقف الكنيسة القبطية ونفسية المجتمع النصرانى فى عصر الحاكم بأمر الله ؛ فقد عانت الكنيسة وعانى النصارى فى هذا العصر ضروبا مرهقة من الاضطهاد المادى والمعنوى ، وجازت الكنيسة شر محنة نزلت بها منذ عصر الاضطهاد الرومانى ، فهدمت بيعها وأديارها ، ونهبت أموالها ، وبدد تراثها المقدس ، وثل الأحبار كل هيبة ونفوذ ، وامتحن الكثير منهم ، وعانى المجتمع النصرانى من القوانين والفروض الجديدة شر ما تعانيه أقلية مضطهدة من ضروب العسف والذلة والارهاق ؛ ومن ثم فان الروايات الكنسية المعاصرة تصورلنا هذا العصر ، عصر استشهاد للكنيسة ورعاياها وتحدثنا فى مواطن عديدة عن مختلف المعجزات النصرانية التى ظهرت في هذا العصر والتى كانت الكنيسة تستمد منها العزاء والصبر على مغالبة المحنة ؛ ومنها قصة فتى مسلم يسمى ابن رجاء تأثر بمعجزات المسيح فتنصر وترهب ، ورسموه قديساً باسم بولس ولقبوه بالواضح ؛ ومنها قصة أبى نجاح النصرانى ، وكان من أعيانهم وأكابرهم ، فأراد الحاكم أن يرغمه على الاسلام فأبى فأمر بجلده حتى توفى ، وزعمت

(١) لم ترد هذه الرواية فى جميع التراجم العربية التى انتهت الينا من تاريخ ابن العبرى ؛ ولكن الظاهر أنها وردت فى الأصل السريانى . وقد كتب ابن العبرى تاريخه بالسريانية ثم ترجم بعد ذلك ؛ وأوردها المستشرق دى ساسى فى كتابه Religion des Druses ; I. p. 417

(٢) كتاب الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٢٤٨ . وراجع كتابى «مصر الاسلامية» ص ٧٨ وما بعدها

الأسطورة أن الماء كان يقطر من لحيته أثناء ضربه ، وأن المسيح ظهر له وتولى سقايته أثناء تعذيبه ؛ وقصة الرئيس فهد الوزير ، فقد قتله الحاكم لأنه أبى الاسلام ، وأمر باحراق جثته ، ولكن النار لم تؤثر فيها ؛ وقصة البطريرك زخاريا فقد اعتقله الحاكم وطرحه للسباع لتأكله ولكن نفرت منه ولم تمسه بأذى (١) ؛ وغير ذلك من الخوارق المزعومة التى تدل على روح الكنيسة وعقليتها فى هذا الظرف العصيب ، وعلى جنوحها الى الاستعانة بسيل من الأساطير والمعجزات الجديدة لتأييد هيبتها المقوضة ، وتقوية نفوس رعاياها والمؤمنين بقدرتها وسلطانها

فهل نعجب اذا كانت الرواية الكنسية تحدثنا عن مصير الحاكم بأمر الله بهذا الروح ذاته ، فتحيط هذا المصير بأسطورة من أساطيرها ، وتضيف بذلك معجزة الى معجزاتها ؟ إن فى تقديم الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمى ، فى ثوب النادم المستتيب ، يبدو له المسيح ، فيرتد عن دينه ويعتنق النصرانية ، ثم يترهب ، ويقضى بقية حياته فى بعض الأديار النصرانية ، لأعظم معجزة تقدمها الكنيسة الى المؤمنين وأعظم ظفر تستطيع أن تصوره لرعاياها فى هداية ذلك الذى أنزل بهم شر البلايا والمحن أعواماً مديدة ، ثم انتهى به المطاف الى أن غدا جندياً من جند المسيح . إن هذه الخاتمة لأعظم عقاب للآثم ، وأعظم ترضية للكنيسة والمؤمنين ، وأبلغ انتقام يمكن أن تنزله الكنيسة بخصيمها

— ٢ —

ولا ريب أن التاريخ لا يمكن أن يحفل بمثل هذه الأسطورة التى لم يؤيدها أى دليل أو أية قرينة سوى الرواية الكنسية التى تنفرد بترديدها ، والتى تنم فى الحال عما وراءها من الغايات والبواعث ؛ بيد أن هنالك في الرواية الكنسية الأولى شيئاً واحداً يمكن الوقوف به ، وهو ماتنوه به من اختفاء الحاكم أو غيبته دون الاشارة الى مصرعه بصورة من الصور . ذلك أن هذه النظرية - نظرية الاختفاء - لم تكن دون صدى في حوادث العصر ووثائقه . واذا استبعدنا فكرة المؤامرة والجريمة مدى لحظة ، واستبعدنا ما ينسب الى الأميرة ست الملك من أنها هى التى دبرت مصرع أخيها على الوجه الذى بسطنا ، فان الحوادث والقرائن الأولى التى

(١) راجع المخطوط الكنسى المشار اليه

عقبت ليلة السابع والعشرين من شوال تسبغ على فكرة الاختفاء مسحة من الاحتمال. ذلك أن مصرع الحاكم أو وفاته لم يكن أول ما خطر لرجال القصر والدولة ، بل كان أول ما خطر لهم فكرة الغيبة ، فخرجوا فى أثر الحاكم عدة مرات يبحثون عنه ويستقصون أثره قبل أن يؤمنوا بمصرعه ؛ ولبث الكرسى الخلافى شاغراً مدى ستة أسابيع حتى يوم عيد النحر (العاشر من ذى الحجة) ، ولم يناد بالخليفة الجديد حتى استقر لدى رجال الدولة أن الحاكم قد لقى حتفه بصورة من الصور أوعلى الأقل قد ذهب الى غير ماعودة ؛ بيد أن فكرة مصرعه مهما كانت الصورة التى صورت بها ، ومهما كان الذين نسب تدبيرها أو تنفيذها اليهم ، لم تكن فيما يبدو من روايات العصر وأحاديثه ، حقيقة مقررة ، ولم تكن رأى السواد الأعظم من الناس . بل لقد أشارت بعض الروايات التى سلمت بمصرع الحاكم الى صدى هذا الشك فى مقتله ، فنرى ابن خلكان مثلا يقول فى ترجمة الظاهر ولد الحاكم ماياتى : « وكانت ولايته بعد أبيه بمدة ، لأن أباه فقد فى السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ؛ وكان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره الى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر » (١)

هذا وقد ألفى الدعاة الملاحدة ، أعنى حمزة بن على وصحبه . فى اختفاء الحاكم فرصة لاذكاء دعوتهم وتغذيتها ، واتخذوا من هذا الاختفاء وظروفه الغامضة مستقى جديداً للزعم والارجاف ؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت ، ولكنه اختفى أو ارتفع الى السماء ، وسيعود عندما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلا ، وأضحى هذا الزعم أصلا مقرراً من أصول مذهبهم . وقد انتهت إلينا فى هذا الزعم ، أى زعم الغيبة والرجعة ، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن على ذاته ، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه ، واليك ماجاء فى تلك الوثيقة الهامة التى تقدم رغم غرابة شروحها ومزاعمها الى المؤرخ مادة للتأمل :

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان « نسخة السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد في غيبة مولانا الامام الحاكم » وهى التى يفتتح بها رسائله فى متن الدعوة وأصولها حسبما نذكر بعد

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٣

ويؤرخ الداعي هذه الرسالة بشهر ذى القعدة سنة ٤١١ هـ، أعنى عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتتحها بدعوة الناس الى المبادرة « بالتوبة الى الله تعالى والى وليه وحجته على العالمين وخليفته فى أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين » وأنه قد سبق إليكم، أعنى الى الناس « من الوعد والوعظ والوعيد من ولى أمركم وإمام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة باريكم وخليفته، الشاهد عليكم بموبقاتكم، وجميع مااقترفتم فيه من الاعذار والانذار، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى، وجاهد نفسه عن الهوى، وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم فى وادى الجهالة تسبحون، وفى تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذى كنتم به توعدون »

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على النــاس نعمه ولم يفر عليهم شيئاً منها، ولم يبخل عليهم بجزيل عطائه، ولم يشاركهم فى شىء من أحوال هـذه الدنيا « نزاهة عنها، ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق فى حكمته، وهو سلام الله عليه أعلم به ؛ فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ما لم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم . . . ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ؛ بل منة منه عليكم ولطفا بكم ورأفة ورحمة، واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا، ولتعرفوا قدر ما خصكم به فى عصره من نعمته وحسن منه وجميل لطفه وإحسانه، وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم »

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم من الذهب والفضة والخيل المسومة والاقطاع والضياع، ورفعهم الى ذرى المراتب، وشرفهم بأرفع الألقاب، حتى غدوا سادة يحكمون ويطاعون، وعاشوا فى نعماء ورغد، فأقبلوا على الدنيا واعتزوا بها، وظنوا أنها سبيل الفوز فى الآخرة، وتظاهروا بالطاعة في حين أنهم متمسكون بالمعصية. ثم يقول الداعى :

« ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الاسلام والايمان، التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وظهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان، وميزتم من عبدة الأوثان، وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم . . . وانقادت الذمة إليكم طوعا وكرهاً فدخلوا فى دين الله أفواجا ؛ وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها، وأقام الحج والجهاد، وعمر بيت الله الحرام، وأقام دعائم

الاسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وخفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار ، وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة الصدقات ، وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً ، وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، فشيئتم العلم والحكمة وكفرتم الفضل والنعمة ، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنو اسرائيل في قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته وأظهر لكم الحكمة وفتح لكم خارج قصره دار علم حوت من جميع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب في الحلال والحرام والقضايا والأحكام . . . وأمدكم بالأوراق والدواة والحبر والأقلام ، لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون . . . »

ثم يقول حمزة بعد أن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو إنهم أى الناس ، لم يزدادوا إلا ضلالا وإنما وتمادوا فى غيهم وفجورهم ؛ وينعى على الناس هذه النازلة الأليمة ويحذرهم من عواقبها ، ثم يقول مشيراً الى اختفاء الحاكم : « فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه من عظم اسراف الكافة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم ، قال الله ذو الجلال والاكرام : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وعلامة سخط ولى الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى . فمن دلائل غضب الامام غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ، ومنعه عن الكافة سلامه ، وقد كان يخرج اليهم من حضرته ، ومنعهم من الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم في الأعياد وفى شهر رمضان ، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الأذان ولا يذكرونه ، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب ، وانهاؤه جميعهم من الترجل عن ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم ، وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون . . . » ومن ثم « فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى الذى آثروه على الهدى »

ويختتم الداعى رسالته الغريبة بتكرار الدعوة الى التوبة والاستغفار ، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم الى الطريق التى سلكها أمير المؤمنين « وقت أن استتر » وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم ، وأن يطهروا قلوبهم ، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين ، وأن يتوسلوا اليه بالصفح والمغفرة وأن يرحمهم بعودة وليه اليهم ... « والحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً ، ولا تبرحوا فى طريق يتوسل جميعكم ... فاذا أطلت عليكم الرحمة خرج ولى الله أمامكم باختياره راضياً عنكم ، حاضراً فى أوساطكم ، فواظبوا على هذا ليل نهار قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر ... الخ »

ويؤرخ الداعى رسالته بذى العقدة سنة إحدى عشر واربعمائة ، وينعت نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين ، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها (١)

وهذا السجل يعتبر وثيقة مدهشة ، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها ، ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى ، واذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعى يصدر فيه عن إيمان حقيق ، فانه ينم على الأقل عن براعة الداعى فى عرض ما يريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مدهشة ؛ هذا الى أن هذا « السجل » يعتبر وثيقة تاريخية هامة بما يقدمه الينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة فى بادىء عهده ثم فى خاتمته

على أنه مما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الاسلامية والنصرانية ، المعاصرة والمتأخرة ، لا تشير أية إشارة الى هذا « السجل » الذى يقول لنا الداعى انه وجد معلقاً على المشاهد ، ولو وقعت مثل هذه العلانية فى اذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الاشارة اليها ، ولعل الدعاة حاولوا اذاعته فلم يفلحوا ، وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة عقب مصرع الحاكم كما رأينا فلاذوا بالاختفاء والاستتار ، وأصدر الظاهر ولد الحاكم سجله الشهير بالتبرؤ من تلك المزاعم الخارقة حسبما نذكر بعد

والى جانب هذه الوثيقة التى كتبها حمزة بن على عقب اختفاء الحاكم ، والتى يحاول

---

(١) لم يرد هذا السجل فى مجموعة دار الكتب والتى لدينا منها نسخة فتوغرافية (وهى محفوظة برقم ١٣٣ عقائد النحل) إذ ينقصها من أولها عدة أوراق ولكنه ورد فى مخطوط باريس ؛ ومنه لخصنا ونقلنا ما تقدم ، ثم وفقنا أخيراً الى الحصول على نصه الكامل . وسننشره فى نهاية الكتاب فى قسم الوثائق

فيها أن يعلل هذا الاختفاء وأن يشرح بواعثه ، وأن يطمئن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه ، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة عنوانها « الغيبة » تمس نفس الموضوع من ناحية أخرى، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أشهر عن لسان قائم الزمان (أى الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول ، والظاهر أن كاتبها هو المقتنى أحد أكابر الدعاة وأحد « الحدود الخمسة » حسبما نوضح بعد ؛ وقد وجهت الى أهل الشام خاصة ، وفيها يذكرهم قائم الزمان بالعهد الذى قطعوه ، ويحذرهم من الدجال الذى يزعم أن الألوهية انتقلت اليه ، والذى عاند الموحدين وحاصرهم ، ويقول ان الدين لا يصح الا عند الامتحان ، ثم يخاطب الموحدين بقوله :

« معشر الموحدين ، اذا كنتم تتحققون أن مولاكم لاتخلو الدار منه وقد عدمته أبصاركم . . . واذا فسدت المعدة ضرت البصر ؛ فهكذ اذا كانت المادة واصلة الى النفوس الصحيحة ، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً، واذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأنس وشرائعهم فيفسد النظر وما ينظر الا بشر

« واعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود سبحانه وتنزه عن الحد والمحدود أن قائم زمانكم يطالبكم ، وقد شهدتم في مواثيقكم بعضكم على بعض، بما شرطتموه على نفوسكم ... » (١)

ثم يشير الى أن كثيراً من الموحدين ارتدوا عما كانوا أقروا به وهو الاعتراف بألوهيته ، ويحذرهم من سلوك هذا الطريق ؛ ويشير الى « الدجال » ويقول إنه قتل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم ؛ وإن المولى غنى عن عبادتهم ، وانما هى أعمالهم ترد عليهم . ثم يقول : « ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه .. معشر الاخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم »

ويلوح لنا أن هذا « الدجال » المشار اليه فى هذه الرسالة انما هو عبد الرحيم ابن الياس ولى العهد ، ووالى الشام ؛ فقد اشتد فى مطاردة الدعاة ، حينما ظهرت دعوتهم بالشأم ، وفتك بكثير من أتباعهم وأنصارهم ، وهو ما تشير اليه الرسالة

تلك هى النظريات والشروح الغريبة التى لجأ اليها الدعاة السريون لتفسير اختفاء

---

(١) وردت هذه الرسالة فى المجموعة المحفوظة بدار الكتب برقم ٥٤ عقائد النحل ، والمجموعة المحفوظة برقم ٢٠ عقائد النحل مع شرح لها

الحاكم وغيبته : ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائى كان ضربة شديدة للدعاة ؛ فقد كان الحاكم ملاذهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم : فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة فى مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة فى مختلف الأنحاء اتقاء المطاردة ؛ ولكن الدعاة ألفوا في هذا الظرف ذاته مستقى جديداً لدعوتهم ؛ فقد اختفى الحاكم ولكن الى رجعة ، وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى ؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عند ما تحل الساعة ؛ ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمعنوا فيه من الآثام والخطايا ، ولن يظهر الا عند ما تصفو قلوب المؤمنين وتصفو نياتهم ؛ وفى هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو في السماء أو فى الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده «وإنه ليراهم من حيث لا يرونه» !

هذا وقد مضى الى اليوم على مصرع الحاكم تسعمائة وخمسة عشر عاما ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ماهنالك أن حمزة يقول للمؤمنين فى رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولى الله إمامهم باختياره راضياً عنهم حاضراً في أوساطهم . . . » ويكرر الدعاة هذه الأشارة الغامضة الى مثول الحاكم ورجعته في رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التى أشرنا إليها ، فيقولون : «إن مولاكم لا تخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم » « إن مولاكم يراكم من حيث لاترونه » « أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ماقد غطاها من سوء ظنكم » وأمثالها من الاشارات والعبارات الرمزية الغامضة . وخلاصة مزاعمهم في ذلك هو أنه متى حلت الساعة ، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين ، ويقصدون الى مكة فى كتائب جرارة ، وفى غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليمانى من الكعبة ، وهو يشهر بيده سيفاً مذهباً ، ثم يدفعه الى حمزة بن على فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس ؛ ثم يدفع حمزة السيف الى محمد «الكلمة» وهو أحد الحدود الخمسة ، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ويسحقون المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض ، ويملكون العالم الى الابد ، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم ؛ ويفترق الناس عندئذ الى أربع فرق : الأولى الموحدون وهم « العقال » أو « العقلاء » ،

والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود ، والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة ، والرابعة المرتدون وهم « الجهال » « الجهلاء » ؛ ويعمد حمزة الى اتباع كل طائفة غير الموحدين فيدمغهم في الجبين أو اليد بما يميزهم من غيرهم ، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة ؛ وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصبحون أرباب السلطة والمال والجاه فى سائر أنحاء الأرض (١)

والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة فى سحق أبناء الأديان الأخرى مستمدة من أقوال حمزة ذاته فى رسالته المسماة « النهاية والبلاغ فى التوحيد » إذ يقول : « وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدى ، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين ؛ والذى يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون ، ويلبسوا الغيار وهم كارهون » (٢)

تلك هى نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم فى غيبة الحاكم وفى رجعته ، وهى نظرية في منتهى الاغراق والجرأة ؛ بيد أنه لاريب فى سخفها ؛ وقد ألفى الدعاة بعد انهيار دعوتهم فى مصر ، ملاذا لهم في الشام ، فوجهوا اليها أنظارهم ، وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك ، ومازالت ثمة بقية من شيعتهم الى يومنا وهم طائفة الدروز.

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا فى نظريتهم الجديدة ؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة هى فكرة بعض غلاة الشيعة فى المهدى المنتظر ؛ ومنذ عصر على بن أبى طالب تتبوأ هذه الأسطوة مكانها ؛ ويزعم هؤلاء الغلاة ، وهم الرافضة ، أن عليا لم يمت ، ولكنه حى غائب عن أعين الناس مستقر فى السحاب ، صوته الرعد ، والبرق سوطه ؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول فى ابنه محمد بن الحنفية ، وانه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز ؛ ويقول آخرون وهم الاثنا عشرية إن هذا الامام المنتظر هو محمد بن الحسن العسكرى (وهو أيضا من ولد على) وانه لم يمت ، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار ، ولا يزال مختفيا الى

---

(١) لخصنا هذه الشروح الأخيرة عن كتاب مخطوط عن طوائف لبنان لم يعرف مؤلفه وهو محفوظ بدار الكتب رقم ١٦ م

(٢) توجد هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب (رقم ١٣٣ عقائد النحل) ، وسنعود الى استعراض محتوياتها بعد

آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (١)

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الاسطورة القديمة ؛ وقد كانت هذه الأسطورة ، أعنى أسطورة الغيبة والرجعة ، وما يكتنفها من الرموز والغموض ، مبعث الخفاء دائما ؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع فى المجتمعات الساذجة المؤمنة ؛ وكان مبعثا لا كثر من دعوة بالنبوة والامامة ؛ بل كان مبعثا لدعوى الالوهية ذاتها ؛ أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيض الحاكم على هذا النحو الى حيث لا يعلم أحد ؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء فى تأييد دعوتهم وأن يبثوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع لذكرى ذلك الذى اختفى ليعود حين تحين الساعة ؛ « والذى يرى ولا يُرى »

على أن هناك نقطة غامضة فى موقف الدعاة إزاء هذا الاختفاء إذا سلمنا بأن الحاكم اختفى ولم يقتـل ؛ ذلك هو الدور الذى يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة فى هذا الاختفاء ذاته . فهل للدعاة يد ما فى هذا الاختفاء ؟ وهل دبروه أو اشتركوا فى تدبيره ؟ أليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين أقنعوا الحاكم بان يختفى تقوية للدعوة ، وتمكينا للزعم بألوهيته لدى الأولياء والكافة ؟ بل نستطيع أن نتساءل أيضا ، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا فى اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم وأنهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا فى تدبيرها واستطاعوا أن يحكموا تدبير جريمتهم لكى يستغلوا بعد ذلك فكرة الاختفاء على النحو الذى أسلفنا ؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن فى مثل هذا الموطن ، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجتراء ، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترأوا على زعم الالوهية البشرية وسفكوا فى سبيلها دماء الأبرياء ؛ بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام المطبق ، ولا يقـدم التاريخ إلينا عنها أية لمحـة أو ضياء ، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة ، وستبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً

بيد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها الى دوائر البحث الحديث . فنرى المستشرق ميللر مثلا يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم ويعلق عليها بما يأتى : « أما ان أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل ، فهو حـديث خرافة ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ١٦٥

والواقع أن مصيره لم يعرف قط ، وعندى أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته ، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه فى مصر ، فاعتزل الحياة واختفى فى مكان ما ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار لكى يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو « الناطق » حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الامام أو المهدى ؛ وهذا ما لا يزال ماثلا الى اليوم فى عقائد الدروز »(١)

أما نحن فما زلنا نرجح نظرية المؤامرة والجريمة : وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك ، أم من تدبير ابن دواس ، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم ، وسواء أكان الذى ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس ، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه ، أم آخرون لم يعرفوا ؛ وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هى التى أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة ، فان ما لدينا من الروايات والقرائن على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة ، يرجح في نظرنا كل فرض آخر مما استعرضنا

وليس من المستحيل أيضا ، أن يكون الحاكم قد اختفى من تلقاء نفسه أو بتحريض الدعاة لبواعث أو مشاريع خيالية أو جنونية قامت فى نفسه ؛ بيد أن هذا الفرض يبدو فى نظرنا من الضعف والإغراق بحيث لانجد له موضعاً من التاريخ

* * *

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بأمر الله لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله ، أعنى بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن ، وقد أشرنا فيما تقدم الى قصة ذلك المشعوذ الذى تسمى « بأبى العرب » وزعم حينا أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك . بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع كادت أن تحدث فتنة حقيقية ؛ ففى رجب سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) في أوائل عهد المستنصر ، ظهر بمدينة مصر شخص يدعى « سكين » كان يشبه الحاكم فى بعض ملامحه ، وادعى أنه الحاكم ، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته ؛ وقد كان سكين من عصبة الدعاة السريين منذ أيام حمزة ، وقد ورد ذكره فى بعض رسائلهم حسبما نذكر بعد ؛ والظاهر أن الدعاة أرادوا بدفعه الى هذه المغامرة أن يحاولوا إثارة الفتنة التى

(١) Von Muller: Ibid; I. p. 633

خمدت ، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به فى رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية : فالتف حوله فريق من الملاحدة من شيعة الدعاة الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد فى هذه الخرافة ؛ وفي ظهر يوم سار سكين وأصحابه الى القاهرة وقصدوا الى القصر الكبير ، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم ، قد عاد من غيبته ، فارتاع الجند مدى لحظة ثم ارتابوا في الدعى فقبضوا عليه ، وحملوا على صحبه ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر ، وقتل من الملاحدة عدد كبير وأسر الباقون ، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة (١) .

وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها ، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر ، ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته الا فى الشام حيث استقرت الدعوة فى بعض أنحائه ورسخت حتى يومنا .

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٧ . وأبو الفدا ج ٢ ص ١٦٦

الفصل الحادي عشر

عصر الخفـــاء

عصر الخفاء فى مصر الاسلامية . الشبه بينه وبين عصر الخفاء الاوربى . مايحيط بالدولة الفاطمية من الغموض والخفاء . اتشاح الخلفاء الفاطميين بهذا اللون الخفى . مايقول المعز فى كتابه الى القرمطى . شغف الخلفاء الفاطميين بأمور الغيب والتنجيم . بعض روايات فى ذلك. خفاء الرسوم الفاطمية ومجالس الحكمة . عصر الحاكم ذروة الخفاء . الشغف بالمجهول والخارق . ماتقوله الاسطورة عن الحاكم . إبطال التنجيم . عيون الحاكم وجواسيسه . اختفاء الحاكم عامل فى اذكاء الخفاء . عصر الخفاء الاسلامى وعصر الخفاء الأوربى . تماثل المزاعم والدعوات . الفارق بين العصرين

كان عصر الحاكم بأمر الله ذروة الخفاء في تاريخ مصر الاسلامية ؛ وكانت شخصية من أعجب ما عرف التاريخ : شخصية يحيط بها الخفاء من كل ناحية ، وتثير من حولها الدهشة والروع فى كل تصرفاتها العـامة والخاصة . ويلازمها الخفاء لا في هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولـكن فى الحياة الآخرى أيضاً ، حيث تغادر هذا العالم في ظروف كالأساطير ؛ وذهن هائم مضطرم ، وكما أنه يهبط في تصرفاته أحياناً الى ضروب مثيرة من التطرف والتناقض والشذوذ ، فانه يرتفع أيضاً الى ضروب من الحكمة والسمو تحمل على التقدير والتأمل ؛ وكانت هذه الشخصية العجيبة تفيض من خفائها على المجتمع الذى تقبض على أقداره ومصايره ، وتطبع العصر كله بطابعها العجيب

ولقد كان النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى (النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى) عصر الخفاء فى مصر الاسلامية ، كما كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء فى أوربا ؛ وكما امتاز عصر الخفاء الحديث بالتعلق بالمجهول والخارق ، والتطلع الى مدارك الغيب ، وذيوع الدعوات الالحادية ، وقيـام الجمعيات السرية المختلفة ، فكذلك يمتاز عصر الخفاء فى مصر الاسـلامية ، بنزعة الى استكشاف الغيب ،

وإحياء عصر الخوارق ، وقيـام الفرق الدينيـة السرية ، وبث الدعوات الالحادية المغرقة . ويرجع هذا التشابه بين العصرين الى ظاهرة تاريخية معروفة هى أن عصور الخفاء فى جميع مراحل التاريخ تلتقى جميعاً على اختلاف الظروف والأحوال فى نقطة واحدة هى التعلق بالخارق والمجهول ، وهى قبلة يتجه اليها الذهن البشرى فى جميع العصور والمجتمعات

قامت الدولة الفاطمية بالمغرب فى ظروف غامضة ؛ وكانت إمامتها ثمرة دعوة سرية يغمرها الخفاء والريب ؛ وكان أول خلفائها عبيد الله المهدى ، شخصية غامضة لم يستطع التاريخ أن يقف على حقيقتها أو يتقصى نسبتها ؛ وقدم الفاطميون الى مصر يحيط بهم وبأصلهم ونسبتهم وغاياتهم نفس الغموض والريب ؛ وقد كان هذا الخفاء الذى يغمر هـذه الدولة القوية من أسـباب قوتها واتسامها فى نظر الكافة بميسم المقدرة الخارقة

وبدت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر فى سنة ٣٦٢ ﻫ بهذا المظهر الخاص ، وهبت على المجتمع المصرى فى أواخر القرن الرابع ريح من هذا الخفاء الذى تنفثه الخلافة الفاطمية حولها أينما حلت ؛ وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الاتشاح بهذه الحجب القاتمة التى لا تنفذ اليها أبصار الكافة ، ولا تـكشف عما وراءها من المقاصد : بل لقد كان هذا التعلق بالخفاء يتخذ فى أوائل الدولة الفاطمية صورة رسمية ، فنجد الخلفاء الفاطميين يدعون معرفة الغيب ، ويظهرون بمظهر القدسية والارتفاع الى ما فوق البشر (١). وفى الكتاب الذى وجهه المعز لدين الله الى زعيم القرامطة ، وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فيما تقدم ، ما يفصح عن هـذه الدعوى بصراحة ، ففيه يقول المعز مشيرا الى أدلة امامتهم : « وكل ذلك دلالات لنـا ، ومقدمات بين أيدينا ، وأسباب لاظهار أمرنا ، هدايات وآيات وشهادات وسعادات قدسيات ، ألهيات أزليات ، كاينات منشآت ، مبديات معيدات ، فما من ناطق نطق ولا نبى بعث ولا وصى ظهر إلا وقد أشار الينا ، ولوح بنا ، ودل علينا فى كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ، ومرموز كلامه فيما هو موجود غير معـدوم ، وظاهر وباطن يعلمه من سمع الندا ، وشاهد ورأى من الملأ الأعلى » ثم يقول : « وليعلم

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠

من الناس من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أن كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدايعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لا يخرج منا أمر ولا يخلو منا عصر » (١)

وكان هذا التطلع الى مدارك الغيب يبدو فى شغف الخلفاء الفاطميين بالفلك والتنجيم ؛ وكان المعز وولده العزيز يشغف كلاهما برصد النجوم واستقراء ما وراءها من الأحداث ؛ ويروى أن المعز وقف أثناء مباحثه فى استقراء النجوم والطوالع على « قطع » في طالعه يقتضى اختفاءه عن وجه الأرض حولا كاملا ، وأنه نزل فعلا على اشارة النجوم ، فاستخلف ولده العزيز على العرش ، ثم اختفى تحت الأرض. فى سرداب صنعه لذلك ، واستمر في اختفائه سنة كاملة ، وكان المغاربة ، وهم أولياء الدولة الفاطمية ، اذا رأوا غماماً سائرا ، ترجل الفارس منهم الى الأرض وأومأ بالسلام يشير الى أن المعز فيه ؛ ثم خرج المعز بعد اختفائه وقد أحاط به سياج من الرهبة والخشوع (٢)

ومما يروى أيضا فى دعوى الخلفاء الفاطميين فى المقدرة على استكشاف الغيب ، أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقه

ويروى لنا المقريزى فى شغف الخلفاء الفاطميين بأمور الغيب والطلسمات السحرية أنه اطلع على كتاب عتيق عنوانه « وصية الامام العزيز بالله لولده الحاكم بأمر الله » يتناول فيه مؤلفه ذكر الطلسمات المختلفة التى رصدت على أبواب القصر الفاطمى وما أودع فيها من القوة الروحانية لقهر الأعداء وسحق المنافقين . وينقل الينا المقريزى أيضا قصة طلسم وجد أيام الظاهر بيبرس فى بناء بعض أبواب القصر الفاطمى القديم ، وهو عبارة عن صنم نحاسى صغير يجاس على كرسى أقيم فوق قاعدة هرمية ، وبيده صحيفة بها كتابة باللغة القبطية القديمة ، فلما ترجمت وجد أنها طلسم

---

(١) اتعاظ الحنفاء ص ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٧ وقد أثبتنا نص هذا الكتاب فى قسم الوثائق لأهميته

(٢) مرآة الزمان (المخطوط) فى الجزء المشار اليه ؛ ونقله النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧ وابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٠

صنع للظاهر بن الحاكم، وبه رقى وعزائم ودعوات الى الله بحراسة مصر وثغورها وصرف كيد الأعداء عنها (١)

بل كان الخفاء يغمر رسوم الدولة الفاطمية ووسائلها وخططها ؛ وقد رأينا كيف عنيت الخلافة الفاطمية منذ استقرارها بمصر بتنظيم دعوتها المذهبية السرية وبثها ، وكيف كانت هذه الدعوة تلقى فى مجالس الحكمة ، أحيانا بالقصر وأحياناً بالجامع الأزهر ، وكيف كان يشرف على القائها قاضى القضاة نفسه ، ثم داعى الدعاة الذى يليه فى المرتبة والمنصب، وإذ كانت الحكمة في تلك العصور تعنى نوعاً من الفلسفة الحرة ، فان مجالس الحكمة كانت حسبما نبين بعد مزيجا من الشروح الدينية المذهبية ، والفلسفة الالحادية ؛ وكانت لدقتها وخطورتها تحاط بسياج من التحفظ والتكتم لاينفذ اليه سوى الخاصة من ذوى الأذهان الحرة ؛ ثم كان قيام دار الحكمة فى عهد الحاكم بأمر الله ، فغدت مثوى الدعوة السرية الفاطمية ، واحتشد فيها الدعاة والنقباء السريون من كل ضرب ، وظهر في أواخر العهد حمزة وشيعته يبشرون بدعوتهم المغرقة ، وغمر المجتمع المصرى سيل من هذه الدعوات الالحادية الخفية ؛ وشخصية الحاكم من وراء ذلك كله تزداد تعقيداً وخفاء وتبث من حولها الدهشة والروع

ولقد كان عصر الحاكم بأمر الله ذروة الخفاء فى تاريخ مصر الاسلامية ؛ ولم تزدهر الدعوة الى الخفاء والشغف به ، والتطلع الى المجهول والخارق قدر ازدهارها فى هذه الفترة التى ذاعت فيها الدعوات السرية ذيوعا غريبا ، ونفذت الى الطبقات الدنيا من المجتمع بعد أن شملت الطبقات العليا ؛ وكان الحاكم نفسه إمام هذه الحركة يغذيها بتصرفاته وقدوته وغريب أطواره ؛ وكان هذا الذهن الهائم المضطرم كأسلافه أشد ما يكون شغفاً باستقراء النجوم واستكشاف الغيب ؛ وقد أنشأ الحاكم بفلاة المقطم منزلا خاصا يخلو به ورصداً يرصد منه النجوم؛ وقد رأينا كيف كان الحاكم يكثر الخروج ليلا الى ربى المقطم والى فضاء البرية ويستطلع النجوم ويهيم في استقرائها ، وكيف أنه حسبما تقول الرواية خرج الى الجبل ليلة اختفائه يدفعه الوقوف على أمر فى طالعه نبأته به الكواكب . وللرواية فى ذلك طائفة من

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٩٤ و ٢٩٥

الأساطير ، منها أنه كان يخدم زحل وطالعه المريخ ، ويسفك الدماء تقرباً اليه ، وأن الشيطان كان يتشبه له فى صورة هذا الكوكب ويخاطبه فى أمور كثيرة ؛ وأنه من أجل ذلك لبس الصوف الأسود ، وأطلق شعره حتى نزل على أكتافه ، وجنح الى التقشف والزهد (١) ؛ وفى هذه الأساطير التى ترجع الى عصر الحاكم ذاته ما يفصح عما كان يغمر هذه الشخصية المدهشة من ألوان الخفاء المثير المروع معاً

والظاهر أيضا أن الحاكم كان يعمل على إذكاء هذا الخفاء المحيط بشخصه بأساليب منظمة . ومن ذلك أنه رتب عصبة بارعة من الجواسيس والمخبرين يطوفون بالأسواق والدور والمجالس بالليل والنهار ، ويرفعون اليه أخبار الناس وما يقع فى جنبات مصر وبين الاسر من خفى الحوادث والأسرار ، وكان يستعين فى ذلك بالنساء ولاسيما العجائز ، فكان وقوفه على هذه الأنباء الخفية مما يثير الدهشة ويحمل البسطاء على الاعتقاد فى خارق مقدرته (٢)

وكان الحاكم يشجع الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم عطاءه ؛ ولكن الظاهر أن ريح الخفاء والتطلع الى مدارك الغيب وصلت فى سنة ٤٠٤ هـ الى حد من الاغراق الذى ينذر بالفوضى ، وخشى الحاكم من عواقب هذا الشغف بالتنجيم ، وسيطرة المنجمين على عقول الكافة ، فأصدر سجلا بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وأن ينفى المنجمون من المملكة ؛ وقد رأينا كيف استغاث المنجمون بقاضى القضاة ، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة المريبة ، وأعفوا من قرار النفى

ثم كان اختفاء الحاكم فى تلك الظروف التى تشبه الأساطير في غموضها وخفائها وانعدام كل أثر يدل على مصيره أو يلقى ضوءا حاسما على ظروف اختفائه أو مصرعه ، فكان ذلك عاملا جديدا فى إذكاء شغف الخفاء ، والتطلع الى ما وراء الغيب ، وإذكاء الدعوات السرية المغرقة التى اتخذت من هذا الاختفاء مستقى جديدا لمزاعمها وأساطيرها

كان اختفاء الحاكم نهاية النهاية ، وذروة الذروة ، فى هذا الخفاء المغلق الذى لبث يغمر حياته ، ويطبع كل عصره ، ويثير في هذا الأفق المزعج ظلمات فوق ظلمات

(١) المخطوط الكنسى المشار اليه ، والنجوم الزاهرة (عن مرآة الزمان) ص ١٧٧

(٢) المخطوط الكنسى . والمكين ابن العميد ص ٢٥٩

* * *

وبعد فانا نجد تماثلا عجيبا بين خواص هذه الفترة المدهشة من تاريخ مصر الاسلامية ، وبين خواص عصر الخفاء الحديث الذى يملأ صحف القرن الثامن عشر بأعجب الروايات والسير ، فقد احتشد فى هذا القرن طائفة كبيرة من الدعاة السريين الذين يتشحون بأثواب الخفاء المغلق مثل يعقوب فرنك أو (البارون فون أوفنباخ) ويوسف بلسامو (أو كاجليوسترو) والكونت سان جرمان ، والدكتور فوك ، وغيرهم من أقطاب الدعاة والمشعوذين السريين ؛ وقامت جمعيات سرية عديدة فى ألمانيا وفرنسا ، وذاعت محافل البناء الحر (الماسونية) في جميع أنحاء أوربا ؛ وهبت على المجتمعات الاوربية ريح شاملة من الخفاء ، ونفذت الى كثير من نواحى الحياة العامة والخاصة معا ، وأحدثت هذه العوامل الخفية الغامضة أثرها فى كثير من حوادث العصر السياسية والاجتماعية .

ومع أن أولئك الدعاة السريين الذين ظهروا فى أوربا فى هذا العصر ، لم يذهبوا الى حد الدعوة الى النبوة أو الألوهية ، كما وقع فى عصر الخفاء الاسلامى ، فانهم جميعا سلكوا نفس المنهج الذى يملى به الخفاء فى كل عصر ، فتحدثوا عن استكشاف الغيب ، وعن المجهول والخارق ، وعن سر الحياة والموت ، وعن الخلود فى هذه الدنيا ؛ وكان بعضهم مثل كاجليوسترو يزعم النفاذ الى أسرار الغيب ، ويعقد لذلك جلسات خاصة يقوم فيها ببعض الرسوم الشرقية القديمة ؛ وبعضهم يزعم الخلود كالكونت سان جرمان ؛ وكان هذا الداعية المشعوذ يزعم أنه عاش قرونا ، وأنه عاصر كليوباتره ملكة مصر ، ويوليوس قيصر ، وأنه عرف المسيح وكان من أصدقائه ، وعرف معظم ملوك أوربا في مختلف العصور ، وغير ذلك من المزاعم الخارقة ؛ وكانت هذه المزاعم على غرابتها وطابعها الخرافي تلقى لدى الكافة ذيوعا كبيرا ، فتذكى خيالهم ، وتثير فيهم الدهشة والروع

وإذا تأملنا نظم الجمعيات السرية التى قامت فى هذا العصر ، ألفينا بينها وبين نظم الدعوة الميمونية والدعوة السرية الفاطمية ومراتبها شبها عجيباً (١) ، سواء فى التدرج في المراتب أو تحرى الغايات والمقاصد الالحادية ، أو حشد الدعاة والمؤمنين ؛ ويرجع

(١) سنتحدث عن الدعوة الميمونية والدعوة السرية الفاطمية بافاضة فى القسم الثانى من هذا الكتاب

ذلك بلا ريب الى أن كثيراً من هذه الجمعيات والفرق السرية الاوربية كانت تستقى معظم نظمها وأصولها من الفلسفة والدعوات اليهودية المختلفة ، وأن الدعوات اليهودية كانت بدورها تستقى من المشرق أو أنها كانت ذات أثر كبير فى توجيه حركات الخفاء المشرقية

بيد أن هناك فارقا جليا بين العصرين ، فقد كانت دعوة الخفاء في المشرق يغلب فيها العنصر الروحى ، وكانت تميل الى حشد الأولياء وتكوين العقائد والمبادىء قبل كل شىء ؛ ولكنها كانت فى الغرب يغلب فيها العنصر المادى ، وكانت أكثر ميلا الى اجتناء الثمرات المادية

الكتاب الثانى

الدعوة السرية الفاطميـــة

الفصل الأول

مجالس الحكمة ومراتب الدعوة

الامامة عماد السياسة الفاطمية . حرص الخلافة الفاطمية على ظفرها المعنوى . التجاؤها الى سلاح الدعاية المنظمة . الدعوة المذهبية . اتسامها بفقه آل البيت . الدعوة السرية . داعى الدعاة . مجالس الدعوة . سجل باقامة الداعي وشرح مهامه . مجالس الحكمة . اضطرام الدعوة المذهبية فى عصر الحاكم . قيام جامعة دار الحكمة . عناية الحاكم بأمرها . الدعوة السرية الفاطمية . طابعها الفلسفى . مراتبها المدهشة . الدعوات التسع . الدعوة الاولى . الدعوة الثانية . الدعوة الثالثة . الدعوة الرابعة. الدعوة الخامسة. الدعوة السادسة. الدعوة السابعة . الدعوة الثامنة . الدعوة التاسعة والاخيرة . العهد الذى يؤخذ على المدعو

— ١ —

نعرض الآن إلى ناحية أخرى هي أخطر نواحى عصر الحاكم بأمر الله ، وأخطر نواحى العصر الفاطمى كله ؛ وقد آثرنا أن نتركها جانبا خلال التحدث عن الحاكم وعن حوادث عصره ، وأن نعالجها فى قسم خاص بها

تلك هى خواص السياسة الفاطمية الدينية ، وأسرار الدعوة الفاطمية المذهبية ، ووسائلها وغاياتها

قامت الدولة الفاطمية على أسس الدعوة الشيعية فى ظروف غامضة ، واتشح الخلفاء الفاطميون بثوب الامامة الدينية ، وردوا نسبتهم الى على بن أبى طالب وفاطمة ، ومساق امامتهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسن بن على ، ومن ثم كانت تسميتهم أيضاً بالاسماعيلية ؛ وكانت هذه الامامة ملاذ السياسة الفاطمية وعمادها لدى الكافة ؛ وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون جد الحرص على صفة الامامة وعلى توطيدها ونشر لوائها بمختلف الوسائل ؛ وقد استطاعت الخلافة الفاطمية أن تجنى غير بعيد ثمرة كفاحها وظفرها ، فبسطت ظلها بعد افريقية

على مصر والشام والحرمين : وكان هذا الانضواء تحت لواء الخلافة الفاطمية يتخذ قبل كل شيء لون الظفر السياسى ؛ بيد أن الخلافة الفاطمية كانت تحرص على أن تحقق ظفرها المعنوى الى جانب ظفرها المادى ، وأن تغزو عقائد المجتمعات التى يدفعها الفتح أو تحملها السياسة على الانضواء تحت لوائها ، ومن ثم كان نشاط الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها المذهبية وفى العمل على توطيد دعائمها ، وتمكين نفوذها المعنوى الى جانب سلطانها السياسى

ولما استقر الفاطميون بمصر ، وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم ، شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة الى مضاعفة جهودها المذهبية ؛ ذلك أنها لم تجد في مصر ، كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة مهداً خصباً لدعوتها ، بل ألفت فى مصر مجتمعاً متمدنا عركته الأحداث الدينية والسياسية ، فكان عليها أن تتوسل لغزوه بكل الوسائل السياسية والفكرية ؛ ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية وغزو الأذهان بطرق منظمة ؛ لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة ، فان الدعاية المنظمة هى خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة . وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين الى تبوء الملك ؛ فلما جنوا ثمار ظفرهم الاولى ، كانت الدعوة السرية وسيلتهم الى حمايتها وتدعيمها ، فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الاسلامية ؛ وكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم ، منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها ، تنساب منه الى جنبات الامبراطورية الفاطمية الشاسعة والى سائر الأقطار الاسلامية الأخرى

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية ؛ ومذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، نراها تنتظم فى القصر الفاطمى ، وتتخذ صورة الدعوة الى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها ؛ وكان يقوم بالقاء هذه الدروس المذهبية أيام المعز والعزيز بنو النعمان ، وهم أسرة مغربية نابهة تولت قضاء مصر زهاء نصف قرن ؛ وكانت تلقى أحيانا في القصر ، وأحيانا فى الجامع الأزهر ؛ وأحيانا كان يشترك فى القائها بعض عظماء الدولة مثل الوزير ابن كلس ، وزير المعز ثم ولده العزيز ، فقد كان يتولى قراءة علوم آل البيت وشرحها للكافة بنفسه ؛ وله فى الفقه

الشيعي رسالة مشهورة تعرف بالرسالة الوزيرية[١]. وينوه المسبحي ، مؤرخ الدولة الفاطمية ، باقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس المذهبية ، فيقول لنا إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد ، فمات فى الزحام أحد عشر رجلا فكفنهم العزيز بالله [٢] ؛ بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة كانت ستاراً وتمهيداً لدعاية أخرى كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، ويشرف على تنظيمها وتلقينها زعيم دينى كبير يشغل منصبا هاما فى ديوان الخاص وينعت بداعى الدعاة . وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التى انشأتها الدولة الفاطمية ، كما كان داعى الدعاة من أغرب الشخصيات الرسمية التى خلقتها : وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بمثل امتيازاته ، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين فى العلوم الدينية وفى أسرار الدعوة الفاطمية ، ويعاونه فى نشر الدعوة إثنا عشر نقيباً وعدة كبيرة من النواب يمثلونه فى سائر النواحى ؛ وكانت هذه الدروس الخاصة تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته فى ايوان القصر الكبير ، وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر ، وهو المسمى « بالمحول » وكان من أعظم الأبنية وأرحبها ، فاذا انتهت القراءة اقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعى فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين فى دخول المذهب ، ويؤدى له النجوى من استطاع ، وهى رسم اختيارى قدره ثلاثة دراهم وثلث يجبى من المؤمنين للانفاق على الدعوة والدعاة ؛ وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضاً لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب ، ورجال الدولة والقصر ، ونساء الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم ، ويحظر شهودها على الكافة ، وتعرض فيها الدعوة الفاطمية السرية على يد دعاة تفقهوا فى درسها وعرضها ؛ وكان تلقين هذه الدعوة هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان فى الواقع أهم غاية يراد تحقيقها . وكان للكافة أيضاً نصيب من

---

(١) سبقت الاشارة الى ابن كلس فى غير موضع وهو الوزير ابو الفرج يعقوب بن كلس : وكان فى الأصل يهودياً ، ثم أسلم أيام كافور : ووزر للمعز ثم العزيز ، وكان عالماً أديبا ، واشتهر بحمايته للعلوم والآداب ، وهو أول من أدخل التدريس المنظم بالجامع الأزهر فى عهد العزيز ، وكانت وفاته سنة ٣٨٠ هـ (راجع المقريزى ج ٢ ص ٢٠٧ وج ٣ ص ٩ - ١١)

(٢) المقريزى عن المسبحى ج ٢ ص ٢٢٦

تلك المجالس ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ، ويعقد مجلس للاجانب الراغبين فى تلقى الدعوة ؛ وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعاً إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ؛ وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان ، فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين الى مراتبها وأسرارها العليا (١)

وقد انتهت الينا وثيقة رسمية هامة هى سجل فاطمى باقامة داعى الدعاة وبيان مهمته واختصاصاته ، وما يجب عليه اتباعه لاذاعة الدعوة ؛ وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة ما يأتى : « وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الامامة والأئمة ، وفوض اليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ؛ يعلن باقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وارهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وانقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوفيقهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ، ويفضى بهم الى روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان . . . »

ومنها فى شرح واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك اخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه . . . ، ولا تكره أحداً على متابعك والدخول فى بيعتك . . . ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلقى الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات الى نور البراهين والآيات ؛ واتل مجالس الحكم التى تخرج اليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ؛ وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا

(١) المقريزى ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧

تستقل أفهامهم بتقبله ؛ واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ، ودل على اتصال الممتل بالممنون؛ فان الظواهر أجسام ، والبوطن أشباحها ؛ والبواطن أنفس ، والظواهر أرواحها . . . » (١)

وفى هذا السجل الذى أثبتنا نصه فى آخر الكتاب أكثر من إشارة الى سرية الدعوة ، والحرص على تلقينها الى المستنيرين والخاصة ؛ وفيه بالأخص إشارة الى ما تمتاز به الدعوة من المعانى والتأويلات الباطنة ، وهى المقصودة ببثها وتلقينها

تلك هى مجالس الحكمة الشهيرة التى اتخذتها الخلافة الفاطمية سبيلا لبث دعوتها المذهبية ؛ وقد استمرت هذه المجالس حتى أواخر الدولة الفاطمية ، والغيت أثناء ذلك أكثر من مرة لظروف خاصة ، ولكنها لبثت دائماً من خطط الخلافة الفاطمية

وفى عصر الحاكم بأمر الله اتخذت مجالس الحكمة أهمية خاصة ، ونظمت في معهد رسمى خاص يعمل لبث الدعوة الفاطمية السرية ويكون مركز الوحى والتوجيه؛ وقد يبدو غريبا أن تتخذ الخلافة الفاطمية هذه الخطوة الجريئة على يد الحاكم بأمر الله ، وهو ذلك الذهن المضطرم الهائم ؛ ولكن هذا الذهن كان بطبيعة تكوينه وميوله ، واتجاهه الى عوالم الخفاء والغيب ، حرياً باتخاذ مثل هذه الخطوة ؛ وكانت ظروف العصر ، واتساع نطاق الدعوة الفاطمية ، واضطرام المعركة المذهبية بين الخلافة الفاطمية وخصومها مما يدعو لقيام هذا المعهد ، ليشرف بطريقة منظمة تدعمها الرعاية الرسمية على بث الدعوة الفاطمية وتوجيهها

هذا المعهد الفريد فى صحف الدعوات السرية هو دار الحكمة المصرية ، أو دار العلم ؛ أنشأها الحاكم بأمر الله في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (مارس سنة ١٠٠٥ م) ؛ ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد أو بالحرى هذه الجامعة الغريبة ، ذلك لأن دار الحكمة كانت جامعة حقة تضم عدة حلقات وكليات دينية وعلمية وأدبية ؛ وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر الصغير بجوار باب التبانين ، تعرف بدار مختار الصقلبي ، وقسمت الى عدة أقسام أو مجالس : للقرآن والعلوم الدينية والفلك والطب والنحو ، وعلوم اللغة ؛ وعين لها أقطاب الأساتذة في كل علم وفن ، وعنى بتأثيثها

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها

وزخرفتها عناية فائقة ، وحملت اليها من خزائن القصر مجموعات عظيمة من الكتب في سائر العلوم والفنون لتكون رهن البحث والمراجعة ، ورصدت للانفاق عليها وعلى أساتذتها وموظفيها وخدمها أموال ضخمة ، ووقف الحاكم عليها قسما من أملاكه الخاصة ضمن وقفيته الشهيرة التى أشرنا اليها فيما تقدم ؛ وكان التعليم فيها حراً على نفقة الدولة ، ويمنح الطلبة والباحثون جميع الأدوات الكتابية ، ولهم أن يقرأوا وينسخوا ما شاؤوا من الكتب ، وأن يستمعوا الى ما شاءوا من الدروس والمحاضرات ؛ فهرع اليها الطلاب من كل صوب ، وأفردت للنساء فيها مجالس خاصة. ويصف لنا المسبحى وهو معاصر وشاهد عيان ، ما اتخذ لانشاء دار الحكمة من عظيم الأهبة والعناية ، وما اجتمع فى مكتبتها العظيمة من نفائس المراجع والكتب « مما لم يجتمع مثله لأحد قط من الملوك »[1] واتخذت دار الحكمة في البداية طابعاً حراً ، فدعي اليها الأساتذة من المذهبين الشيعة والسنة ، وقرئت بها فضائل الصحابة ؛ ولكن أبعد عنها أساتذة السنة فيما بعد ، وقتل بعضهم ، وتأكدت بذلك صفتها المذهبية الخاصة [2] ؛ وكان داعى الدعاة هو الذى يشرف على سير الدراسة فيها ، وهو الذى يرتب لها الدعاة والأساتذة طبقاً لما يرسم من الخطط والغايات [3]

كانت دار الحكمة فى ظاهرها جامعة حرة علنية يلتحق بها من شاء ويدرس ما شاء من مختلف العلوم والفنون ؛ ولكن هذا المظهر العلى لم يكن فى الواقع إلا ستاراً للغاية الأصلية التى أنشئت دار الحكمة لتحقيقها ، وهى بث الدعوة الفاطمية السرية بطريقة علمية منظمة ، تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية بالأصول والمبادىء المذهبية ، وتكون أبعد أثراً فى غزو الأذهان والعقائد من مجالس القصر ، وبذا تجتمع جهود الدعاة فى مركز رئيسى ، يحشد فيه المؤمنون من كل صوب ليقوموا فيما بعد بقسطهم فى حمل الدعوة وبثها في سائر المجتمعات والأنحاء

— ٢ —

والآن لنر ماذا كان قوام هذه الدعوة السرية الغريبة التى انتهت الينا بعض

---

(١) المقريزى عن المسبحى ج ٢ ص ٣٣٤ و ٣٣٥ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٣

(٣) المقريزى ج ٢ ص ٢٢٦

تفاصيلها ومحتوياتها ـ رغم تبدد تراث الشيعة ـ على يد مؤرخين كالنويرى والمقريزى وقفوا على شيء من هذا التراث . ومن الطبيعى أن تكون مادتها الاولى ما تقوم عليه الدعوة الشيعية الفاطمية من الاصول والمبادىء ، وأن تعرض مسائل النبوة والامامة والعقيدة الدينية طبقاً لهذه الاصول ؛ ولكن سنرى أنها تذهب الى أبعد من ذلك ، وأنها تستحيل فى النهاية الى عقيدة فلسفية حرة ممعنة في الانكار والالحاد

كانت الدعوة تجرى على نسق الجمعيات السرية في مراتب متدرجة فى الأهمية والخطورة ؛ ومراتبها تسع ، يعرضها الدعاة بالتعاقب طبقاً لاستعداد التلاميذ وأهليتهم لتلقيها ، فلا يصل الي مراتبها العليا الا من كان موضع الثقة والافضاء ، حريصاً على السر ، وكان من الأولياء المخلصين ؛ ولا يتسع المقام هنا لايراد هذه الدعوات التسع بنصها وتفاصيلها ، ولكنا نكتفى بأن نقدم منها خلاصة وافية على النحو الآتى :

الدعوة الاولى

يفتتح الداعى دعوته بسؤال المدعو (١) عن بعض المسائل الدينية والشرعية وبعض المسائل الطبيعية والمشكلات الغامضة ، فان كان المدعو عارفا بما سئل أقره الداعى ، والا فانه يعرضها عليه للبحث والتأمل ؛ ثم يلقنه أن الدين أمر مكتوم يجهله السواد والكافة ، وأن انصراف الناس عن الأئمة الصادقين الذين نصبوا لهم وأقيموا لحفظ شرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، ويعرفون بواطنها ، هو أصل الشر والخلاف فى الأمة الاسلامية ؛ وأن الناس لما عدلوا عن الأئمة ونظروا فى الامور بعقولهم ، وقلدوا سفلتهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعا للملوك وطلبا للدنيا ، التى هى ملك الآثمين وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة ، الذين يحبون العاجلة ، ويجتهدون فى طلب الرياسة على الضعفاء ، والذين خرجوا على رسول الله وأمته ، وغيروا فى كتاب الله وسنة نبيه ، وخالفوا دعوته ، وعملوا على افساد شريعته ، وخالفوا الأئمة من بعده ، فسدت أحوالهم وانحدروا الى أنواع الضلالات ؛ وأن دين محمد ، لم يجيء بما يحقق الأمانى والشهوات الزائلة ، ولا بما تعرفه الدهماء والكافة ، وانما هو علم خفى ، وهو سر الله المكتوم الذى يرتفع عن الابتذال ، ولا يطيق حمله

(١) ويعبر خصوم الاسماعيلية عن المدعو بالغر أو المخدوع

وينهض باعبائه الا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن اصطفاه الله

وفى هذه الدعوة يجتهد الداعى أن يثير طلعة المدعو بالاشارة الى بعض المسائل الغامضة المتعلقة بأصل الخليقة والعالم الآخر وتركيب جسم الانسان وغيرها ؛ فاذا سأله المدعو عن معانيها استمهله حتى يجىء وقت الافضاء ؛ ثم يتلو عليه بعض الآيات في الوفاء بالعهد وتوكيد الايمان ؛ ويطالبه بالعهد الذى يجب أن يقطعه كل مدعو على نفسه بالوفاء والكتمان ، وفيه « ألا يفشى لهم سراً ، وألا يظاهر عليهم أحداً وألا يطلب لهم غيلة ، وألا يكتمهم نصحا ، ولا يوالى لهم عدواً » ثم يطالبه بعد ذلك بمبلغ من المال يقدره رسما للدخول فى الدعوى ، فاذا امتنع عن القيام بما تقدم وقف به الداعى عند هذا الحد ؛ واذا أجاب ، انتقل به الداعى الى الدعوة الثانية

الدعوة الثانية

ولا ينتقل الداعى بالمدعو الى هذه الدعوة الا اذا آنس فيه قبولا ووثق بحرصه وكتمانه ؛ وعندئذ يلقنه أن الله تعالى لم يرض فى اقامة حقه وما شرعه لعباده الا أن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس ، وأقامهم لحفظ شريعته على ما أراد تعالى ؛ ويستدل الداعى على ذلك بما ورد فى كتبهم ؛ فاذا أيقن أن المدعو قد اقتنع بنظرية الامامة ، انتقل به الى الدعوة الثالثة

الدعوة الثالثة

وهى مرتبة على الدعوة الثانية ، وعلى رسوخ نظرية الأئمة المختارين فى نفس المدعو : وفيها يلقن المدعو أن هؤلاء الأئمة سبعة قد رتبهم الله تعالى كما رتب السموات والأرضين والكواكب وغيرها من جلائل الموجودات وجعلها سبعاً . وهؤلاء الأئمة السبعة هم : على بن أبى طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب بزين العابدين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد الصادق ؛ والسابع هو القائم صاحب الزمان ؛ وأنهم أى الشيعة مختلفون فى هذا القائم ، فنهم من يقول إنه هو اسماعيل بن جعفر دون أبيه اسماعيل ؛ ويقف الداعى بالمدعو عند رأى الاسماعيلية فى امامة اسماعيل ثم ولده محمد ، وأن محمداً بن اسماعيل عنده علم المستور وبواطن الأمور ، وعلم التأويل ، وأن دعاته هم الوارثون لعلمه دون سائر طوائف الشيعة ، ويؤيد ذلك بما ورد فى كتبهم من الأدلة والأقوال

الدعوة الرابعة

وهى بدء التحول الى المراتب العليا ، ولا ينتقل الداعى بالمدعو اليها الا اذا وثق من حسن انقياده وايمانه بما تقدم ؛ وعندئذ يلقنه أن الأنبياء المعتبرين ، الناسخين للشرائع ، الناطقين بالأمور ، كالأئمة سبعة فقط ، وكل منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته ، ويكون له ظهيراً فى حياته ثم يخلفه بعد وفاته ، ويتخذ له كنبيه ظهيراً يخلفه ، ويسير كل مستخلف على هذا المنوال ، الى أن يأتى منهم على تلك الشريعة سبعة ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ، لأنهم ثبتوا على شريعة واحدة واقتفوا أثراً واحداً ، ويقال لأولهم (السوس) ؛ فاذا انقضى هؤلاء السبعة ، فلا بد من أن يبدأ دورثان من الأئمة ، يفتتحه نبى ناطق ينسخ شريعة من مضى ، ويخلفه على النحو المتقدم سبعة من الصمت ، وهكذا حتى يقوم النبى السابع من « النطقاء » فينسخ جميع الشرائع المتقدمة ، ويكون هو صاحب الزمان الأخير ؛ وكان أول الأنبياء « النطقاء » آدم وظهيره (أوسوسه) ولده شيث ؛ وخلفه سبعة من الأئمة الصمت على شريعته ؛ ثم جاء نوح ثانى النطقاء وظهيره ولده سام ، فنسخ شريعة آدم ، وخلفه السبعة الصمت على شريعته ؛ وكان ثالت النطقاء ابراهيم الخليل ، وظهيره ولده اسماعيل ، فنسخ شريعة نوح ؛ وكان رابعهم موسى بن عمران ، وظهيره أخوه هرون ؛ وخامسهم المسيح عيسى بن مريم وظهيره شمعون الصفا ؛ وسادسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه نطق بشريعة نسخ بها كل الشرائع المتقدمة ، وكان ظهيره وسوسه على بن أبى طالب ؛ وكان السبعة الصمت يتعاقبون دائما بين كل ناطق وآخر على النحو المتقدم ؛ فلما توفي محمد سادس النطقاء ، تلقى دعوته على بن أبى طالب وهو أول السبعة الصمت ؛ وجاء من بعده ستة صمتوا على الشريعة الاسلامية وحملوا تراث أسرارها وهم ابنه الحسن ثم ابنه الحسين ثم على ابن الحسين ، ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر الصمت من الائمة المستورين ؛ وأما السابع من النطقاء في هذا الدور فهو « قائم الزمان » ؛ وعند الاسماعيلية (والفاطميون اسماعيلية) أنه محمد بن اسماعيل ابن جعفر ، وأنه هو الذى انتهى اليه علم الاولين ، ووقف على بواطن الامور ومدارك الغيب ، وعلى جميع الكافة الانقياد له ؛ والهداية فى موافقته ، والضلال فى مخالفته

الدعوة الخامسة

والامامة الاسماعيلية هى لب الدعوة الفاطمية المذهبية ؛ فمتى انتهى المدعو الى تلقى فكرة الامامة على النحو المتقدم انتقل به الداعى الى الدعوة الخامسة ؛ وهى مترتبة على ما قبلها ؛ وفيها يقرر الداعى انه لا بد مع كل امام قائم في كل عصر حجج متفرقون فى الأرض ، وعدتهم أبداً اثنا عشر رجلا في كل زمان ، كما ان عدد الأئمة سبعة دائماً ؛ فالشهور اثنا عشر ، ونقباء بنى اسرائيل اثنا عشر ، ونقباء رسول الله من الأنصار اثنا عشر ، وهكذا

الدعوة السادسة

وفى الدعوة السادسة يتحدث الداعى عن شرائع الاسلام وفرائضه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها ، ويعلم المدعو ان هذه الشرائع والفروض ترجع فى الواقع الى معان وحكم أخرى غير الظاهرة ، وانها وضعت على سبيل الرموز لمصلحة العامة حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، ولكى تصدهم عن الفساد في الأرض ، وتكفل خضوعهم وحسن طاعتهم . ثم يتدرج الداعى بالمدعو الى ميدان الفلسفة ونظريات الفلاسفة ، مثل أفلاطون وارسطو وفيثاغورس وغيرهم ، ويعلمه ان منطق العقل هو المعول عليه فى فهم الأمور ، وأنه يجب الا يؤخذ بالأخبار والأشياء المنقولة ، وانما يجب الأخذ بالأدلة العقلية دون غيرها

وفى هذه المرتبة تبدأ مهمة الدعاة الحقيقية وهى العمل على هدم العقيدة الدينية

الدعوة السابعة

وفى الدعوة السابعة يعلم المدعو ان صاحب الشريعة لا يستغنى بنفسه ولا بد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل والآخر يصدر عنه ؛ وهذا انما هو اشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوى ؛ ويستدل الداعى على ذلك ببعض الأقوال والقرائن المبينة فى كتبهم

الدعوة الثامنة

وهى قائمة على تسليم المدعو بجميع ما تقدم فى المراتب السابقة ؛ وفيها يعلم المدعو ان مدبر الوجود ، والصادر عنه انما هو تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول ، فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى ؛ ومع ذلك

فالسابق عندهم لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يحدد ، فلا يقال هو موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ؛ وهكذا . ثم ان التالى يلحق بمنزلة السابق ، والصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزل الناطق سواء ؛ وان معجزات الأنبياء انما هى أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة يحوى معانى فلسفية تنبىء عن حقيقة ما يشتمل عليه العالم بأسره من الجواهر والأعراض ، وانها تكون تارة رموزاً يعقلها العالمون ، وتارة تكون بافصاح يعرفه كل الناس ، وان القرآن والقيامة والثواب والعقاب وغيرها معناها غير ما يفهمه الكافة وغير ما يتبادر الى الذهن ، وانها ليست الا حدوث أدوار تقع عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها

الدعوة التاسعة

وفى الدعوة التاسعة والأخيرة ينتقل المدعو الى ميدان العلوم الفلسفية والطبيعية ومابعد الطبيعة، ويدخل حظيرة الأسرار الأخيرة ؛ فيعلم المدعو ان ماذكر من الحدوث والأصول انما هى رموز الى معانى المبادىء وتقلب الجواهر ، وان الوحى انما هو صفاء النفس فيجد النبى فى فهمه ما يلقى اليه ويتنزل عليه ، فيبرزه الى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبى شريعته حسبما يرى من المصلحة فى سياسة الكافة ، ولا يجب العمل بهذه الشريعة الا بحسب الحاجة في رعاية مصالح الدهماء ، وليس على العارف المستنير أن يعمل بها ؛ وان الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع انما وجدوا لسياسة العامة ، وان الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة ، وان الامام انما يوجد فى العالم الروحانى اذا صرنا بالرياضة فى المعارف اليه ، وظهوره انما هو ظهور أمره ونهيه على لسان أوليائه ، الى غير ذلك من التعاليم الفلسفية والشروح الالحادية (١)

وظاهر ان المدعو ينتهى فى هذه الدعوة الأخيرة (بفقد العقيدة الاسلامية ، والعقيدة الدينية بأسرها)، وهو أخص ما ترمى اليه الدعوة السرية الفاطمية

(١) راجع خطط المقريزى (ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٣٣) حيث وردت الدعوات التسع مفصلة . وقد لخصنا الدعوات تلخيصاً وافياً ولم ننقل منها الا ما يدخل فى باب التكرار .

وقد ترجم المستشرق دى ساسى هذه الدعوات الى الفرنسية فى كتابه Réligion des Druses (Introduction LXXIV et suiv.) ، وترجمتها أيضا المستشرق كازانوفا بعنوان Doctrine Secrète des Fatimides وذلك فى مجلة المباحث الأثرية الشرقية B. d'Archéologie Orientale ، وقرن ترجمته ببعض شذور عن دعوة القرامطة والاسماعيلية ، ولكنه لم يفطن الى رسائل الدعاة السريين ولم ينتفع بها .

ويلحق بالدعوة السرية عهد يؤخذ عند بدء الدعوة على المدعو كفالة بالاخلاص والكتمان ، وقد صيغ فى نصوص خطيرة رهيبة ، هذا بيانها :

يطلب الداعى الى المدعو أن يحلف ويقول : وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسله وأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله وما أخذه على النبيين من عهد وميثاق أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته من أمرى ومن أمر الامام وأمور أشياعه وأتباعه وولده وأهل بيته ، فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيراً إلا ما أطلقت لك أن تتكلم به أو أطلقه لك صاحب الأمر ، فتعمل فى ذلك بأمرنا ولا تتعداه ؛ وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتشهد أن الجنة حق وأن الموت حق ، وأن البعث حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ؛ وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام ، وتجاهد فى سبيل الله ، وتوالى أولياءه ، وتعادى أعداءه ، وتقوم بفرائض الله وسننه وسنن رسوله ظاهراً وباطناً وعلانية وسراً وجهراً . وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك : قل نعم ؛ فاذا قال المدعو نعم ؛ قال الداعى : وعليك الصيانة واداء الأمانة على ألا تظهر شيئا أخذ عليك فى هذا العهد فى حياتنا ولا بعد وفاتنا ، ولا فى حال غضب أو رضى ، ولا رغبة أو رهبة ، ولا طمع أو حرمان وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه أن تمنعنى وجميع من أسميه لك ما تمنع منه نفسك ؛ وتنصح لنا ولوليك نصحاً ظاهراً وباطنا ، ولا تخون الامام وأولياءه وأهل دعوته فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، وألا تتأول فى هذه الايمان تأويلا ولا تعتقد ما يحلها ، وأنك إن فعلت شيئاً من ذلك ، فأنت برىء من الله ورسله وملائكته وجميع ما أنزل الله من كتبه ، وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وبرىء من حول الله وقوته ، وعليك لعنة الله ؛ ولله عليك أن تحج الى بيته الحرام ثلاثين حجة ماشياً حافياً ، نذراً واجباً ، وكل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك لك من ذكر وأنثى ، فهو حر لوجه الله ، وكل امرأة لك أو تتزوجها الى وقت وفاتك ، فهى طالق ثلاثا طلاق الحرج لا مثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ، وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما فهو حرام عليك ؛ والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت ، وكفى بالله شهيداً بيننا وبينك (١)

(١) اعتمدنا فى إيراد نص هذا العهد على المقريزى (ج ٢ ص ٢٣٤ و ٢٣٥) وعلى كتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى (طبع مصر) ص ٢٨٩ و ٢٩٠ ؛ ولم نغفل فى إيراده أيضاً سوى التكرار

الفصل الثانى

نشأة الدعوة وتطوراتها

أصل الدعوة السرية الفاطمية . ميمون بن ديصان القداح . استتاره بالتشيع . تأسيسه لمذهبه . انتسابه لآل البيت . تنظيمه لدعوته . موضوع هذه الدعوة وأصلها المجوسى . الباطنية ومبادؤهم الدهرية . مايقول داعيتهم عبيد الله بن الحسن . عرض الشهرستانى للفكرة الباطنية . شرح الغزالى لمذهبهم . حكمه التسمية . غاية هذه الدعوة : برنامج ابن ميمون كما يعرضه دوزى . عبدالله بن ميمون والحسين الاهوازى . استقرار الدعوة فى الشام : فورة القرامطة . ابناء عبد الله . تفرق الدعاة فى سائر الاقطار . ابو عبد الله الشيعى . عبيد الله المهدى . قيام الدولة العبيدية بافريقية . التماثل بين مبادىء القرامطة والباطنية والفاطمية . انضواء القرامطة تحت لواء الدولة الفاطمية ثم خروجهم عليها . كتاب المعز الى القرمطى ودلالته . الدعوة الفاطمية والمجتمع المصرى . إلغاء مجالس الحكمة

هذه خلاصة الدعوة السرية التى كانت تلقى فى مجالس القصر ثم بجامعة دار الحكمة ، وهى كما ترى دعوة فلسفية إلحادية صيغت بمنتهى الذكاء والمهارة ، ونظمت مراتبها بدقة مدهشة تنم عن براعة أولئك الذين صاغوها وفائق فهمهم لنفسية الكافة وتدلى بأنهم كانوا أئمة عصرهم فى التأويلات الكلامية والشروح الالحادية . ولاريب أن الخلافة الفاطمية كانت ترمى ببث هذه الدعوة الى غاية سياسية أكثر منها دينية : أن يحشد المستنيرون والخاصة تحت لواء الخلافة الفاطمية ، وأن يجعلوا امامتها علما للزعامة الدينية فى العالم الاسلامى ، وأن يكونوا سفراءها لدى المؤمنين والكافة يحركونهم لتأييد كلمتها وتوطيد سلطانها وتنفيذ غاياتها : تلك هى الغاية الحقيقية لتنظيم الدعوة السرية وبثها على هذا النحو واتخاذها أداة لغزو العقول والعقائد من طريق الدين والفلسفة الكلامية . بيد ان هذه الدعوة المدهشة لم تكن جديدة فى الواقع ، ولم يبتدعها الفاطميون ولا الحاكم بأمر الله ، ولكنها اشتقت من الدعوة الباطنية أو الاسماعيلية السرية التى نظمت فى أواخر القرن الثانى فى جنوب فارس ، وأسفرت بادىء ذى بدء عن فورة القرامطة فى البحرين ، ثم غزت

إفريقية بعد ذلك وأسفرت عن قيام الدولة الفاطمية فى أواخر القرن الثالث

وقد نشأت هذه الدعوة ونظمت مبادؤها السرية لأول مرة على يد جماعة من الثوريين الملاحدة بزعامة أبى شاكر ميمون بن ديصان البونى المعروف بالقداح ؛ وهو داعية ملحد تفقه فى درس الأساطير الدينية والبحوث الكلامية والجدل الفلسفى ، ومتآمر وافر الاقدام والجرأة ؛ وكان فارسياً مجوسياً من سبى الأهواز ، ثم تظاهر بالأسلام والتشيع ؛ وقد كانت فارس فى ذلك العصر معقل الدعوة الشيعية ، وكان معظم الدعاة الملاحدة الذين عملوا لغزو العقيدة الاسلامية وهدمها فرساً يضطرمون بغضا للاسلام والعروبة ؛ وبدأ ميمون حياته مولى لجعفر بن محمد الصادق وهو عند الشيعة من الأئمة المختارين ؛ واستتر بالتشيع والدعوة لآل البيت ؛ ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وزجوا الى سجن الكوفة وواليها يومئذ عيسى بن موسى ، وذلك فى أواخر عهد المنصور (نحو سنة ١٤٥ هـ) ؛ وفى السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم وأسسوا مذهبهم الشهير وهو المعروف بمذهب الباطنية . وخرج ميمون من السجن يحمل دعوته ، وانضم اليه كثير من غلاة الرافضة (١) والحلولية (٢) وادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (٣) ؛ وانتشرت دعوته فى جنوب فارس وفى جنوب العراق والبحرين ؛ وانبث دعاته فى كل مكان يستترون ظاهراً بالتشيع ، ويعملون فى الخفاء لبث مبادئهم الالحادية ، ويخاطبون كل طائفة بما يلائم ميولها وتفكيرها . ولجأ ميمون حينا إلى بيت المقدس مع جماعة من أصحابه اتقاء المطاردة ، وهنالك بثوا دعوتهم ومبادءهم ؛ وكانوا يتوسلون للتأثير فى الكافة بأعمال التنجيم والسيمياء وبعض التجارب الكيميائية التى كانوا يحذقونها (٤). وحمل الدعوة بعد ميمون ولده عبد الله ، وكان مثله ذكاء وبراعة وتبحراً فى المباحث الفقهية والكلامية والنظريات الفلسفية الحرة ؛ فنظم الدعوة ، وصاغها فى

---

(١) الرافضة أو الروافض فرقة من غلاة الشيعة وهم أتباع ابن سبا القائل بألوهية على ، ومنهم فرقة سميت كذلك لأنهم رفضوا رأى زيد بن على بن الحسين بن على فى الامتناع عن لعن أبى بكر وعمر

(٢) الحلولية أصحاب مذهب الحلول ، وهو القول بحلول الألوهية فى على والأئمة المختارين من بنيه ، وهو يوافق رأى النصارى فى اعتبار المسيح إلها حلت به الروح القدس .

(٣) كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٦٦

(٤) نهاية الأرب للنويرى ج ٢٦ ص ٢٢

تسع مراتب ، ودعا لامامة آل البيت الذين يزعم الانتساب اليهم ، وكان يدعى العلم بالغيب والأسرار الروحية والعلوم الخفية ، ويزعم أنها انتهت اليه من جده محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو فى زعم الشيعة مستودع العلوم والأسرار الخفية

ماذا كان قوام هذه الدعوة الالحادية ، وماذا كانت غايتها الحقيقية ؟ يرى كثير من المتكلمين أنها كانت ترمى الى نشر المجوسية بالتأويلات التى يتأول بها دعاتهم على القرآن والسنة ، ويستدلون بذلك على أن إمامهم وزعيمهم الأول ، وهو ميمون بن ديصان كان مجوسياً ، ويستدلون أيضاً بما قاله البرذهى وهو من زعمائهم في بعض رسائله ، أن المبدع الأول ابدع النفس ؛ ثم إن الأول والثانى دبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع ، وهذا ما يطابق قول المجوس أن اليزدان خلق أهرمن ، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم ، غير أن اليزدان فاعل الخيرات وأهرمن فاعل الشرور [1]

ويقول عبد القاهر البغدادى إن الباطنية يرفضون المعجزات ، وينكرون الوحى ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة بدعوى النبوة والامامة . وكل واحد منهم صاحب دور مسبع إذا انقضى دوره سبعة ، تبعه دور آخر ؛ ويقولون إن النبى هو الناطق وأن الوحى أساسه تأويل نطق الناطق على ما تراه يميل اليه هواه ؛ وأنهم أى الباطنية ، تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وادمان خدمته ، والصوم هو الامساك عن افشاء سر الامام ، والزنا هو افشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وأن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها . ويرى عبد القاهر من ذلك أن الباطنية هم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم الى استباحة كل ما يميل اليه الطبع ؛ ويستدل على ذلك بما ورد فى رسالة بعث بها عبيد الله بن الحسن القيروانى أحد دعاتهم الى الحسن بن سعيد الجنابى زعيم القرامطة يوصيه فيها « أن ادع الناس بأن تقترب اليهم بما يميلون اليه ، وأوهم كل واحد منهم بانك منهم ، فمن أنست منه رشداً فا كشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ... » ثم يقول : « إن الجنة هى

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧٧ و ٢٧٨

نعيم الدنيا ، وأن العذاب انما هو اشتغال اصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد وأن أهل الشرائع يعبدون الهـا لا يعرفونه ، ولا يحصلون عليه إلا على اسم بلا جسم . . . »(١)

وذكر الشهرستانى « أن الباطنية القديمة ، قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج ، فقالوا فى البارى تعالى إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك فى جميع الصفات ، فان الاثبات الحقيقى يقتضى شركة بينه وبين سائر الموجودات فى الجهة التى أطلقنا عليه ، وذلك تشبيه ، فلم يمكن الحكم بالاثبات المطلق والنفى المطلق... وقالوا فى القدم إنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته ، أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الثانى الذى هو غير تام . . . وقالوا لما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النقص الى الكمال ، واحتاجت الحركة الى آلة الحركة ، فحدثت الأفلاك السموية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها وتحركت حركة استقامت بتدبير النفس أيضاً ، فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والانسان ، واتصلت النفوس الجزئية بالأبدان ، وكان نوع الانسان متميزاً عن سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض تلك الأنوار ، وكان عالمه فى مقابلة العالم كله ؛ وفى العالم العلوى عقل ونفس كلى ، وجب أن يكون فى هذا العالم عقل شخص هو كل وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ، ويسمونه الناطق ، وهو النبى »(٢) ونلاحظ أن بعض هذه الشروح يرد بموضوعه وأحياناً بنصه فى الدعويين السابعة والثامنة من الدعوة السرية الفاطمية

ويلخص الامام الغزالى فى رسالته التى وضعها للرد على الباطنيـة ، مذهب الباطنية فيما يأتى : « أما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الامام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات ؛ ويتطرق الى النظار من الاختلافات

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل (على هامش الفصل والنحل) ج ٢ ص ٢٩ و ٣٠

وايجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هوالمستنصر ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى الى الحق ، ويكشف عن المشكلات ، وان كل زمان لا بد فيه من امام معصوم يرجع اليه فيما يستبهم من أمور الدين : هذا مبتدأ دعوتهم ؛ ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض للشرع ، وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين فى فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لامامهم ، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ، ويقرونهم عليها ، فهذه جملة المذهب ؛ وأما تفصيله فيتعلق بالالهيات والنبوات والامامة والحشر والنشر»(١)

فهذه الأقوال والشروح التى يقدمها الينا أقطاب المتكلمين عن دعوة ابن ميمون الالحادية وهى التى عرفت أيضاً بالدعوة الباطنية والاسماعيلية تلقى كثيراً من الضياء على طبيعة هذه الدعوة وغاياتها ، وانما عرفت بالدعوة الباطنية نسبة الى قول دعاتها بالامام الباطن أو المستور ؛ أو لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلا ، وربما عرفوا بذلك أيضاً لأنهم كانوا يكتمون مبادءهم ويلقونها سراً الى الكافة ؛ وعرفت بالاسماعيلية لقول دعاتها بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، فولده محمد المكتوم ، فولده جعفر ، ثم ولده محمد الحبيب ، وهو عندهم آخر الأئمة المستورين ؛ ويسميهم خصومهم بالديصانية نسبة الى مؤسس مذهبهم ميمون بن ديصان ، وبالملحدة لامعان دعوتهم فى الانكار والالحاد (٢)

وعلى أى حال فليس من ريب فى أن الدعوة الباطنية كانت ترمى الى غزو الأذهان المؤمنة والعمل على هدم العقيدة الاسلامية بل والعقيدة الدينية بأسرها ، وهى غاية تبدو واضحة فى سياق الدعوات السرية ولا سيما الدعوات الأخيرة ؛ وقد عمل عبد الله بن ميمون لتحقيق هذه الغاية ببراعة مدهشة ، فنظم صحبه ودعاته فى جمعية سرية هائلة انبث دعاتها فى سائر الأقطار . ويصف لنا العلامة المستشرق دوزى برنامج ابن ميمون المدهش فى هذه النبذة القوية :

« أن يدمج الغالبين والمغلوبين فى هيئة واحدة ، وأن يجمع فى حظيرة جمعية سرية

---

(١) رسالة الرد على الباطنية Streitschrift des Gazali gegen die Batinija - Sekte المطبوع بعناية المستشرق جولد سيهر ص ٧ و ٨

(٢) راجع الشهرستانى ج ٢ ص ٥ و ٢٩ ؛ وابن خلدون ـ المقدمة ص ١٦٨

هائلة ذات مراتب عدة ، بين أحرار المفكرين - الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لاذلال الشعب - وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يجعل من المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التى شادوها ، وأن ينشىء حزبا كبيرا مؤتلفا منظما يرفع فى الوقت المناسب - إن لم يكن شخصه - فعلى الأقل أبناءه الى العرش : هكذا كانت غاية عبد الله بن ميمون ، وهى فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة بأسرار القلب البشرى ، وكانت الوسائل التى ابتدعها غاية فى الخبث وفى الدهاء

« ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ، ولكن بين الثنوية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد الاعلى الطائفة الأخيرة ، واليهم وحدهم استطاع أن يفضى بسره وخفى عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية ؛ وأن باقى البشر - أو الحمر كما يسميهم - ليسوا أهلا لفهم هذه المبادىء : غيرانه تحقيقا لغايته لم يعف عن مؤازرتهم ، بل كان يلتمسها ويحذر في نفس الوقت من أن يحشد الأنفس المخلصة الطائعة الا فى المرتبة الأولى لدعوته . وكان دعاته الذين عرفوا أن أول ما يجب عليهم هو إخفاء حقيقة عواطفهم ، واعتناق آراء سامعيهم ، يظهرون فى أثواب مختلفة ، ويحادثون كل طبقة باللغة التى تروق لها ؛ يغنمون العامة والبسطاء بأعمال الشعوذة فيعتبرونها معجزات ، أو يثيرون فضولهم بالألغاز والأحاديث الخفية ، ويلبسون أمام المخلصين قناع الزهد والفضيلة ، ويتظاهرون أمام الصوفية بالتصوف ، ويكشفون عما خفى من معانى الغيب ، ويشرحون الأساطير ورموزها . . .

« أسفرت هذه الوسائل عن نتيجة مدهشة ، هى أن جمهوراً عظيما من اناس يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معا لتحقيق غاية لا يعرفها سوى القليل منهم » (١)

وهكذا حمل عبد الله بن ميمون دعوة أبيه ونظمها ببراعة مدهشة وبث اليها روحاً قوياً جديداً ، واتخذ بلدة ساباط (٢) مدى حين مركزاً لدعوته ، وهو يستتر

(١) دوزى Essai sur L'Histoire de L'Islamisme p. 260 - 62 ، وراجع أيضاً الفرق بين الفرق حيث يتحدث عن وسائل الباطنية ص ٢٨٤ و ٢٨٥

(٢) وهى من أعمال المدائن القديمة فى جنوب الفرات

بثوب عميق من التشيع والورع والدعاء لآل البيت . وكان عبد الله بارعاً فى طب العيون وعلاجها ، وفى أعمال التنجيم والكيمياء ؛ وكانت براعته فى هذه الشؤون وسيلة للتأثير فى الكافة ؛ ولكن السلطات لم تلبث أن شعرت بخطورة هذه الحركة ؛ فنشطت الى إخمادها ؛ وفر عبد الله أولا الى البصرة ومعه الحسين الأهوازى من أقطاب شيعته ، فلما جدت السلطات في مطاردته فر مع الحسين الى الشام ، ونزل ببلدة سلمية من أعمال حمص (١) ، واتخذها مركزاً للدعوة . وحمل الدعوة من بعده ولده احمد ، وسير الحسين الى العراق ، وهنالك استطاع مع صحبه الدعاة أن يمهد لاضرام الشرارة الأولى فى تلك الثورة الملحدة، ونعنى ثورة القرامطة التى ابتدأت فى جنوب العراق فى حدود الثمانين (سنة ٢٨٠ هـ) على يد الفرج بن عثمان القاشانى المعروف بذكرويه ، وحمدان بن الأشعث المعروف بقرمط وهو الذى تنسب اليه القرامطة . وكانت الدعوة قد اجتاحت جنوب فارس كله ، وانسابت الى البحرين والاحساء ؛ وعاث القرامطة حينا فى جنوب العراق ، وغزوا الشأم غير مرة ، واستقرت دولتهم بعد ذلك فى البحرين فى أواخر القرن الثالث ؛ وعصفت مبادؤهم الاباحية الملحدة بالعالم الاسلامى ، وهزوا بغزواتهم العنيفة أسس الدولة العباسية ، ولبثوا مدى حين خطراً على الشأم ومصر حسبما بينا .

وخلف احمد بن عبد الله بن ميمون فى حمل الدعوة الباطنية ابنه الحسين ثم أخوه محمد المعروف بأبى الشلعلع ؛ وكانت الدعوة قد ثبتت واستقرت ، وقويت شوكة أئمتها ودعاتها ، وكثرت أموالهم ورسلهم ؛ وبعث محمد بدعاته الى المغرب وعلى رأسهم أبو عبد الله الحسين بن احمد المعروف بالشيعى ، فنشر الدعوة هنالك وأخذ يبشر بظهور الامام المهدى المنتظر ؛ ثم قام بالدعوة سعيد بن الحسين ؛ ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين إن سعيداً هذا ليس ولد الحسين ، وإنما هو ولد زوجه اليهودية رباه ولقنه أسرار الدعوة ، واختاره للزعامة والامامة من بعده (٢) ؛ وسعيد هذا هو الذى فر الى المغرب ، حينما همت السلطات بالقبض عليه وإخماد دعوته ؛ ففر الى مصر ومنها الى إفريقية ، وهنالك زعم أنه من ولد جعفر الصادق

---

(١) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٢٣

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٢) بيد أنه يأبى تصديق هذه الرواية ويحاول نقضها ؛ وراجع أيضاً ابو الفدا ج ٢ ص ٦٤

أو بالحرى من ولد على وفاطمه وتسمى بعبيد الله المهدى أبى محمد ، وزعم أنه الامام المنتظر : وكان أبو عبدالله الشيعى قد مهد له سبيل الدعوة ، واجتذب اليه عدة من القبائل القوية ؛ فاستطاع عبيد الله بعد خطوب وأحداث جمة أن ينتزع لنفسه ملك الأغالبة ، وأن يؤسس دولة العبيديين أو الدولة الفاطمية بافريقية (سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٩م) ؛ وتوطدت دعائم الدولة الجديدة بسرعة ، ولم تلبث أن غلبت على المغرب كله ؛ ثم افتتحت مصر ، واتخذتها مستقراً ومنزلا (٣٥٩ - ٣٦٣) (١)

هكذا نشأت الدعوة الباطنية أو الاسماعيلية الفاطمية وتطورت ؛ وهكذا تسوق معظم الروايات الاسلامية نسبة دعاتها العبيديين أو الفاطميين ؛ وقد عرضنا الى هذه النقطة فيما تقدم ، وأشرنا الى مختلف الروايات في نسبة بنى عبيد خلفاء الدولة الفاطمية ، وأبدينا أننا نؤثر الأخذ برأى المنكرين لنسبتهم الى آل البيت(٢) . بيد أن الذى يهم هنا هو أن الدعوة الفاطمية السرية انما هى الدعوة الباطنية بذاتها ، وهى دعوة ابن ميمون السرية بموضوعها ومراتبها ، وهى التى قامت عليها ثورة القرامطة الاباحية ؛ وقد نعت الباطنية بالمشرق بالقرامطة والمزدكية والملحدة دلالة على اتحاد دعوتهم ومبادئهم (٣) ؛ وكان القرامطة يلقنون الدعوة لأنصارهم حسبما فصلناها ؛ ويورد النويرى عن الشريف أبى الحسن الدعوة بنصها ومراتبها التسع منسوبة الى القرامطة (٤) ، وفى ذلك دليل أيضا على اتحاد الدعويين

وقد استظل القرامطة فى بدء أمرهم بلواء الامامة الفاطمية ودعوا لها مذ قامت بافريقية ، واستمد زعماؤهم منها العهد (٥) ؛ وشملتهم الخلافة الفاطمية بتأييدها ورعايتها الروحية تعضيداً لهم فى وثباتهم بالدولة العباسية خصيمتها المذهبية والسياسية ؛ فلما خرج القرامطة عن كل حد ، وزاد عيثهم وسفكهم ؛ وغزوا مكة ، وفتكوا بالحاج واقتحموا البيت الحرام ، ولما ذهبوا فى جرأتهم الى مهاجمة الدولة الفاطمية

(١) راجع المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ١٥٨ و ٢٣٣ و ٢٣٤ ؛ واتعاظ الحنفاء ص ١٢ - ١٥ ، ونهاية الأرب ٢٦ ص ٢٢ و ٢٣

(٢) راجع ص ٣١ - ٣٣ من هذا الكتاب

(٣) الشهرستانى ج ٢ ص ٢٩

(٤) نهاية الأرب ج ٢٣ - ١ ص ٥٩ وما بعدها

(٥) اتعاظ الحنفاء ص ١٣٣

ذاتها فى الشأم ، وانتزعوا منها دمشق ، وهاجموها في مصر منزلها الجديد ، تنكرت لهم ، وانكرت ثورتهم ، وتبرأت منهم ؛ وفى الكتاب الذى بعث به المعز لدين الله الى الحسن الأعصم زعيم القرامطة حين زحفه على مصر ، والذى يورد لنا المقريزى نصه ، ما يلقى ضياء على طبيعة هذه العلائق وتطورها ؛ ففيه ينوه المعز بما له ولآبائه من صفة الامامة ، ويشير الى ما كان لهم من الولاية والوصاية على زعماء القرامطة أسلاف الحسن ، والى ما كانوا ينشدون من رعاية الأئمة الفاطميين وبركاتهم ، وأنهم لم ينتصروا على جيوش الدولة العباسية الا بفضل هذه الرعاية الروحية ، وينعى على الحسن خروجه ونكثه ، ويتوعده بسوء العاقبة (١)

وفي هذا الكتاب أيضا يشير المعز لدين الله في تلك العبارة القوية الى عناية الخلافة الفاطمية ببث دعوتها في مختلف الأقطار ، « فما من جزيرة فى الأرض ولا اقليم الا ولنافيه حجج ودعاة يدعون الينا ، ويدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا بتصاريف اللغات واختلاف الألسن ، وفى كل جزيرة واقليم رجال منهم يفقهون ، وعنهم يأخذون ، وهو قول الله عز وجل : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم »(٢)

وكفى بهذه الشهادة الرسمية دليلا على ما كانت ترتبه الخلافة الفاطمية من عظيم الأهمية على بث دعوتها المذهبية واتخاذها وسيلة نافذة لحشد المؤمنين والكافة تحت لوائها

* * *

ولقد جاء قيام دار الحكمة متوجاً لهذه السياسة التقليدية ؛ ومع أن مجالس القصر ألغيت ثم أعيدت غير مرة فان دار الحكمة استمرت عصرا فى تأدية رسالتها الخطيرة ، تبث العقائد والمبادىء الفاطمية الخفية والظاهرة ؛ وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثرا فى توجيه الحركة الروحية فى مصر ؛ بيد أنها لم توفق الى تحقيق الغاية التى عملت لها ولم تستطع بالأخص أن تطبع المجتمع المصرى بطابع عميق من الفكرة المذهبية التى كانت مستقرها ومبعثها . وكانت جهودها بالعكس عاملا فى

---

(١) راجع نص هذه الوثيقة بأكمله فى اتعاظ الحنفاء ص ١٣٢ – ١٤٣ ، وقد اثبتناه فى آخر الكتاب
(٢) اتعاظ الحنفاء ص ١٣٩

بث أسباب السخط على تلك السياسة التى رسمت للاستئثار بتوجيه العقائد والضمائر ، وبث مبادىء الانكار والالحاد ؛ واضطرت الخلافة الفاطمية غير بعيد أن تعدل عن هذا الاغراق فى بث العقائد المذهبية ؛ وفى عصر المستنصر بالله اضطربت شؤون الدعوة السرية كما اضطربت جميع شؤون الخلافة الفاطمية ، وفقدت دار الحكمة كثيراً من نفوذها وأهميتها ، فلا نكاد نقع على ذكرها فى هذا العصر ؛ ثم انتهى أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بالغائها واغلاقها فى أوائل القرن السادس ، أيام الآمر بأحكام الله (٤٩٧ – ٥٢٤هـ) لما أثارته يومئذ من المجادلات المذهبية العنيفة ؛ وأعادها المأمون البطائحى وزير الآمر سنة ٥١٧ هـ على نمط المدارس العادية واستبعدت منها مجالس الحكمة والدعوة السرية ؛ فاستمرت بشكلها الجديد حتى نهاية الدولة الفاطمية (١)

تلك هى أطوار الدعوة السرية الفاطمية ، وتلك وسائل الخلافة الفاطمية فى تنظيمها وبثها؛ وقد كانت مجالس القصر ودار الحكمة أغرب تلك الوسائل وأسطعها ؛ وكان تنظيم الخلافة الفاطمية لدعوتها المذهبية على هذا النحو المدهش مما يشهد لها بكثير من الفطنة والبراعة فى سبر أغوار المجتمع وتفهم عقليته ؛ وإذا كانت مجالس الحكمة لم تحقق كل غايتها فلا ريب أنها قد فعلت كثيراً لتوطيد الدولة الفاطمية ، وتوطيد إمامتها المذهبية وسلطانها السياسى ، كما فعلت كثيراً لتقويض الدعوات المذهبية الخصيمة ؛ ولكنها ألقت فى الوقت نفسه سحباً كثيفة من الريب على عقيدة الفاطميين الدينية .

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣١٧ و ٣٣٥

الفصل الثالث

النظريات والرســـائل الإلحادية

تحول الدعوة الفاطمية الى وجهة جديدة ، كتب الدعاة السرية . أصول مذهبهم . فكرة الحلول فى الاسلام . مزاعم ابن سبا . مزاعم الرافضة والامامية . الرجعة عند الفاطميين . تطبيق فكرة الحلول . المقنع الخراسانى . رسـائل حمزة بن على . وصف الحاكم بالنعوت الالهية . كيف يبسط مذهبه . حملته على الاسـلام . إشارته الى مجالس الحكمة . تأويله لأصول الاسلام. تلقبه بهادى المستجيبين. بدء عهد قائم الزمان. استعراض لرسائل حمزه . إشارته الى اشتراك الحاكم فى وضعها . شرحه لفكرة الألوهية . حـديثه عن القرامطة والامامية . أقواله الرمزية . ما ينسب للدعوة من المبادىء الاباحية . موقف الحاكم من هذه الدعوة . استعراض حمزة لتصرفات الحاكم وتعليله لها . انتحاله لصفة النبوة . مقارنات تاريخية . استمرار الدعوة بعد اختفاء الحاكم . أكابر الدعاة . الحدود الخمسة . الرسـائل الالحادية الأخرى خلاصة محتوياتها . ما كتبه حمزة منها . ما كتبه الدعاة . رسـائل المقتنى . رسائل أخرى

كانت هذه المرحلة الأولى التى اجتازتها الدعوة الفاطمية السرية منذ نشأتها حتى عصر الحاكم بأمر الله مرحلة عامة ترمى فيها الى غايات عامة شاملة حسبما بينا ؛ ولكنها تنحرف في عصر الحاكم الى ناحيـة خاصة ، وتقصد فوق غاياتها الأصلية الى غاية خاصة ، ثم تسفر غير بعيد عن نتائج عرضية مدهشة لم تنشدها الخلافة الفاطمية ولم تعمل لها ؛ وانما عمل لها رهط من الدعاة المغامرين الذين ألفوا فى معترك الدعوة السرية الفاطمية ، وفيما بلغته فى عصر الحاكم من القوة والاضطرام ، وألفوا فى ظروف العصر ذاته ، وفيما سرى الى المجتمع يومئذ من عوامل الاضطراب الفكرى والروحى ، مهداً خصباً للمغامرة ، وافساد العقول والضمائر ، وإضرام نار فتنة دينية من نوع جديد

وقد عرضنا فى فصل سابق الى أولئك الدعاة المغامرين الذين احتشدوا بمصر فى ذلك العهد ، وعلى رأسهم حمزة بن على الزوزنى ، والحسن الفرغانى الملقب

بالأخرم ، ومحمد بن اسماعيل الدرزى ، وما أذاعوا يومئذ فى المجتمع المصرى من دعوات ومزاعم جريئة ، وما أثاروا بأعمالهم ومزاعمهم من الحوادث والفتن الدموية ، وسنحاول هنا أن نستعرض طبيعة هذه الدعوة الالحادية وخواصها ، وما كان لها من نتائج وآثار مدهشة ؛ واذا كانت الرواية الاسلامية لم تعن بالافاضة فى شأنها . ولم تحاول أن تبسط لنا أصولها وقواعدها ، كما فعلت بمبادىء الفرق الثورية الأخرى ، فانه قد انتهت الينا لحسن الحظ طائفة من الوثائق الهامة التى تلقى كبير ضوء على حقيقة هذه الدعوة ، وعلى نظمها وتطورها ، وعلى شخصية أولئك الدعاة وحركاتهم ومبادئهم ومزاعمهم التى بشروا بها ، واتخذوها مادة لانشاء عقيدة جديدة ودين جديد ما يزال قائماً الى يومنا

ولهذه الوثائق أهمية خاصة فى هذا التعريف . ذلك ان معظمها من إنشاء كبير الدعاة وزعيمهم حمزة بن على ذاته ؛ وفيها يستعرض حمزة كثيراً من أصول دعوته ، ويؤيدها بمختلف الشروح والمقارنات ، ويتحدث عن وسائله في بثها ، وعن معاونيه من أكابر الدعاة الذين أوفدهم الى مختلف الأقطار ؛ فهى من هذه الناحية تعتبر انجيلا لهذه الدعوة الالحادية التى تقوم في جوهرها على الزعم بالوهية الحاكم بأمر الله حسبما قدمنا ؛ بيد أن لهذه الوثائق أهمية تاريخية أيضاً ، اذ توجد بينها طائفة من الرسائل التى تشير الى بعض أحداث العصر ومسائله ؛ وتعرض لنا في شأنها وجهات نظر خاصة لم يعن بها المؤرخ العادى ؛ وهى بذلك تلقى ضياء خاصاً على بعض النواحى الغامضة فى عصر الحاكم بأمر الله

وتحتفظ دار الكتب المصرية بطائفة من هذه الوثائق فى عدة مجموعات خطية ، بيد أنها ليست كل ما انتهى الينا منها ؛ وفي مكتبة باريس الوطنية مجموعة أتم وأوفى ؛ بيد أنه مما يدعو الى الغبطة ان مجموعة دار الكتب تحتوى على عدة من رسائل الدعوة الأصلية ، وهى أهمها جميعاً ؛ وسيكون حديثنا عن هذه الوثائق شاملا ، وسنبين خلال الحديث ما لدينا منها ، وما وفقنا الى الاطلاع عليه من غيرها

— ١ —

رأينا فيما تقدم كيف ثارت الفتنة الدينية بمصر حينما جاهر الدعاة بمذهبهم فى المسجد الجامع (١) ، وكيف طورد الدعاة ومزق شملهم ، وتوارى زعيمهم

---

(١) هو جامع عمرو

حمزة بن على ، وفر زميله وداعيته الدرزى أو انوشتكين الى الشأم ؛ وكيف انتشرت دعوتهم بعد ذلك فى الشأم ، فكانت أصل مذهب الدروز الشهير . واذن فمذهب الدروز مستمد فى الواقع من دعوة حمزة وتعاليمه ، وهو بذلك شعبة من الدعوة السرية الفاطمية حسبما صاغها حمزة وتلاميذه ؛ وحمزة هو فى الحقيقة مؤسس مذهب الدروز ، وهو رسولهم « وهاديهم » كما سنرى

ونستطيع أن نلخص مذهب حمزة أو مذهب الدروز في نقط جوهرية ثلاث :

الأولى : التناسخ ، فمذهبهم أو دينهم ينسخ جميع الأديان والشرائع السابقة ، وهو فى زعمهم خاتمة الأديان واليه منتهى الهداية والايمان ، وان الحاكم بأمر الله هو بذلك « ناطق النطقاء » جاء بعد النطقاء الستة الذين تقدموه وكان آخرهم محمد ؛ وهو قائم الزمان جاء بعد السبعة الصمت الذين جاءوا بعد محمد (١)

والثانية : الحلول أو حلول الروح ؛ فروح آدم أصل البشر قد انتقلت الى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على الى الحاكم بأمر الله

والثالثة : ألوهية الحاكم بأمر الله ، فالحاكم ليس انساناً كباقى البشر ؛ ولكن الروح الالهية حلت به واتخذت صورته ؛ وهذا هو فى الواقع أساس المذهب وعماده الجوهرى

ونرى قبل أن نبسط دعوة حمزة بن على كما يصوغها لنا فى رسائله ، أن نقول إن حمزة لم يكن أول مبتكر لهذه النظرية الالحادية المدهشة ، وهى فكرة حلول الألوهية فى انسان من البشر ؛ فهى أولا فكرة الحلول النصرانية كما هو معروف ؛ وقد صاغها قبله أكثر من داعية فى الاسلام ؛ ففى عصر على بن أبى طلب ذاته ، حينما بدأت الدعوة الشيعية ، قام عبد الله بن وهب بن سبا المعروف بابن السوداء وبالسبائى ودعا لعلى بالامامة ، وأنه وحى النبى وخليفته فى أمته ، وأن يعود بعد موته ؛ فنفاه على وأحرق عدة من دعاته ؛ ولما قتل على زعم ابن سبا أن علياً لم يمت وأنه حى حلت فيه الصفة الألهية ، وأنه هو الذى يجىء فى السحاب ، والرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه لابد أن ينزل الى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جوراً ؛ وقد كان مذهب ابن سبا مبعث الغلاة من الرافضة ؛ ومثله يقول الامامية من الشيعة

(١) راجع ص ١٦٨ من هذا الكتاب

برجعة الامام وبالمهدى المنتظر ، وأنه يظهر فى آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، على اختلاف بينهم فى تعيين هذا الامام المنتظر ؛ وعلى أساس هذه الفكرة أيضاً يقول الامامية بأن الجزء الالهى يحل فى الأئمة بعد على ، وأنهم استحقوا الامامة بطريق الوجوب ؛ وهى من أصول الدعوة الفاطمية ، وبها يقول الخلفاء الفاطميون فى ظهور أولهم عبيد الله المهدى[1] ؛ بل نرى فكرة الرجعة هذه فى وثيقة فاطمية رسمية ، هى رسالة المعز لدين الله الى زعيم القرامطة ، وهى التى أشرنا اليها فيما تقدم ، إذ يقول فيها : « فما من جزيرة فى الأرض ولا أقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا » [2]

وقد لبثت هذه النظرية الحلولية تتردد بين آن وآخر فى بيئات الثورة على الاسلام، وكان من أسطع الأمثلة فى تطبيقها ظهور المقنع الخراسانى فى منتصف القرن الثانى للهجرة ؛ فقد ظهر هذا الداعية ، وكان قصاراً من أهل مرو واسمه هاشم بن حكيم ، وكان دميا شنيع الخلقة يخفى وجهه بقناع من الذهب ، وادعى الألوهية وأن الله حل أولا فى صورة آدم ، ثم فى صورة نوح ، ثم ترددت صورته فى الأنبياء حتى محمد ، ثم حلت فى شخص على ، وانتقلت الى أبى مسلم الخراسانى، ثم حلت فيه أى فى المقنع . وقد ذاعت هذه الدعوة الجريئة بين القبائل التركية البدوية فى شمال فارس ، ولبث المقنع أعواما طويلة يغالب جنود الخلافة التى جردت لمحاربته ، ولما انتهت بمحاصرته فى قلعته المنيعة فى « بستام » ورأى الا مناص من الموت أحرق نفسه مع جماعة من أتباعه (سنة ١٦١ هـ) ، ولم توجد جثته ولا حطامه ، فزاد أصحابه ـ وهم المقنعية أو المبيضة ـ فيه فتنة وقالوا رفع الى السماء [3]

والآن لنر كيف يبسط لنا حمزة بن على دعوته فى رسائله . ولنبدأ بالمجموعة الأولى ؛ وهى التى تعتبر متن الدعوة وانجيلها . وتوجد من هذه الوثيقة نسخة خطية بدار الكتب [4] ، لدينا منها نسخة فتوغرافية ، بيد أنها تنقص رسالتين عن نسخة باريس

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ١٨٢ ، والفرق بين الفرق ص١٥ و٤٤ و ٤٥

(٢) اتعاظ الحنفاء ص١٤٠

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ١٣ و ١٧ والفرق بين الفرق ص ٢٤٣ و ٢٤٤

(٤) يحمل هذا المخطوط رقم ١٣٣ عقائد النحل

الأولى عنوانها : « نسخة السجل الذى وجد معلقا على المشاهد فى غيبة مولانا الامام الحاكم » ، وهو الذى تحدثنا عنه فيما تقدم ؛ وفيه يشرح حمزة أسباب غيبة الحاكم ؛ ويعلل اختفاءه بغضبه على أمته لما اقترفت من الآثام والخطايا ، رغم ما أفاض عليها من فضله ونعمه ، واعتزامه أن يتركها تهيم فى الضلال والغواية ؛ ويتخذ من بعض تصرفاته أدلة على هذا الغضب ، ثم يحذر المؤمنين من البحث عنه أو استقصاء آثاره ، ويقول إنه سيظهر ويعود لأمته حين تحل الساعة . وقد ذيلت هذه الرسالة بتاريخ كتابتها وهو شهر ذى الحجة سنة ٤١١ ﻫ ، أى عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل

والثانية عنوانها : « السجل المنهى فيه عن الخمر » ، وفيها يتحدث عن مرسوم تحريم النبيذ وحكمة ذلك التحريم ؛ وتاريخها ذو القعدة سنة ٤٠٠ ﻫ ، وهو التاريخ الذى صدر فيه مرسوم التحريم للمرة الثانية

وتأتى بعد ذلك ثالثة الرسائل وعنوانها : « خبر اليهود والنصارى » وفيها خلاصة للمناقشات التى يقول إنها جرت بين الحاكم بأمر الله وبين اليهود والنصارى حول دعوته اياهم للدخول فى شريعته ؛ وهذه الرسالة تنقصها فى مخطوط دار الكتب بضع صفحات ؛ وقد أشرنا الى محتوياتها فيما تقدم (١)

ثم تأتى بعدها صورة خطاب بعث به زعيم القرامطة الى الحاكم بأمر الله ورد الحاكم عليه

بعد ذلك يبدأ متن الدعوة وأصولها الحقيقية . ويفتتح الداعى (حمزة) رسائله بما يسميه « ميثاق ولى الزمان » وهو نص العهد الذى وضعه لأولياء الدعوة كى يقطعوه على أنفسهم عند اعتناقها ، وفيه التبرؤ من جميع الأديان الأولى والتعهد بالدعوة للدين الجديد أى عبادة الحاكم (٢) ؛ ويليه « الكتاب المعروف بالنقض الخفى » يرفعه الداعى الى « الحضرة اللاهوتية » وفيه يحدثنا عن أصل العالمين وبدء الخليقة فى عبارة غامضة ، ويقول إن أصل العالم هو البرودة والحرارة ؛ ويقدم لنا بعد ذلك خلاصة موجزة عن معركة على ومعاوية ، وبدء الحركة الشيعية ؛ ثم يصف الحاكم بأنه :

---

(١) راجع ص ٩٣ من هذا الكتاب

(٢) راجع ص ١١ — ١٣ من المخطوط المشار اليه ، وقد أثبتنا نص هذا الميثاق فى قسم الوثائق فى نهاية الكتاب

« مولانا القائم بذاته ، المنفرد عن مبتدعاته ، جل ذكره ؛ أورا العالم قدرة لاهوتية مالم يقدر عليه ناطق فى عصره ، ولا أساس فى دهره » (١) . ويفتتح حمزة جميع رسائله بتوجيه النعوت الألهية الى الحاكم فيسميه « مولانا البار العلام ، العلى الأعلى ، حاكم الحكام ، من لايدخل فى الخواطر والأوهام ، جل ذكره عن وصف الواصفين... » وأمثالها من النعوت المغرقة ؛ ويسميه فى جميع مراحل الدعوة « قائم الزمان » ، و« ناطق النطقاء » . ويعرض الداعى بعد ذلك في عنف وجرأة الى قواعد الاسلام ، والى ما يلقى بشأنها فى مجالس الحكمة الفاطمية ؛ وهنا نستطيع أن نظفر بلمحة جديدة من الضياء على موضوعات تلك المجالس السرية الشهيرة من أحد أكابر دعاتها ؛ وأول ما نعرف هو أن السرية كانت قاعدة أساسية لهذه المجالس ، وان من يجرؤ على افشاء مناقشاتها يعتبر منافقا وخارجا يستحق اللعنة والعقاب (٢) . ويتناول الداعى هنا بعض النقط والشروح الخاصة ؛ فيحدثنا عن الزكاة مثلا بأنها في الحقيقة ليست كما تلقى الى الناس ، بل هى الاعتراف بولاية على بن أبى طالب والأئمة من ذريته ، والتبرى من أعدائه أبى بكر وعثمان ، وأن معناه الباطن هو في الحقيقة « توحيد مولانا جل ذكره ، وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعاً ، وترك ما كنتم عليه قديماً » (٣) ؛ وعن الصوم بأنه من الناحية الباطنة ، صيانة القلوب بتوحيد مولانا جل ذكره . أما الحج ورسومه فيحمل عليها الداعى بشدة ويصفها بأنها « من ضروب الجنون » ؛ وليس أدل على ذلك من أن « قائم الزمان » (الحاكم) قد قطع الحج والكسوة النبوية أعواماً طويلة ؛ ومعنى الحج فى الحقيقة والباطن « هو توحيد مولانا » (٤) . وأما ترك الحاكم للصلاة والنحر (فى عيد الأضحى) فهو تحليل ذلك للعباد ؛ وقد أبطل الحاكم صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر ، وأسقط الزكاة ، ومعنى ذلك أنه يحل للعباد (عباده) أن يقتدوا به فى ذلك « اذ كان اليه المنتهى ، ومنه الابتدا في جميع الأمور » (٥)

---

(١) ص ٢٥ من المخطوط

(٢) ص ٣٩ من المخطوط

(٣) ص ٣٥ من المخطوط

(٤) ص ٤٤ من المخطوط

(٥) ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٤ من المخطوط

ويؤرخ الداعى هذا القسم التمهيدى من دعوته بشهر صفر سنة ثمان وأربعمائة من الهجرة (٤٠٨ هـ) ، ويقول لنا إن هذه السنة « هى أول سنين ظهور عبد مولانا ، ومملوكه ، هادى المستجيبين ، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره . . . الخ » ومعنى ذلك أن حمزة بن على كان ينتحل فوق صفة الداعى ، صفة النبوة والرسالة ، وهو بهذه الصفة « هادى المستجيبين » ، والواقع أنه ينتحل هذه الصفة فى جميع أحاديثه ؛ وهو يرجع بدء رسالته الى هذا التاريخ . وقد ذكرنا فيما تقدم أن حمزة ظهر بدعوته فى القاهرة فى أواخر سنة ٤٠٧ أو أوائل سنة ٤٠٨ هـ ؛ وفى بعض الروايات أنه ظهر بعد هذا التاريخ فى سنة ٤٠٩ أو ٤١٠ (١) ، وهو ما تنقضه أقوال الداعى ومنطق الحوادث ذاته . بيد أنه لاريب فى أن حمزة كان يبث دعوته سراً قبل ذلك بعدة أعوام؛ واذن فسنة ٤٠٨ هـ هى بدء الرسالة ، وهى «أول سنين قائم الزمان » أعنى بدء الدعوة بألوهية الحاكم بأمر الله ، حسبما يقول الداعى فى رسالته المسماة « بدء التوحيد لدعوة الحق » ؛ وهى أيضاً بدء تاريخ الدروز المقدس (سنة ١٠١٧ م)

وفى رسالة « التوحيد لدعوة الحق » يدعو حمزة صراحة الى « الوهية » الحاكم ، ويحاول أن يبرر إبطاله لأحكام الشريعة بأن محمداً قد نسخ كل الشرائع السالفة فكذلك ينسخ الحاكم بأمر الله شريعة محمد وينشىء له شريعة خاصة (٢) ، وهذا هو لب المذهب وعماده كما بينا . وفى الرسالة التالية وهى « ميثاق النساء » يتحدث الداعى عن واجبات النساء في الطاعة والتوحيد والبعد عن الفساد والدنس ، وألا يشغلن قلوبهن بغير توحيد « مولانا » ، وأن يكن سادقات وفيات فى طاعته ، وأن يتركن ما كن عليه من قبل (٣) ؛ وفى رسالة « البلاغ والنهاية فى التوحيد » يوصى الداعى بعبادة الحاكم والاقرار بوحدته ، ويقول إنه رفعها بنفسه الى « الحضرة اللاهوتية » في شهر المحرم الثانى من سنيه المباركة (المحرم سنة ٤٠٩) ، وأنها نسخت عن خط قائم

---

(١) أخبار الدول المنقطعة ، وتاريخ الانطاكى ص ٢٢٣

(٢) ص ٥٣ و ٥٤ من المخطوط

(٣) يجدر بنا أن نشير هنا الى أن حمزة وباقى الدعاة يكتبون كلمة الصدق وكل ما اشتق منها بالسين فيقولون السدق ، والسادق ، وحقاً وسدقا ، وغيرها ، وذلك لتأويلات معينة يزعمونها (راجع ص ٧٣ من المخطوط)

الزمان بغير تحريف ولا تبديل (١) . وفى هذا العبارة ما يستوقف النظر : ذلك انها قد تعنى أن الحاكم بأمر الله اشترك مع الداعى فى وضع هذه الرسائل أو أنها وضعت بأشرافه ، وانه كان من وراء الدعاة يرعى الدعوة ويشجعها بنفسه : فهل يقول حمزة حقا ، أم أنه يحاول فقط أن يسبغ بهذا الزعم قوة على دعوته فى نظر الأولياء والكافة ؟ وفى هذه الرسالة التى تنسب للحاكم يعرض حمزة ثانى المبادىء الجوهرية فى مذهبه وهو مبدأ الحلول ، فيزعم أنه من الخطأ أن يعتبر الحاكم ابناً للعزيز أو ينعت بأنه أبو على : ذلك انه فى زعمه هو « المولى سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان » وأنه يظهر فى صورة بشرية « كيف شاء وحيث شاء »(٢). ثم يحاول الداعى فى الرسالة التالية ، وعنوانها « الغاية والنصيحة » أن يقيم المفاضلة بين الاسلام أو دين محمد والدين الجديد ؛ وفى الرسالة التى عنوانها « كتاب فيه حقائق ما يظهر » يحاول أن يبرر بعض تصرفات الحاكم حسبما نفصل بعد ؛ وفى الرسالة التالية وهى « السيرة المستقيمة » يحدثنا عن آدم وأصل الخليقة ، ويقول لنا إن القرامطة هم الاسماعيلية فى عرف الفرس ، وأنهم هم الموحدون ، وفى هذا القول دليل آخر على ما هنالك من علاقة أو وحدة بين دعوة القرامطة والدعوة الفاطمية السرية (٣) ، ثم يحدثنا عن تعاقب الشرائع ، ويزعم أن الأسلام قام بالعنف والسيف، وأن الشريعة الأسلامية اختتمت بمحمد بن اسماعيل، وأن آخر خلفاء اسماعيل هو عبيد الله المهدى (مؤسس الدولة الفاطمية) وأن القائم هو الحاكم(٤) ؛ وفى الرسالة الموسومة «بكشف الحقائق» يلجأ الداعى الى العبارات الرمزية ويقول « والآن فقد دارت الأدوار ، وظهر ما كان مخفيا من مذهب الأبرار ، وبان للعاملين ما جعلوه تحت الجدار ، وعادت الدائرة الى نقطة البيكار ، فألفت هذا الكتاب بتأييد مولانا البار ، الحاكم القهار ، العلى الجبار سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار ، وسميته كشف الحقائق » . فهل يكون عنوان الرسالة ، وهو كشف الحقائق ، عنوانا لهذه المجموعة من رسائل حمزة وشروحه ؟ هذا ماتدلى به عبارة الداعى . وفى هذه الرسالة يزعم الداعى أن الأله بشرياً كل

(١) ص ٧٤ من المخطوط
(٢) ص ٨٦ من المخطوط
(٣) ص ١٨٧ من المخطوط
(٤) ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٨ من المخطوط

ويشرب ، وليس كما زعموا من التجرد عن الصفات البشرية ؛ وفى الرسالة التالية والأخيرة وعنوانها « سبب الأسباب » يتخذ الداعى صفة الهادى والمعلم الأكبر بتفويض مولاه ؛ ويفند أقوال بعض المنكرين لدعوته

هذا ومما يجدر ذلك أنه فضلا عما ذهبت اليه الدعوة من ابطال فروض الاسلام الأساسية كالصلاة والصوم والزكاة والحج ونسخ الشريعة الاسلامية كلها ، فان بعض الروايات تنسب اليها طائفة أخرى من المبادىء الاباحية المثيرة مثل إباحة الخمر والزنا ونكاح البنات والأمهات والأخوات ، واباحة أموال المخالفين ودمائهم(١) وهذه مبادىء القرامطة الاباحية بلا ريب ، وقد طبقت فى مجتمع القرامطة مدى حين ، وذكرها داعية القرامطة عبيد الله بن الحسن القيروانى في رسالته الى زعيم القرامطة سليمان بن الحسن الجنابى ، وهى الرسالة التى أشرنا اليها فيما تقدم . ويقول هذا الداعية عن مسألة عشرة المحارم فى رسالته ما يأتى : « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى . ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى ، ما وجه ذلك الا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذى يزعمونه ، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار . . . الخ »(٢) . وقد ردد كثير من المؤرخين المعاصرين والمتأخرين هذه التهم ، بل يرددها البحث الحديث أيضاً(٣)؛ بيد أننا لم نجد فى رسائل حمزة ما يدل على أنه دعا الى مثل هذه المبادىء المثيرة ، أو انها طبقت بالفعل فى مجتمع الملاحدة ، كما طبقت فى مجتمع القرامطة ، اذا استثنينا ما يتعلق باباحة أموال المخالفين ودمائهم ؛ بل نرى بالعكس حمزة يدعو النساء الى العفة والحصانة والتجمل بالخلق الفاضل ، « والتبرى من كل عيب ودنس . . . وأن يجنبن أنفسهن عن الشهوات والشبهات وارتكاب الفواحش

---

(١) تاريخ الانطاكى ص ٢٢٣ ؛ والذهبى (المخطوط) مجلد ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١ ، ومرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) الجزء المشار اليه ص ٤٠٥ وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ والعميد ابن المكين ص ٢٦٥

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٨١

(٣) سلسفتر دى ساسى فى كتابه عن الدروز (ج ٢ ص ٧٠٠)

والمنكرات ، لينتفعن بايمانهن » ويشير الى « المؤمنات الحافظات لما فرض عليهن ، المحصنات الا لبعولتهن » ويحرم الخلوة على الداعي بامرأة بمفردها خشية الفتنة والشك ، ويدعو الى حجاب المرأة وحشمتها ورصانتها (١) ؛ ولم يسمع في عصرنا عن طائفة الدروز وهم بقية أولياء الدعوة انهم يعتنقون هذه المبادىء الاباحية في عشرة المحارم ؛ بل المعروف انهم يحرمون الخمر ، ويتمسكون بحجب المرأة وحشمتها ؛ والظاهر ان هذه الاباحية أو ان شيئاً منها ما يزال يمثل في طائفة النصيرية ، وهي طائفة باطنية أخرى نشير اليها فيما بعد

ومن جهة أخرى فليس ثمة ما يدل على ان الدعوة الفاطمية الأصلية قد انحدرت في وقت ما الى مثل هذه الاباحية الاجتماعية المروعة ، وان رماها بذلك خصومها العباسيون في محاضر القدح الرسمية التي سبقت الاشارة اليها (٢)

هذه خلاصة موجزة لتلك الدعوة الالحادية الغريبة التي اضطلع بها ذلك الداعية المغامر حمزة بن علي ، والتي كادت تحدث عند ظهورها ثغرة خطيرة في صرح الاسلام ومبادئه الحقيقية كتلك التي أحدثتها فورة القرامطة قبل ذلك بنحو قرن والتي قامت حسبما يزعم الدعاة بتأييد الحاكم ورعايته . والواقع أنه من الصعب أن نحدد مركز الحاكم إزاء هذه الدعوة التي انتحلت من شخصيته عماداً ، وزعمت أنها ترفعه الى قدس الألوهية ؛ بيد أن في منطق الحوادث ، وملخص الرواية ، ما يدل على أن الدعاة كانوا يتمتعون في بث دعوتهم بالرعاية الرسمية ، وأن الحاكم كان يعنى بحمايتهم من شر الخصومة والمطاردة ؛ وقد يكون أيضاً أنه كان يرقب بثها ويتتبع سيرها بعين الرضى ، وأنه ربما كان يمد الدعاة بالمال والنصح ؛ بيد أنه ليس ثمة ما يدل على أنه اشترك في انشائها وصياغتها كما يزعم الداعي في أكثر من موضع في رسائله.

— ٢ —

وليست الشروح الكلامية هي كل ما يعنى به الداعي ؛ فهو يعنى خلالها بأن يستعرض تصرفات الحاكم بأمر الله ، ويحاول أن يدافع عما يطبعها من الشذوذ

---

(١) راجع رسالة حمزة الموسومة « بميثاق النساء » في المخطوط المشار اليه ص ٦٨ – ٧٢

(٢) رددت هذه التهم في محضر القدح الرسمي الذي وضعه بلاط بغداد طعناً في حق الخلفاء الفاطميين (راجع ص ٣٣ من هذا الكتاب)

والتناقض ، وأن يفسرها بما يلائم دعوته ويؤيدها . أجل لقد كان في تصرفات هذا الذهن الهائم المضطرم ما يبعث على التأمل ، وما يجب أن يحمل لا على الشذوذ والتخريف ، ولكن على الحكمة والسمو الى ما لا يرتفع الذهن العادى الى فهمه وتعليل بواطنه : هكذا يقدم الداعى الينا تصرفات مولاه الحاكم ؛ فاذا كان الحاكم قد ترك الصلاة والنحر ، وإذا كان قد أبطل صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر ، وأسقط الزكاة عن الناس ؛ فمعناه تحليل ذلك للكافة(١) ؛ وإذا كان الحاكم يتبع أحياناً سياسة الاضطهاد بالنسبة للنصارى واليهود ، فذلك لأنه يريد أن يهلك المرتدين والمارقين ، ومن بقى منهم يؤدون الجزية ، وهم اليهود ، ويجب عليهم وعلى النصارى المرتدين عن التوحيد ، وهم المنافقون ، أن يلبسوا أزياء خاصة ، وأن يعلقوا فى في صدورهم وآذانهم أثقالا خاصة من الرصاص(٢) ؛ واذا كان الحاكم يؤثر التقشف فى مأكله وملبسه وركوبه ، فيركب الحمير مجردة من الديباج والحلى الذهبية ، فذلك لحكمة باطنة يؤولها الداعى بآيات من القرآن ، ويفسرها بدلائل رمزية غامضة(٣)؛ واذا كان الحاكم يخرج من سرداب القصر الى البستان ، واذا كان يرتاد بستان المقس وغيره من بساتين القاهرة ، ويطوف أحياناً فى المدينة ، فذلك أيضاً لحكم باطنة لا تدركها الكافة ؛ وما يرتكبه أهل الفساد بجوار هذه البساتين من ضروب الفحشاء والمنكر انما يرتكب فى طاعته(٤). وما يرتكبه الحاكم من ضروب البطش والسفك؟ انه مظهر لسطوة الحاكم « الالهية » ، فهو يفتك بأكابر الدولة دون خوف ولا حرج كما فعل مع برجوان ، ووزيره ابن عمار ، ومع آخرين من الأكابر والزعماء ؛ ثم هو يخرج بالليل دون ركب ولا سلاح ، لا يخشى نقمة ولا اعتداء ، ويخمد كل ثورة وخروج عليه ، وكثيراً ما ينفرد بنفسه فى « جب الصحراء » دون خوف من أحد من عسكره أو بطانته ، وتلك أعمال وصفات ليست للبشر !

هكذا يفسر لنا حمزة أعمال الحاكم وتصرفاته ؛ فما اعتبره المعاصرون شذوذاً واسرافا ثم جنونا فى بعض الأحيان ، وما تسمه الرواية بميسم التناقض والاغراق

(١) ص ٢٩ - ٤٣ من المخطوط

(٢) ص ١٠١ من المخطوط

(٣) ص ١٤٧ أو ١٤٨ من المخطوط

(٤) ص ١٥٠ ، والظاهر أن بعض محال اللهو والقصف كانت تقع بجوار هذه البساتين

والتخريف أحيانا ، انما هو فى زعم الداعى السمو فوق مدارك البشر ، والتمتع بصفات ليست للبشر ؛ ومهما يكن فى ذلك التفسير من غلو وتخريف ، فهو محاولة سفسطائية جريئة لتبرير ما لم تبرره الشرائع والمجتمع ، وما لم يبرره التاريخ

ثم إن حمزة لا يقف عند الدعوة لسيده ومولاه ، بل يدعو لنفسه أيضا ؛ فاذا كان الحاكم هو «الاله» فان الداعى هو رسوله ونبيه ، ومن ثم فان حمزة الذى يتسمى خلال رسائله «بهادى المستجيبين» كما رأينا ، ينتحل النبوة صراحة ، ويزعم أن هذه النبوة قد أيدت بالمعجزات التى أسبغها عليه مولاه الحاكم(١). ألم يشتبك عشرون من رجاله مع مائتين من عسكر خصومه ، فلا يقتل من أصحابه سوى ثلاثة ، وينهزم الخصوم ؟ ألم تنشب موقعة أخرى فى المسجد بين قلة من أنصاره وكثرة من خصومه فينتصر الصحب دائما ؟ (٢) فهذه أعمال تخرج عن طاقة البشر ، وهى من معجزات الداعى!

***

وقد كتبت هذه الرسائل التى هى متن الدعوة وأساسها بين صفر سنة ٤٠٨ ، وأواخر سنة ٤٠٩ هـ ؛ وسنة ٤٠٨ (١٠١٧ م) هى كما رأينا أولى سنى قائم الزمان (الحاكم) وأولى سنى ظهور حمزة «عبده ومملوكه هادى المستجيبين» ولكن الحاكم زهق فى أواخر شوال سنة ٤١١ ، فماذا حدث لتلك الدعوة بعد ذهابه ؟ لقد كان اختفاء الحاكم على ذلك النحو الغامض مستقى جديداً للدعاة ، فأذاعوا أنه اختفى ليظهر فى وقت آخر ، وأنه رفع الى السماء ، وأن فى هذا الاختفاء ذاته ما يؤيد الزعم بالوهيته (٣) ، وأذاع حمزة رسالته الشهيرة (السجل) عن اختفاء الحاكم ، وعلل اختفاءه بغضبه على أمته لما اقترفت من الآثام ، وبشر برجعته حين تحل الساعة ؛ ووجه الداعى الى أهل الشام فى ذلك الشأن رسالة خاصة عنوانها «الغيبة» يناشد الموحدين فيها أن يحرصوا على ولائهم وعهدهم ، ويزعم أن الاله سيظهر فى صورة بشرية أخرى(٤)؛ ومعنى ذلك أن الدعوة لم تخمد باختفاء الحاكم ، بل اتخذ هذا الاختفاء وسيلة لاذكائها كما قدمنا ، ومن المحقق أنها استمرت بعد ذلك عصراً آخر ؛ بل

---

(١) ص ١٣٠ من المخطوط

(٢) ص ١٣٣ من المخطوط

(٣) راجع ص ١٤٢ من هذا الكتاب

(٤) وردت هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب المحفوظة برقم ٥٤ عقائد النحل

هنالك مايدل على أن حمزة بن على لبث قائما بدعوته بعد الاختفاء مدى أعوام ؛ فنى مجموعة خطية أخرى تحتفظ بها دار الكتب ، عدة رسائل أخرى تتعلق بالدعوة ودعاتها ، ويبدو من موضوعها وأسلوبها وألفاظها أنها ربما كانت من تأليف حمزة ابن على ذاته ، وقد ذيلت بتواريخ وضعها في جمادى الآخرة من سنى ولى الحق العاشرة ، وفى صفر سنة احدى عشرة من سنى قائم الزمان ، وفى السنة الرابعة عشرة من سنى قائم الزمان ... الخ : وعهد قائم الزمان يبتدىء كما تقدم في سنة ٤٠٨ هـ ، ومن ثم فقد كتبت هذه الرسائل بين سنة ٤١٨ و ٤٢٢ هـ[١]

وقد رأينا أن حمزة اختفى حين اضطرام الفتنة بالقاهرة فى أوائل سنة ٤١١ هـ ، ولم يعرف مصيره بوجه التحقيق ؛ ولعله لبث مختفياً بمصر مدى حين ، كما تدل على ذلك لهجة رسالته عن اختفاء الحاكم ؛ والظاهر أنه قصد الى الشام حيث كانت الدعوة قد سبقته ، وأخذت تنتظم وتتوطد فى حوران ، ولعله ارتد الى وطنه فارس معقل الدعوة السرية الباطنية ، ولبث هنالك متصلا برسله ودعاته فى الشام

وعلى أى حال فليس من ريب فى أن الدعوة استمرت على يد رسل حمزة وأكابر دعاته ؛ ويذكر حمزة لنا فى رسائله الأخرى أسماء بعض هؤلاء الزعماء الذين اصطفاهم للوكالة عنه ؛ فنى رسالة عنوانها « نسخة سجل المجتبى » يوجه الكلام الى «أخيه وصهره» أبى ابراهيم اسماعيل بن محمد التميمى ، ويقول لنا إنه اختاره ليكون خليفته على سائر الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين ، ويسميه «صفوة المستجيبين ، وكهف الموحدين » ، وفى رسالة أخرى عنوانها « تقليد الرضى سفير القدرة » ، يختار المدعو عبد الله بن محمد بن وهب القرشى ، ويلقبه « بسفير القدرة ، فخر الموحدين ، وعماد المستجيبين » ؛ وفى ثالثة وهى رسالة المقتنى يختار أبا الحسن على بن أحمد السموقى ، ويكنى بالمقتنى بهاء الدين ليكون « جناحه الأيسر » ؛ وأما « جناحه الأيمن » فهو سلامة بن عبد الوهاب . ويعرف حمزة وهؤلاء الأربعة بالحدود الخمسة المعصومين ؛ وقد كان هؤلاء هم أقطاب الدعاة بلا ريب يتولون مناصب الزعامة والاشراف ، وكان مقدمهم وكبيرهم اسماعيل بن محمد التميمى ، شاعراً يصوغ الدعوة ويشيد بها في قصائده ، وله قصيدة طويلة عنوانها « شعر النفس » يشيد فيها

(١) توجد هذه الرسائل ضمن المجموعة المحفوظة برقم ٥٤ عقائد النحل

بقدس الحاكم وخواصه الالهية (١) ، وله أيضاً عدة رسائل أخرى فى تأييد الدعوة وشرحها . وكان ثمة الى جانب هؤلاء الرؤساء الأقطاب عدة كبيرة من الدعاة والرسل مثل عبد الله اللواتى ، ومبارك بن على ، وأبو منصور البردعى ، وأبو جعفر الحبال ، وغيرهم ممن وردت أسماؤهم فى رسائل الدعوة ؛ وكان لكل داعية جهة أو منطقة خاصة يختص ببث الدعوة فيها مع نقبائه ومعاونيه ؛ وهكذا كان جيش حقيق من هؤلاء الدعاة السريين يغمر الأمم والعواصم الاسلامية ، ويحمل اليها جراثيم الالحاد والثورة على الاسلام

— ٣ —

هنالك طائفة كبيرة أخرى من الرسائل الالحادية التى وضعها حمزة وصحبه في شرح الدعوة وتأييدها ، وفى التعليق على بعض حوادث العصر ، وهى تربى على المائة ، ولدينا منها بدار الكتب أكثر من سبعين رسالة ، في مجموعات أربع (٢) غير المجموعة التى شرحناها والتى تتضمن متن الدعوة وأصولها ، وهى بقلم حمزة بن على فقيه الدعوة وامامها

ويشترك حمزة أيضاً فى وضع كثير من هذه الرسائل الأخرى ، بيد أن منها ما كتبه زملاؤه ومعاونوه من أقطاب الدعاة ؛ وقد رأينا استكمالا للبحث أن نستعرض طائفة من هذه الرسائل بايجاز

وأهم المجموعات الأربع فيما يظهر هى المجموعة التى تحمل رقم ٥٤ عقائد النحل ؛ وهى تضم زهاء ثلاثين رسالة منها بعض رسائل حمزة التى شرحناها ؛ وتفتتح برسالة عنوانها « الرسالة الدامغة للفاسق . الرد على النصيرى لعنه المولى فى كل كور ودور » ، وفيها رد وتفنيد لمزاعم هذا الداعية الخصيم أعني النصيرى (٣) وتليها « الرسالة الموسومة بالرضى والتسليم » ، وفيها حملة شديدة على الدرزى وبعض أتباعه الذين خرجوا على حمزة ؛ و « رسالة التنزيه » ، وفيها ذكر خمسة من أقطاب الدعوة ، وذكر خمسة يقابلونهم من خصومها ؛ و « رسالة النساء الكبيرة » ، وفيها

(١) توجد هذه القصيدة ضمن المجموعة المشار اليها

(٢) تحمل هذه المجموعات الارقام الآتية ٥٤ و ٣٥ و ٢٠ و ١٣٨ عقائد النحل

(٣) لا نعرف من هو « النصيرى » هذا الذى يحمل عليه الداعى فى هذه الرسالة ، والذى تنسب اليه طائفة النصيرية فيما يظهر

ما يفرض على النساء اتباعه ؛ و «الصيحة الكامنة » وفيها شرح لبعض المعارك التى وقعت بين الدعاة وخصومهم ؛ و «نسخة سجل المجتبى» و «تقليد الرضى سفير القدرة» و « تقليد المقتنى » وفيها يقلد حمزة بعض زملائه وكالته حسبما قدمنا ؛ و « رسالة الى أهل الكدية البيضا » و « شرط الامام صاحب الكشف » وفيها شرح أحكام الطلاق بين الموحدين ؛ و « رسالة خمار بن جيش السليمانى» ، وفيها طعن شديد على خمار هذا ؛ و « الرسالة المنفذة الى القاضى » ، وهى موجهة الى قاضى القضاة ابن أبى العوام ، وفيها يناقشه الداعى فى معرفة نفسه ، ويسخر من آرائه ويتوعده بالويل ، وقد كان ابن أبى العوام من خصوم الدعاة ؛ و « المناجاة ، مناجاة ولى الحق » وفيها نص أدعية وصلوات موجهة الى الحاكم ؛ و «الدعاء المستجاب » وفيها أيضاً دعاء وصلاة ؛ و « التقديس دعاء السادقين ، دعاء لنجاة الموحدين والعارفين» وعنوانها ينم عن موضوعها ؛ و « ذكر معرفة الامام ، وأسماء الحدود العلوية روحانياً وجسمانياً » وفيها ذكر لصفات الامام الروحية والجسمية ، وذكر لمقدمى الدعاة المأذونين ؛ و « رسالة التحذير والتنبيه » وفيها ينوه حمزة بدعوته وأهمية رسالته ، وبما سيلقى المنكرون من ضروب العقاب ؛ و «الرسالة الموسومة بالاعذار والانذار » وفيها يخاطب حمزة بعض الخوارج على الدعوة ويدعوهم للعودة الى الحق ؛ و « رسالة الغيبة » وهى من الرسائل الهامة ، وبقلم المقتنى فيما يرجح ، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بقليل ، وفيها يخاطب الداعى أهل الشأم ، ويناشد الموحدين أن يحرصوا على ولائهم وعهدهم ، ويبشرهم بظهور الاله فى صورة بشرية أخرى ؛ و « كتاب فيه سير العلوم ، واثبات الحق وكشف المكنون » وفيها تقسيم للعلوم وتصنيف لها بقلم زعيم الدعاة الملقب بالروح ، وهو اسماعيل بن محمد التميمى ؛ و « رسالة الشمعة » وهى بقلمه أيضاً ، وفيها يقارن الدعاة الرؤساء الخمسة بأجزاء الشمعة الخمسة ؛ ورسالة « الرشد والهداية » بقلم الروح أيضاً ، وفيها نصح وتحذير للموحدين ؛ و « شعر النفس » وهى قصيدة لاسماعيل التميمى أو الروح ، وهى التى أشرنا اليها فيما تقدم وفيها يشيد الشاعر بخواص الحاكم « الالهية » ؛ ثم تختتم المجموعة برسالة عن الفرائض المقررة ، ودعاء يتلى فى سبيل معرفة الامام

وقد كتبت معظم الرسائل المتقدمة بقلم حمزة بن على حسبما ينص فى كثير منها ،

بيد أنها هنالك عدة منها كتبت بقلم صهره وكبير دعاته اسماعيل التميمى

وأما المجموعة الثانية ، وهى التى تحمل رقم ٣٥ عقائد النحل فتحتوى على اثنتى عشرة رسالة، وتوصف فى أولها بأنها «الجزء الأول من سبعة أجزاء» توضع لتفسير مذهب الداعى فى إمامة القائم ، ويبدو من موضوعاتها وأسلوبها أن معظمها قد كتب بقلم حمزة ؛ وتفتتح « بالرسالة الموسومة بالتنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوفيق » وهى موجهة الى اثنين من الدعاة المنكرين هما معد بن محمد وطاهر بن تميم ، وفيها يسدى الداعى نصحه ويقول انه تجب المجاهرة بدين التوحيد أثناء غيبة الحاكم ؛ وتاريخ هذه الرسالة ، هو السنة الرابعة عشرة من سنى قائم الزمان (٤٢٢ ﻫ) وتليها عدة رسائل بتقليد منصب الدعوة الى بعض الدعاة ، ولا سيما الداعى سكين الذى انتخب ليتقلد أمر الدعوة فى الشأم والذى مثل من بعد دوراً فى رجعة الحاكم ؛ ثم تليها « الرسالة الموسومة بالتعنيف والتهجين» وفيها يوجه النصح والتحذير الى جماعة من زعماء قبيلة كتامة ؛ ورسالة موجهة لأهل الوادى ؛ ثم رسالة هامة عنوانها « الرسالة الموسومة بالقسطنطينية المنفذة الى قسطنطين متملك النصرانية » وفيها يدعو الداعى قسطنطين ابن ارمانوس قيصر قسطنطينية⁽¹⁾ ورجال دولته وأحبار كنيسته الى دعوته ويفند عقائدهم بأسلوب ينم عن تمكنه من موضوعه ، وتاريخ هذه الرسالة السنة الحادية عشرة من سنى قائم الزمان (٤١٩ ﻫ) ؛ وتليها الرسالة المسيحية وهى موجهة الى النصارى أيضاً ؛ ثم « الرسالة الموسومة بالتعقب والافتقاد ازاء ما بقى علينا من هدم شريعة النصارى الفسقة الأضداد» وقد وجهت أيضاً الى أحد أمراء قسطنطينية وهو ميخائيل بافلاجونين زوج الأمبراطورة زوى» وفيها يحمل الداعى على النصارى حملة شديدة ويؤيد أقواله بنصوص كثيرة من الانجيل وبها تختتم المجموعة

وتختلف تواريخ هذه الرسائل بين السنة العاشرة ، والسنة الرابعة عشرة من سنى ولى الحكم أو سنى قائم الزمان ، أعنى بين سنتى ٤١٨ و ٤٢٢ ﻫ ، فاذا صح أن منها ماهو من وضع حمزة ، فان حمزة يكون قد استمر بعد اختفاء الحاكم عدة أعوام أخرى يشرف على الدعوة ويغذيها بقلمه وجهوده

وتضم المجموعة الثالثة ⁽²⁾ ـ وقد حصلت عليها دار الكتب أخيراً ـ ثلاث

(١) هو القيصر قسطنطين الثامن ابن رومانوس الثانى وقد حكم من سنة ١٠٢٥ الى سنة ١٠٢٨ م

(٢) تحفظ هذه المجموعة بدار الكتب تحت رقم ١٣٨ عقائد النحل

عشرة رسالة ، كتب معظمها بقلم المقتنى حسبما نص فيها ؛ وأولاها « الرسالة الموسومة بالايقاظ والبشارة لأهل الغفلة وآل الحق والطهارة » وفيها يوجه الداعى الحديث الى أهل العراق وأهل فارس ، ويبشرهم بظهور حمزة ، وقد كتبت في السنة الخامسة عشرة من ظهور قائم الزمان (سنة ٤٢٣ ﻫ) ؛ والثانية هى « الرسالة الموسومة بالحقائق والانذار والتأديب لجميع الخلائق » ، وهى بقلم المقتنى وفيها يوجه الكلام الى أهل الشام والعراق ويحمل على دخلاء الدعوة الذين أضلوا المؤمنين بمزاعمهم الخاطئة ، وتاريخها السنة السابعة عشرة من سنى قائم الزمان ؛ والثالثة هى « الرسالة الموسومة بالشافية لنفوس الموحدين » وهى بقلم المقتنى أيضاً ؛ والرابعة « رسالة العرب » وهى موجهة الى أهل الشام والعراق والحجاز واليمن والى بعض زعماء العرب ، وقد أرخت سنة ٤٢٢ ﻫ ؛ والخامسة « رسالة اليمن وهداية النفوس الطاهرات ولم الشمل وجمع الشتات » وتاريخها السنة السابعة عشرة من سنى قائم الزمان ، وفيها يوجه الداعى الخطاب الى أهل اليمن ؛ والسادسة « رسالة الهند » وهى موجهة الى الموحدين فى الهند ، وتاريخها السنة السابعة لقائم الزمان ؛ والسابعة الموسومة « بالتقريع والبيان واقامة الحجة لولى الزمان » وهى موجهة الى أهل مصر والقاهرة ؛ والثامنة « الرسالة الموسومة بتأديب الولد العاق من الأولاد » ؛ والتاسعة « الرسالة الموسومة بالقاصعة للفرعون الدعى » ، وهى بقلم المقتنى ، وقد أرخت فى السنة الثامنة عشرة لقائم الزمان ، وفيها يحمل الداعى على بعض خصومه ؛ والعاشرة وعنوانها « كتاب الى اليقظان » وهى بقلم المقتنى أيضا وفيها يطلب الى بعض معاونيه أن يدرس أحوال بعض المؤمنين ؛ والحادية عشرة وهى « الرسالة الموسومة بتمييز الموحدين الطائعين من حزب العصاة الفسقة الناكثين » وهى بقلم المقتنى أيضا ؛ والثانية عشرة وعنوانها « من دون قائم الزمان والهادى الى طاعة الرحمن » ؛ والثالثة عشرة والأخيرة « رسالة السفر الى السادة فى الدعوة لطاعة ولى الحق الامام القائم المنتظر » ، وهى بقلم المقتنى ، وقد أرخت بالسنة الثانية والعشرين من سنى قائم الزمان أعنى سنة ٤٣٠ ﻫ ، وفيها يوجه الداعى الكلام الى شيوخ البحرين ، بقية القرامطة ؛ وفى تاريخها المتأخر ما يدل على أن المقتنى لبث بعد اختفاء إمامه حمزة قائما بالدعوة حتى أوائل عهد المستنصر بالله

والمجموعة الرابعة ، وهى التى تحمل رقم ٢٠ عقائد النحل تحتوى على عدة شروح دينية وفقهية شيعية عن بعض المسائل والصفات كالصدق والدعاء والتحذير والنميمة والتقديس والاعذار وغيرها ، وذكر لبعض الوقائع التى حدثت للدعاة ؛ وهى بلا عنوان ولا خاتمة ، وهى ترتبط في موضوعاتها بما تقدم من الرسائل ارتباطاً شديداً ؛ بيد أنه يبدو من أسلوبها ولهجتها أنها ليست من تأليف حمزة ؛ وفى ركاكة أسلوبها وتفكيرها ما يحمل على الاعتقاد بأنها كتبت بقلم احد أصاغر الدعاة ؛ وأهم ما فيها هو رسالة « الغيبة » التى سبقت الاشارة اليها ، والرسالة التى أرسلت الى ولى العهد عبد الرحيم بن الياس وهو في دمشق وفيها ينصح اليه الداعى بأن يرفع القناع وأن يظهر عبادة الحاكم وأن يعترف بألوهيته ، وألا يتقرب اليه بنسب ما

هذا ما تحتفظ به دار الكتب المصرية من رسائل حمزة بن على وأصحابه ، وفيها كثير مما يلقى ضياء على أصول هذه الدعوة الالحادية الغريبة التى استحالت منذ عصره الى عقيدة جديدة ، ومذهب جديد هو مذهب الدروز

بيد أن مجموعة باريس تحتوى على طائفة كبيرة أخرى من هذه الرسائل ومنها عدة بقلم حمزة بن على ؛ ومنها ماهو بأقلام بعض أكابر الدعاة ؛ ولا يتسع المقام هنا لتناولها وتعدادها جميعاً ؛ خصوصاً وأنها ذات أهمية ثانوية بالنسبة لما استعرضناه من رسائل الدعاة الأساسية : ولهذا نكتفى بأن نشير هنا الى بعضها مما يتعلق ببعض المسائل والموضوعات الهامة

فمنها عدة رسائل وجهت الى العراق والشام والحجاز واليمن والى أهل مصر باعتناق الدعوة أيضاً ؛ وعدة رسائل أخرى موجهة الى بعض الدعاة الذين انقلبوا على المذهب يحمل عليهم فيها وتفند أقوالهم ومطاعنهم ؛ وقد كتب معظم هذه الرسائل بقلم داعية من أكابر الدعاة هو « المقتنى » ، والظاهر أنه هو الذى تولى بعد اختفاء حمزة مهمة الرد على خصومه ومقارعتهم الحجة فيما ينكرون من دعوته ؛ وفيها مايوضح ما أصاب الدعوة بعد اختفاء حمزة من الانقسام والتفرق ، وما وقع بين الدعاة من ضروب النقاش والجدل

وقد استعرض المستشرق دى ساسى في كتابه عن مذهب الدروز عناوين هذه الرسائل وملخص موضوعاتها وهى تبلغ زهاء الستين(١)

---

(١) De Sacy; Ibid; ; V. I. p. 475 et suiv.

الفصل الرابع

مذهب الدروز

إغراق الدعوة الالحادية . كون الدعاة من الاجانب . فارس مهد الثورة على الاسلام . مقاومة المجتمع المصرى للدعوة . مذهب الدروز . مبادؤهم الجوهرية . تظاهرهم بمختلف الأديان . موقفهم من الاسلام . دعوى الألوهية البشرية . كيف يشرحها الداعى . الدروز والقرآن . حرصهم على كتمان عقائدهم . العقلاء والجهلاء . اجتماع الخلوات . بعض صفات العقلاء . بعض رسومهم فى الزواج والمواريث . اجازتهم للرهبنة . استسلامهم للقدر . الدروز ليسوا عرباً . من هو مؤسس المذهب الحقيق . حمزة والدرزى . حمزة امام المذهب الحقيق . ضعف الدعوة وسقمها . تبرؤ مصر والخلافة الفاطمية منها . سجل التبرء فى عهد الخليفة الظاهر . طائفة النصيرية

هذا ماوسع المقام عرضه من أصول تلك الدعوة الالحادية الغريبة التى وضعها حمزة بن على وصحبه ، وهذا ماوسع استعراضه من وثائقها وشروحها ؛ وإنها لصفحة من أغرب صفحات الثورة على الاسلام ، وأشدها غلوا واغراقا ؛ ولقد عرف الاسلام منذ عصره الأول كثيرا من هذه الحركات الثورية الملحدة ، السرية والعلنية؛ وعرف كثيرا من الفرق الخارجة المنكرة التى يستظل معظمها بلواء الشيعة والامامة؛ وقد كانت النبوة فى كثير من الأحيان مثار الجدل أو موضع الادعاء ؛ ولكن هذه الحركات أو الفرق الثورية لم تذهب قط الى ما ذهب اليه اولئك الدعاة المغرقون الذين حاولوا فى جرأة مدهشة أن يرفعوا الى قدس الالوهية انسانا من البشر ، وأن يجعلوا من دعوتهم دينا جديدا يدعون كافة البشر الى اعتناقه ؛ واذا كان اولئك الدعاة قد استظلوا بلواء الخلافة الفاطمية ، وبدأوا دعوتهم شعبة من الدعوة السرية الفاطمية ، ورفعوا فوق عرش الوهيتهم المزعومة خليفة فاطميا ؛ فان الدعوة السرية الفاطمية على ما يطبعها من الانكار والالحاد المطبق ، وماتذهب اليه من التناسخ فى الشرائع ، ١ لم تذهب الى هذا الحد من الاغراق ، والتهجم على قدس الالوهية ؛ بل هنالك مايدل

على أن الدعوة الفاطمية كانت تنكر هذه الدعوة الالحادية الجديدة ، وتخاصمها ؛ وكان أصحاب حمزة أو أصحاب الهادى اذا لقوا أصحاب داعى الدعاة — وهو يومئذ حتكين — لعن بعضهم بعضها ، ورمى كل فريق صاحبه بالمروق والكفر (١)

ونلاحظ من جهة أخرى أن معظم أولئك الدعاة الذين اضطلعوا ببث هذه الدعوة الالحادية المغرقة فى مصر ، لم يكونوا من المصريين ؛ بل كانوا من الأجانب الذين اجتذبتهم الخلافة الفاطمية ببهائها ومشاريعها السرية ؛ وقد كان كبيرهم حمزة بن على فارسيا من أبناء ذلك الشعب الفارسى الذى يضطرم بغضاً للاسلام والعرب ، والذى وقف جهوده مدى قرون لمناوأة الاسلام الظافر وتقويض أسسه وسلطانه السياسى ، ورمى الاسلام بمعظم الدعاة السريين والملاحدة الذين عملوا باسمه لهدم مبادئه وعقائده ؛ وكان الحسن الفرغانى فارسياً كذلك ، وكان الدرزى تركياً أو فارسياً غامض النشأة(٢) ؛ ومن الصعب أن نعتقد أن هذه العصبة الخفية كانت تعمل مستقلة ، وانها كانت مبتكرة تعمل لحساب نفسها ؛ وأغلب الظن انها كانت تعمل لحساب تلك الحركة الثورية الخفية التى كانت فارس مركزها وملاذها ، والتى أضرمت من قبل فورة القرامطة وعاونت على ظفر الدعوة السرية الفاطمية ، ولم تقنع فيما بعد بمسلك الخلافة الفاطمية ، وسياستها المستقلة ، وتوفرها على توطيد ملكها السياسى ، فأرادت أن تعمل على اضرام ثورة جديدة فى العالم الأسلامى ، وأن تقوض صرح الاسلام بتقويض مبادئه ، وأن تستأنف ثورة القرامطة المخربة بثورة أخرى ؛ ورأت فى ظروف مصر فى عصر الحاكم بأمر الله فرصة يجب انتهازها ، فبعثت الى مصر بدعاتها ورسلها يعملون فى ظل الدعوة الفاطمية وليدتها ، وكادت الدعوة أن تضرم بمصر أول شرارة فى الثورة المنشودة ؛ ولكن المجتمع المصرى لم يحسن استقبال أولئك الدعاة الخطرين ، بل قاومهم وفتك بشيعتهم ، واضطرهم غير بعيد الى الفرار ، ولم يستطع واحد منهم أن ينشىء له بمصر فرقة حقيقية من الأنصار والمؤمنين ؛ ولم تثمر الدعوة ثمرتها العملية إلا فى وهاد الشأم حيث انتظمت فى فرقة ثورية ملحدة جديدة هى طائفة الدروز التى مازالت قائمة الى يومنا ، والتى تضم زهاء مائتى ألف نفس يدينون الى اليوم بكثير من هذه المبادىء الألحادية المدهشة

---

(١) راجع تاريخ الانطاكى ص ٢٢٤

(٢) يقول الانطاكى أن الدرزى كان أعجمياً ، ص ٢٢٠

— ١ —

هذا ونرى أن نقدم ملخصا للأصول والقواعد التى يطبق بها اليوم مذهب حمزة بين أبناء طائفته أعنى الدروز؛ فهم على ما دعا اليه حمزة منذ أكثر من تسعة قرون ينكرون الالوهية فى ذاتها، ويعتقدون في الوهية الحاكم بأمر الله وفى رجعته آخر الزمان؛ ولهم فى تصورها أقوال مغرقة أشرنا اليها من قبل(١)؛ وينكرون الأنبياء والرسل جميعاً، وينكرون أصول الاسلام والنصرانية واليهودية، بيد أنهم ينتسبون ظاهراً الى الاسلام، ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمين، وأمام النصارى بأنهم نصارى (٢)؛ ويبغضون فى الباطن جميع أبناء الأديان الأخرى ولا سيما المسلمين، ويستبيحون دماءهم وأموالهم عند المقدرة، ويعتقدون أن الشياطين هم باقى الملل وأن العقلاء أو خيارهم هم الملائكة؛ ولا يأخذون بشىء من أصول الاسلام كالصوم والصلاة والزكاة والحج؛ بل ينكرون أصول الاسلام جميعها والشريعة الاسلامية كلها. والالوهية البشرية، وهى لب مذهبهم، عندهم منة المنن ونعمة النعم؛ وقد أشار إمامهم حمزة الى ذلك رسالته الموسومة برسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد إذ قال: « ولكنه سبحانه قد أظهر لكم بعض قدرته، وأسبغ عليكم نعمته بغير استحقاق تستحقونه عنده، ولا واجب لكم عليه بل أنعم عليكم بلطفه، وقربكم منه برحمته، وباشركم فى الصورة البشرية، والمشافهة لكم بالوعية لعلكم تدركون بعض ناسوته الأنسية على قدر حسب طاقتكم بمعرفة المقام وتنظرون اليه بنور التمام » (٣)

ويقول لنا الامام فى مواضع أخرى من نفس الرسالة فى تصوير الألوهية البشرية ما يأتى: « فالحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره ابن العزيز أو أبو على لأن مولانا سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان، يظهر في صورة بشرية، وصفة مرئية كيف يشاء؛ وانما تنظرون العلة التى فيكم بتغير أحوالكم تنظرون صورة أخرى؛ وهو سبحانه لا تغيره الدهور والأعوام والشهور، وانما يتغير عليكم بما فيه اصلاح شأنكم، وهو تغيير الاسم والصفة لا غير؛ وأفعاله جل ذكره تظهر من القوة الى الفعل كما يشاء كل يوم هو فى شأن، أى كل عصر فى صورة أخرى...

(١) راجع ص ١٤٧ من هذا الكتاب؛ وراجع رسائل حمزة فى المخطوط المشار اليه ص ٩٧ و ٩٨

(٢) دائرة المعارف الاسلامية: مقال المستشرق كارا دى فو عن الدروز

(٣) رسائل حمزة المشار اليها ص ٨٠

« ومثله فى الصورة لافى الحقيقة ، لأن حقيقته لاتدرك بوهم ، ولا يحيط بعلمه فهم ... فمثله كمثل شخص ناطق جسمانى وله روح لطيف ، متعلق بذلك الجسد الكثيف ، وله عقل يدير الأشياء بذلك العقل .. والعقل هو الروح اللطيف ، لكن اظهاره من الجسد الكثيف ، ولايقدر أحد يقول إن العقل يظهر بلاجسم ، لأن الروح لاتدرك الا بالجسم ؛ لذلك مولانا جل ذكره بظاهر ناسوته ، عرفنا بلاهوته لايدرك بالعين ، ولايعرف بالكيف والاين ، عالم بسركم من قبل أن يختلج في صدوركم سبحانه وتعالى عما يصفون .... »

ويعتقد الدروز فى تناسخ الأرواح وانتقالها الى الأحياء في صورة الانسان والحيوان ؛ ويقولون فى القرآن الكريم انه من صنع سلمان الفارسى الصحابى المشهور (١)

ويحرص الدروز أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية ، وينكرون مايؤخذ عليهم منها ، بل قد يذمونها أمام المعترضين رياء واستتاراً ، وهذه خاصة مأثورة للباطنية ؛ وقد رأينا فى حديثنا عن الدعوة السرية كيف كان الدعاة يتظاهرون أمام كل بما يوافق مشربه وعقيدته ، وهم يتبعون فى ذلك وصايا الأئمة ؛ وقد حرص الدروز على هذا الكتمان المطبق لأصول مذهبهم وعقائدهم طيلة القرون ، ولم تعرف خفايا مذهبهم الا منذ قرن حينما غزا ابراهيم باشا المصرى مناطقهم الجبلية ووقع الغزاة على بعض كتبهم المقدسة ، وعرفت محتوياتها ، واستطاع البحث الحديث أن يكشف عن كثير من حقائق هذا المذهب الغريب ؛ ومازال الكتمان الى اليوم عماد حياتهم الروحية . وينقسم المجتمع الدرزى من أجل ذلك الى طبقتين ؛ طبقة « العقال » أو العقلاء وطبقة الجهال ؛ والعاقلات والجاهلات بالنسبة للنساء ؛ وينقسم العقال الى طبقتين أرفعهما طبقة الخاصة وهى طبقة الثقاة ؛ وأما الجهال فهم الكافة الذين لايعرفون من المذهب سوى مظاهره البسيطة ؛ ويجتمع «العقال» في أبنية منعزلة

(١) هو من مشاهير الصحابة وكان فارسياً تنصر اولا ثم سار الى يثرب (المدنية) وقت الهجرة واعتنق الاسلام ، فقربه النبي واعتبره ممثل الفرس بين صحابته . وسلمان شخصية غامضة ، اشتغل بالصوفية وشؤون الفرق الاسلامية ، وقد ظهرت ميوله الشيعية غير بعيد ، وهو معظم عند الشيعة وقبره يزار الى اليوم فى ضواحى المداين القديمة ، ويعتبره النصيرية من أئمتهم ، وتنسب اليه أحياناً أمور خارقة ، والظاهر أنه كان من خصوم الاسلام الباطنيين . وقد توفى حوالى سنة ٣٥ ﻫ

فى أعلى الصوامع ، تسمى بالخلوات ، وفى القرى فى منازل سرية شيدت داخل المنازل الأصلية ، فيجتمعون ليلة الجمعة في ظاهر المنزل ، ويقرأون ما تيسر من المواعظ والحكم المذهبية ، ثم ينصرف الكافة ، ويختلى الخاصة فى البيت الداخلى ، وتغلق الأبواب ويتبادل العقال الافضاء والأسرار . ومن العقال طبقة تعرف بالمنزهين ، وهم أشد المؤمنين ورعاً وزهدا ، ومنهم من يصوم الدهر أو ينقطع عن الزواج أو يضرب عن أكل اللحم طول حياته ؛ ويتمتع العاقل ببعض الخلال الحسنة فلا يتناول الخمر ، ويلتزم الحشمة فى أحاديثه ، ويقتصد فى طعامه وشرابه ، وفي جميع ملاذ الحس والنفس ، لأن الاسراف نقيصة فى خلق الموحدين ؛ وللعقلاء شيخ تقليدى يرجعون إليه في أمور الدين ؛ ومن ينتظم في سلك العقال يجب عليه أن يوقع ميثاق ولى الزمان ، وهو الميثاق الذى وضعه حمزة إمام المذهب وأشرنا اليه فيما تقدم

ويجرى الزواج عند الدروز طبقاً للرسوم المعروفة لدى المسلمين من الخطبة والمهر ، ولا يجوز التزوج بأكثر من واحدة ما لم تطلق الأولى ؛ والطلاق عندهم سهل ميسور ، ولا ترد المطلقة بأى وجه ولو بعد زواجها من آخر ، وتحرص المرأة عندهم على الحجاب ، ولا تسفر حتى عن وجهها إلا عينا واحدة تبصر بها ، ويشتد استتارها من المطلق والخاطب ؛ والزنا عندهم جريمة لا تغتفر وتسقط مرتكبها الى الأبد ، ويقال إنه قد يباح الزواج بين الاخوة سراً رغم حظره قانوناً ، وهى مسألة عشرة المحارم التى أشرنا اليها من قبل (١) ؛ بيد أن هذا القول لا سند له من الواقع ؛ والأخت كالبنت والأم عند الدروز من المحارم ، وربما وقعت عشرة المحارم بين النصيرية وهم طائفة باطنية أخرى نشير اليها فيما بعد

ولا يتبع الدروز المواريث الاسلامية لانهم ينكرون أحكام الشريعة كما قدمنا ، ولكن الرجل عندهم يوصى بكل ماله لأحد أولاده ، والمرأة لا ترث شيئاً عن أبيها ، ولهم قواعد أخرى فى المواريث خاصة بهم (٢)

---

(١) هذا ما ذكره دى ساسى فى كتابه (ج ٢ ص ٧٠٠) بيد أنا نرتاب فى امكان وقوع مثل هذه المحرمات اليوم فى المجتمع الدرزى ، وهذا ما تؤكده كتب الدروز حسبما بينا ، وهذا ما أكده لنا بعض أصدقائنا من الدروز المستنيرين

(٢) استقينا بعض هذه المعلومات عن المجتمع الدرزى من كتاب مخطوط «عنوانه تاريخ جبل لبنان» (دار الكتب رقم ١٦ م) وفيه تفاصيل مفيدة عن عقائد الدروز وأحوالهم

ويجيز الدروز الرهبنة ، ومنهم رهبان وراهبات يعيشون في بساطة وتقشف ، ولهم فى نفوس المؤمنين مكانة كبيرة ، وهم يؤمنون بالقدر إيماناً شديداً ، ويستسلمون اليه فى كل أعمالهم وتصرفاتهم (١)

وينتسب الدروز الى العرب ؛ بيد أنه يوجد ريب فى هذه النسبة ؛ والظاهر أنهم من سلالة القدماء الذين سكنوا هذه الوهاد قبل الاسلام (٢) ؛ بيد أنهم يتصفون بكثير من الخلال العربية مثل الشجاعة والجود والتعلق بالأصول والانساب والاحساب

— ٢ —

وهنا تعرض نقطة ما تزال موضع الجدل وهي: من هو مؤسس مذهب الدروز الحقيق؟ ان اسم المذهب والطائفة مشتق من اسم الدرزى أعنى محمد بن اسماعيل المعروف بأنوشتكين ؛ ولكن ذلك الاشتقاق اللفظى لا يمكن أن يطغى على الحقيقة التاريخية . ذلك أن حمزة بن على فيما نعتقد هو مؤسس المذهب الحقيقي وهو واضع أصوله ومبادئه ، وهو صاحب متنه ورسائله حسبما بينا ؛ وقد وفد حمزة على مصر قبل مقدم الدرزى فيما يرجح ، ووضع أصول مذهبه وبشر بها منذ سنة ٤٠٨ ﻫ ، وهى فى مذهبه أولى سنى قائم الزمان ، أى الحاكم بأمر الله ، وأول سنى ظهور ولى الزمان عبده ومملوكه هادى المستجيبين ، أعنى حمزة ؛ وقد كان حمزة يرتب دعاته وينفذ رسله الى مختلف الأقطار الاسلامية لبث الدعوة ، وكان له رسله ودعاته فى الشام ؛ فلما وقعت الفتنة بالقاهرة ، فر الدرزى الى الشام في سنة ٤١١ ﻫ ، ونزل بأعمال بانياس وبث دعوته هنالك ، فاستجاب لها جمهور من الكافة ومالبثت أن انتظمت الى المذهب المسمى باسمه أعنى مذهب الدروز ؛ بيد أن هذه الواقعة ، أعنى نزوح الدرزى الى الشام ليست محققة من الوجهة التاريخية ، فهنالك أكثر من رواية بأنه قتل فى مصر ، وأن مقتله كان فى سنة ٤٠٨ ﻫ أثناء الفتنة (٣) ؛ ومن جهة أخرى فان الدعوة التى أذاعها الدرزى فى الشام ليست إلا دعوة حمزة بن على ذاتها ، حملها الدرزى وربما حور فيها أو أضاف اليها بعض مبادئه ؛ وقد كان الدرزى فى

(١) هذا مانقله الى صديق مستنير من الدروز

(٢) دائرة المعارف الاسلامية فى مقال البارون كارا دى فو عن الدروز

(٣) هذه هى رواية الانطاكى ص ٢٢٣ ، والمكين بن العميد ص ٢٦٤ ، ولرواية الانطاكى قيمة خاصة لأنه كان قريبا من العصر الذى وقعت فيه هذه الحوادث

الواقع من تلاميذ حمزة ودعاته ؛ وكان يسمى نفسه « سند الهادى » ، أى سند حمزة لأن الهادى هو حمزة ؛ ويشير حمزة فى رسائله الى ما كان بينه وبين الدرزى من علائق وخصومات ، وذلك فى « الرسالة الموسومة بالغاية والنصيحة » ففيها يحمل على الدرزى ،الذى هو « نشتكين » ويقول إنه « تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، وهو الضد الذى سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الامام ، ويدعى منزلته وكان (أى الدرزى) ، من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر ، وخرج من تحت الثوب ، والثوب هو الداعى ، والسترة التى أمره بها امامه حمزة بن على الهادى الى توحيد مولانا جل ذكره » ثم يقول إن الدرزى أنكر التعاليم وتمرد وأثار الجدل بينهما وغره ما كان يضربه من زغل الدنانير والدراهم (١) . ويبدو من ذلك جليا أن حمزة كان يقف من الدرزى موقف الامام والأستاذ ، وأن الدرزى خرج عليه وعلى مبادئه ، واستقل بعد ذلك ببث دعوته ؛ فاذا كنا نعتبر الدرزى بذلك مؤسسا لمذهب الدروز ، فيجب ألا ننسى ان حمزة هو أول من وضع متنه وقواعده ، وأول من صاغها وحملها ؛ ومن المحقق ان دعوته كانت ذائعة في الشأم قبل أن ينزح اليه الدرزى ، وان كان الدرزى قد أذكاها بمقدمه ، وأسبغ عليها صبغتها العملية ؛ وما زالت أصول دعوة حمزة هى أصول مذهب الدروز ؛ وقوامها التناسخ ، وحلول الروح ، والوهية الحاكم بأمر الله ، واعتباره قائم الزمان ، وانتظار عودته فى آخر الزمان ؛ ثم ان التاريخ الذى يتخذه حمزة بدءاً لدعوته ، وظهور قائم الزمان ، وهى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) هى نفس السنة التى اتخذها الدروز بدء تاريخهم المقدس ؛ وهى التى يؤرخ بها الدعاة من بعده دعواتهم ورسائلهم ؛ واذن فحمزة هو امام المذهب ومؤسسه الأول ، وان كانت حوادث العصر قد أسبغت على الدرزى فضل النسبة دونه ؛ هذا الى ان الدروز يسمون أنفسهم « بالموحدين » أيضاً ، وهو الاسم الذى يسبغه حمزة على صحبه فى معظم رسائله

ولا ريب ان حمزة بن على كان نموذجاً قوياً لأولئك الدعاة الملاحدة ؛ ففى تفكيره وآرائه وشروحه ما يشهد بكثير من الذكاء والبراعة ، ولكن انشاء دين

---

(١) راجع المخطوط رقم ١٣٣ عقائد النحل ص ١٣٥ - ١٢٨ . ويبدو من إشارة حمزة أن الدرزى كان يشتغل بضرب النقود ، وربما كان يتشغل منصباً فى دار الضرب أو ربما كان يشتغل بتزييفها لحسابه وحساب الدعاة

جديد ، والدعوة الى الوهية بشر ، محاولة تقصر عنها جهود أعظم الدعاة وأقوامهم ؛ ولم يكن حمزة مبتدعاً فى الواقع ، ولم يكن أول من جاهر بمثل هذه الآراء والمبادىء حسبما رأينا فيما تقدم ؛ وظاهر ان دعواه مزيج غير متسق من الشروح والأساطير الوثنية واليهودية والنصرانية والاسلامية ، وهى لا تحمل كثيراً من طابع الابتكار والطرافة ؛ وفى آرائه وتدليله كثير من ضروب التناقض والضعف ، ومن ثم فاننا نراه يلجأ الى الرموز والخفاء كلما أعيته الحجة شأن الدعاة المشعوذين فى كل عصر ؛ ثم هو فوق ذلك يقدم الينا دعوته فى أسلوب ركيك ينم عن ضعف بيانه العربى ، وان كان ينم مع ذلك عن تمكنه من بعض المباحث والشروح الدينية المقارنة

واذا كانت مصر قد لفظت هذه الدعوة المثيرة منذ البداية ، ولم يملقها ويغريها ان تنسب الألوهية الى واحد من أبنائها ومن خلفائها ، واذا كانت قد وثبت بالدعاة ومزقت شملهم ، وأخمدت فتنتهم فى مهدها ، فان الخلافة الفاطمية لم تلبث من جانبها أن جاهرت بانكارها وتبرئها من تلك الدعوة التى انسابت تحت جناحها بالرغم منها ، وكادت أن تصمها فى أنحاء العالم الاسلامى كله بأشنع وصمات الزيغ والالحاد؛ ولم تمض على وفاة الحاكم بأمر الله أعوام ثلاثة ، حتى كانت الخلافة الفاطمية قد سحقت هذه الحركة الخطرة ، وطهرت مصر من دعاتها ؛ وقد أوضحت لنا الخلافة الفاطمية موقفها من الدعوة والدعاة بعد الحاكم بأمر الله في وثيقة رسمية صدرت عن بلاط القاهرة سنة ٤١٤ هـ في أوائل عصر الظاهر لاعزاز دين الله ولد الحاكم، ونقلها الينا مؤرخ معاصر هو أبو هلال الصابى ؛ واليك بعض ماجاء فيها :

« وذهبت طائفة من النصيرية(١) الى الغلو فى أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان الله عليه، غلت وادعت فيه ماادعت النصارى فى المسيح ؛ ونجمت من هؤلاء

---

(١) النصيرية المشار اليهم هنا وفى رسائل الدعاة هم طائفة من الباطنية ما تزال منها اليوم بقية فى اللاذقية ، وطرابلس وحماة ودمشق ، وهم كالدروز يتظاهرون بالاسلام ؛ ويعتقدون فى ألوهية على بن أبى طالب ، وينقسمون كالدروز الى عقلاء وجهال ، ويعقدون مثلهم اجتماعاتهم الدينية السرية فى الخلوات، والمعروف أنهم يبيحون عشرة المحارم من البنات والأخوات ونساء بعضهم بعضا ، وعندهم ان المرأة لايكمل إيمانها إلا باباحة نفسها لأخيها المؤمن ، بيد أنها لاتبيح نفسها للأجنبى ، وهم يعتبرون المرأة كالحيوان مجردة عن النفس ؛ والظاهر أنهم يرجعون فى الاصل الى نفس الدعوة السرية التى اشتق منها مذهب الدروز ، ويعتنقون معظم المبادى الاباحية التى تنسب اليهم

الكفرة فرقة سخيفة العقول ، ضالة بجهلها عن سواء السبيل ، فغلوا فيناغلوا كبيراً ، وقالوا في آبائنا وأجدادنا منكرا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفظع ، الى مالا يليق بنا ذكره؛ وانا لنبرأ الى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال ، ونسأل الله أن يحسن معونتنا على اعزاز دينه ، وتوطيد قواعده وتمكينه ، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى وأبونا على المرتضى ، وأسلافنا البررة أعلام الهدى . وقد علمتم يامعشر أوليائنا ودعاتنا ماحكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق ، والفجرة المراق وتفريقنا لهم فى البلاد كل مفرق ، فظعنوا فى الآفاق هاربين ، وشردوا مطرودين خائفين»[1] . هذا ، وقد أعلن الظاهر فى السجل الذى أصدره بتبرئته من هذه المزاعم المغرقة التى قيلت فى أبيه وأسلافه ، اعترافه الى الله «بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتدارا ، ومربوبون اقتساراً لا يملكون لأنفسهم موتاً ولاحياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وأن جميع من خرج منهم عن حد الأمانة والعبودية لله عز وجل فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وأنه قد قدم انذاره لهم بالتوبة الى الله تعالى من كفرهم ، فمن أصر فسيف الحق يستأصله» (٢)

وفى ذلك دليل واضح على ما استشعرته الخلافة الفاطمية من خطر هذه الدعوات المغرقة على سمعتها وهيبة إمامتها ، وعلى جنوحها بعد ذهاب الحاكم بأمر الله الى الحرص فى سياستها المذهبية والعود الى تحفظها القديم .

---

(١) راجع هذه الوثيقة بأكملها فى النجوم الزاهرة (عن الصابى) ج ٤ ص ٢٤٩ و ٢٥٠
(٢) الانطاكى ص ٢٣٦

الكتاب الثالث

خواص العصر الفاطمى

السياسية والاجتماعية والعقلية

الفصل الأول

نظم الدولة الفاطمية

طرافة النظم الفاطمية . نشأة الوزارة . ابن كلس اول وزراء الدولة . الوساطة والسفارة . عود الوزارة . الألقاب الوزارية . الانقلاب الوزارى . بدر الجمالى . تغلب رجال السيف . الوزراء الطغاة . المناصب العسكرية والادارية . الدواوين . ديوان الانشاء . ديوان الجيش . ديوان الجهاد . الدواوين الأخرى . الخطط الدينية . قاضى القضاة . داعى الدعاة . المحتسب . بيت المال . وظائف القصر والخاص . الاساتذة المحنكون . نقابة الطالبيين . أقسام الدولة الادارية

كما أن الدولة الفاطمية تمتاز بصبغتها المذهبية العميقة ، فكذلك تمتاز بطرافة نظمها السياسية ؛ وقد كانت الدولة الفاطمية مبتكرة مجددة فى كثير من قواعد الحكم والادارة ، وفي كثير من الرسوم والنظم ؛ وكانت هذه النظم والرسوم فوق طرافتها الدستورية تطبعها نفس الصبغة الباذخة التى تطبع الدولة الفاطمية وسائر مظاهرها ؛ وسنحاول أن نأتى في هذا الفصل على خلاصة لهذه النظم والرسوم التى عاشت الدولة الفاطمية في ظلها بمصر زهاء قرنين .

كانت الخلافة الفاطمية خلافة مذهبية شعارها الامامة الدينية ، وكان لهذه الصفة المذهبية أثرها فى صوغ كثير من النظم والرسوم التى اختصت بها . وقد نشأت الدولة الفاطمية فى قفار المغرب دولة عسكرية ساذجة تظللها الصبغة الدينية ، فلما اتسع ملكها وعظم سلطانها بافتتاح مصر والشام ، شعرت بالحاجة الى التوسع فى النظم السياسية والادارية التى يقوم عليها هذا الملك الباذخ ، ولم تكتف بالاعتماد على الخطط العسكرية والدينية والمدنية المعروفة ، بل عمدت الى الابتكار فى تنظيم الأصول والخطط الدستورية وفقاً لحاجتها وغاياتها السياسية والمذهبية . وكانت الوزارة أول خطة رتبتها الدولة الجديدة ، ورتبت لأول مرة فى عهد العزيز بالله ؛ وكان الخليفة يتولى قبل ذلك ادارة الشؤون بنفسه دون واسطة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية

أبو الفرج يعقوب بن كلس خلع عليه العزيز لقب الوزارة سنة ٣٦٨ هـ ، ولقبه بالوزير الأجل(١). ومن ذلك الحين قامت خطة الوزارة فى الدولة الفاطمية ، بيد أنها لم تثبت على نمط واحد ، فتارة يستبقى رجل الدولة الأول صفة الوزارة ، وتارة تسبغ عليه صفة أخرى كالوساطة أو السفارة وهى دون الوزارة فى المرتبة(٢). ولما توفي الوزير ابن كلس سنة ٣٨٠ هـ استبدلت صفة الوزارة بصفة الوساطة والسفارة ، وأطلقت على من تولوا شؤون الدولة العليا بقية عهد العزيز ومعظم عصر الحاكم ؛ ولقب رؤساء الدولة يومئذ بمختلف الألقاب التى أغدقتها الدولة الفاطمية على رجالها ؛ فنهم أمين الدولة ، وقائد القواد ، وأمين الأمناء ، ووزير الوزراء ، ورئيس الرؤساء وغيرها ؛ وكان متولى السفارة والوساطة هو كبير رجال الدولة ومرجعهم الأعلى ، وله التوقيع عن الحضرة ، ومراجعة جميع الشؤون الهامة على يد مختلف الكتاب وأصحاب الدواوين ؛ وفى أواخر عهد الحاكم أعيدت صفة الوزارة وتولاها على بن جعفر بن فلاح سنة ٤٠٨ هـ ولقب « بوزير الوزراء ذى الرياستين الأمير المظفر قطب الدولة » ؛ واستمرت خطة الوزارة على حالها منذ عهد الظاهر حتى أواخر عهد المستنصر بالله ؛ وكان الأغلب حتى ذلك العهد أن يتولاها رجال مدنيون أو أصحاب أقلام إلا فى فرص قليلة تولاها فيها رجال سيف مثل برجوان ، والحسين بن جوهر قائد القواد ، وعلى بن صالح الروذبارى ؛ ولقب الوزراء يومئذ بمختلف الألقاب الرنانة مثل ، « شمس الملك ، عميد الدولة وناصحها » ؛ « الأجل الأوحد صفى أمير المؤمنين» « تاج الرياسة وفخر الملك » « سيد الوزراء ظهير الأئمة » «سماء الخلصاء فخر الأمة » « فخر الوزراء عميد الرؤساء » وغيرها (٣)

وفى أواخر عهد المستنصر بالله حدث انقلاب عظيم فى خطة الوزارة وانتقلت من أيدى الوزراء المدنيين أو أصحاب الأقلام كما يسمون الى الوزراء العسكريين أو رجال السيف؛ وكان أول هذا الثبت الوزير والقائد الكبير بدر الجمالى؛ تولى الوزارة للمستنصر سنة ٤٦٧ هـ ونعت بالسيد الأجل أمير الجيوش(٤)؛ واضحت الوزارة من ذلك الحين

---

(١) ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ص ١٩ و ٢١
(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٩
(٣) الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣٤ و ٣٨
(٤) الخطط ج ٢ ص ٣٠٤

وزارة تفويض يستأثر صاحبها بكل السلطات ، وأطلق لقب « أمير الجيوش » على ذلك الثبت من الوزراء العسكريين الذين سلبوا الخلافة الفاطمية كل سلطاتها ، ولم يبقوا لها سوى المظاهر الاسمية . ولما توفى بدر الجمالى خلفه فى هذا المنصب ولده الأفضل شاهنشاه وتلقب بنفس ألقابه ؛ ثم اتخذ الوزراء الطغاة من بعده ألقابا ملوكية فتسمى طلائع بن رزيك وزير الحافظ لدين الله ، بالملك المنصور ؛ وتسمى ابنه رزيك بالملك العادل ؛ وتسمى شاور بالملك المنصور ؛ وتسمى صلاح الدين يوسف بن أيوب أيام وزارته للعاضد خاتمة الخلفاء الفاطميين بالملك الناصر ؛ وكان وزير السيف هو مرجع كل السلطات العسكرية والادارية والقضائية ، وإليه يرجع أمر الحرب والسلم ، وهو الذى يولى قاضى القضاة وداعى الدعاة بعد أن كان يوليهما الخليفة مباشرة ، وهو الذى يتصرف فى سائر شؤون الدولة العسكرية والمدنية ؛ وهكذا استمرت الخلافة الفاطمية منذ بدر الجمالى الى سقوطها في سنة ٥٦٩ هـ زهاء قرن خاضعة لسلطان أولئك الوزراء الطغاة يستظلون باسمها ويغتصبون كل سلطاتها، حتى انتهى آخرهم صلاح الدين بالقضاء عليها واستخلاص ملكها وتراثها (١)

والى جانب الوزارة ، وهى خطة الحكم العليا ، كانت ثمة عدة مناصب عسكرية وادارية عالية ، منها وظيفة صاحب الباب أو حاجب الحجاب ، وهو الذى يلى الوزير فى المرتبة ، ويتولى النظر في المظالم ؛ ولم يوجد هذا المنصب الا فى ظل الوزارة المدنية ؛ أما فى وزارة أصحاب السيف فقد كان الوزير هو الذى يتولى النظر فى المظالم (٢) ؛ ومنها وظيفة الاسفهسلار ، وهو القائد الأعلى للجيش ، واليه النظر فى أمر الجند وجميع الشؤون العسكرية ؛ ومنها عدة تختص بخدمة الخليفة مثل حامل المظلة ، وهو الذى يحمل المظلة فوق رأس الخليفة فى المجالس والمواكب الخلافية ،وحامل سيف الخليفة ،وحامل رمحه ؛ويتبع هؤلاء حملة السلاح أو الركابية وصبيانهم وهم نوع من الحرس الملكى ؛ ومنها ولاية القاهرة ، وولاية مصر (الفسطاط)

وأما الدواوين وهى تماثل مختلف الوزارات فى عصرنا ، فقد كانت تشمل

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وصبح الاعشى ج ٣ ص ٣٨٢ و ٤٨٣

(٢) المقريزى ج ٢ ص ٢٣٧ و ٢٤٥

ديوان الانشاء والمكاتبات؛ وكان متوليه من أعظم رجال الدولة ومن أقطاب الكتابة والبلاغة ، ويعرف فى الدولة الفاطمية بكاتب الدست الشريف وينعت بالأجل ، ويتولى النظر فى المكاتبات الواردة والصادرة ، وعرضها على الخليفة ، ويستشيره الخليفة في كثير من الأمور؛ ويعاونه عدة من أكابر الكتاب منهم صاحب التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم وهو يليه فى الرتبة ، وله من الخليفة مكانة لأنه جليسه وقارئه ؛ وصاحب التوقيع بالقلم الجليل ، ومهمته أن يشرف على تنفيذ مايوقعبه صاحب القلم الدقيق ؛ وكانت المظالم ترفع أولا الى صاحب القلم الدقيق فيوقع عليها بما يقتضيه أمر الخليفة أو الوزير أو بما يراه هو ثم تحمل الى صاحب القلم الجليل فيفصل فيها ماأجمل الأمر الأول ، وتحمل بعدئذ الى الخليفة فيوقع عليها ثم تسلم الى أربابها وينفذ ما فيها (١)

وديوان الجيش والرواتب ولا يتولاه سوى المسلمين ، والى صاحبه مرجع شؤون الجند والخيل والاقطاعات، ويلحق به ديوان الرواتب وهو المختص بالنظر فى الارزاق والجرايات ؛ وديوان الاقطاع ، وهو المختص بالنظر فى شؤون الاقطاعات (٢)

وديوان الجهاد ، ويقال له أيضاً ديوان العمائر ويختص بالنظر فى أمر الأساطيل المدنية والحربية وانشائها وتسييرها والانفاق على رجال البحر . وكان للدولة الفاطمية عناية خاصة بانشاء الأساطيل وحماية الثغور ولاسيما سواحل الشام اذ كانت معرضة للغزوات البيزنطية ؛ وبلغ الأسطول الفاطمى من السفن الحربية وملحقاتها من سفن النقل نحو مائة قطعة ، وبلغ عدد رجاله نحو خمسة آلاف مقاتل بين أمراء بحر ونواب ورؤساء ونواتية ؛ وكانت اقطاعات الأسطول تعرف باقطاعات الغزاة(٣)؛ وكانت مراكز الأسطول للحط والاقلاع فى الاسكندرية ودمياط وعسقلان ، وبعضها فى مياه البحر الأحمر

وديوان المجلس ، وهو مرجع الدواوين كلها، وفيه عدة كتاب يختص كل منهم بمجلس منفرد ، ويتولى صاحبه التحدث فى شؤون الاقطاعات والارزاق لدى الخليفة مباشرة

---

(١) صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩١
(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٢ ، والخطط ج ٢ ص ٢٤٢
(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٧٣

وديوان النظر ، وهو ديوان المال ، ويتولاه وزير ثقة اليه مرجع شؤون الأموال العامة وضبط الدخل والخرج والمحاسبات

وديوان التحقيق ويختص بالمقابلة على الدواوين ومراجعة أعمالها والتحقق من انتظامها كما يدل على ذلك اسمه

وديوان الأحباس أو الأوقاف ويختص بالنظر فى شؤون الاحباس العامة والخاصة ، والاشراف على غلتها وانفاقها فى وجوهها الشرعية

وديوان المواريث ويختص بشئون المواريث وضبط أحكامها

وثلاثة دواوين ادارية هى ديوان الصعيد وديوان أسفل الأرض أو الوجه البحرى ، وديوان الثغور ؛ ويعنى كل منها بالنظر فى شؤون الأقاليم الادارية التى تدخل فى اختصاصه .

وأما الخطط الدينية فكانت تشمل عدة وظائف خطيرة أعظمها وأجلها قدراً منصب قاضى القضاة ومنصب داعى الدعاة ؛ وكان قاضى القضاة أعظم زعيم دينى فى الدولة واليه مرجع الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والحدود ، أعنى فى الشؤون الدينية والمدنية والجنائية ، والنظر في شؤون السكة (دار الضرب) وشؤون المساجد وأئمتها وسائر المتصرفين فيها ؛ وكان اختصاصه يشمل مصر والشام والمغرب والحرمين؛ ومركزه العام بالقاهرة المعزية، وله نواب يختارهم لقضاء الأقطار الأخرى ؛ ويصدر سجل (مرسوم) تعيينه من الخليفة نفسه اذا كان الوزير من رجال القلم ، وفي عهد وزراء السيف كان سجل القاضى يصدر من الوزير مباشرة ؛ وقد نقل الينا القلقشندى نص السجل الذى صدر فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الى الحسين ابن النعمان بتوليته قضاء مصر والشام والمغرب والحرمين وفيه تفصيل شامل لاختصاصه ، ومايرسم الخليفة له لحسن القيام بواجبه ومهامه[١]

وأما داعى الدعاة فكان منصبه يلى منصب قاضى القضاة فى الرتبة والاعتبار ، وكان يتشبه بالقاضى فى زيه ويتمتع بمثل رسومه وامتيازاته ؛ واختصاصه دينى مذهبى محض ، هو أن يتولى قراءة مذاهب آل البيت وبثها بين الأولياء ، والاشراف على تنظيم الدعوة الفاطمية وأخذ العهود على الداخلين فيها، وينتخب من بين العلماء المتضلعين

---

(١) صبح الاعشى ج ١٠ ص ٣٨٤ وما بعدها ؛ وقد أثبتناه فى قسم الوثائق

فى فقه الشيعة وفى أسرار الدعوة ؛ ويعاونه فى مهمته اثنا عشر نقيباً وجماعة كبيرة من النواب فى مختلف النواحى ؛ وكان منصبه رغم صفته الدينية يعتبر من مناصب الخاص ؛ وقد اشتهر الداعى بالأخص بتنظيم مجالس الحكمة الشهيرة التى أتينا على ذكرها فيما تقدم ؛ وكان مثل القاضى ، اذا كانت الوزارة لذى قلم صدر تعيينه من الخليفة ، وان كانت لذى سيف فهو الذى يتولى تعيينه؛ وقد نقلنا خلال حديثنا عن مجالس الحكمة فقرات من سجل فاطمى شرح فيه اختصاص داعى الدعاة وما يجب عليه لبث الدعوة وتلقينها(١)؛ وقد ضعف شأن داعى الدعاة وتضاءلت أهميته فى أواخر الدولة الفاطمية مذ تولى وزراء السيف زمام السلطة ، وحدوا كثيراً من سلطات الخلافة ومشاريعها ورسومها المذهبية

وكان منصب داعى الدعاة من أغرب المناصب التى اختصت بها الدولة الفاطمية وأشدها طرافة ، ونستطيع أن نلمس الشبه واضحاً بين مهامه ونظمه وأساليبه ، وبين مهام الدعاية الحديثة وأساليبها ؛ ففى بعض الحكومات الحديثة توجد وزارة خاصة للدعاية ، وقد كان داعى الدعاة رغم صفته الدينية فى الواقع وزيراً للدعاية بكل معانيها ، وكانت مهمته غزو العقائد الدينيـة كما تعمل اليوم اداة الدعاية الحديثة على غزو العقائد السياسية ؛ وكانت وسائله تختلف باختلاف عصره وظروفه ، ولكن الغاية المشتركة تبقى واحدة دائماً ، وهى العمل على غزو العقائد والعقول

ومن الوظائف الدينيـة الهامة أيضاً منصب المحتسب ؛ واختصاصه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة . ومن ذلك الاشراف على الآداب العامة ، والا يخلو رجل بامرأة ذات محرم ، وضبط شؤون المكاييل والموازين ، ومراقبة أحوال المطاعم والمشارب العامة حتى لايغش الجمهور ولا يبخس فيما يقدم اليه ، والسهر على نظافة المساجد وانارتها وحمايتها من غشيان الباعة والمتطفلين ، وتنفيذ السجلات الخاصة بالذميين فيما فرض عليهم ، وتأديب المخالفين وزجرهم ؛ وله نواب فى سائر الأقاليم يقومون عنه بمثل هذه المهام ؛ وكانت أعمال الحسبة تسند أحياناً الى متولى الشرطة بمصر والقاهرة(٢) ؛ وظاهر ان نظام الحسبة يشبه فى كثير

---

(١) راجع ص ١٦٣ من هذا الكتاب : وراجع المقريزى ج ٢ بند ١ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وصبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٧ . وقد أثبتنا نص هذا السجل فى قسم الوثائق فى نهاية الكتاب

(٢) راجع صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٧ وج ١٠ ص ٤٦١

من الوجوه نظام النيابة العمومية فى عصرنا ، وان المحتسب يشبه فى مركزه واختصاصاته من بعض الوجوه مركز النائب العام

ومنها وكالة بيت المال ويتولاها ثقة من العدول ، ويفوض اليه الخليفة النظر فى شؤونه المالية وبيع ما يرى بيعه وابتياع ما يرى ابتياعه من المتاع ، والنظر فى شؤون الرقيق وانشاء ما يحتاج اليه الخليفة من الأبنية والسفن وغيرها مما يختص به

وكان ثمة الى جانب هذا الثبت الحافل من المناصب المدنية والدينية الخطيرة ، طائفة أخرى من المناصب التى تختص بخدمة الخليفة ، والقصر وقد أشرنا منها الى وظائف حامل المظلة وحامل السيف وحامل الرمح ؛ بيد أن أهمها وظائف الاساتذة المحنكين ، وسموا كذلك لانهم كانوا يدورون العمامة على احنا كهم ؛ ومنهم متولى « شدالتاج » وهو الذى يشد تاج الخليفة فى المواكب الرسمية ؛ وصاحب المجلس ، وهو الذى يتولى الاشراف على المجلس الذى يجلس فيه الخليفة واخطار رجال الدولة بحضوره ؛ وصاحب الرسالة وهو الذى يتولى ابلاغ رسالة الخليفة الى الوزير وغيره ، وسمى فى أواخر الدولة بالأمير الثقة ؛ ومتولى زمام القصور ، وهو المشرف على شؤون القصر والخاص بوجه عام ؛ وصاحب الدفتر المعروف بدفتر المجلس وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لشؤون الخلافة؛ وحامل الدواة وهى دواة الخليفة ؛ ومتولى زم الاقارب وهو المشرف على شئون الاسرة الفاطمية وأعضائها ؛ وزم الرجال ، وهو الذى يتولى إعداد طعام الخليفة والنظر فى شؤون الخدم وصبيان الخاص؛ ومن الاستاذين أيضاً جمهرة كبيرة أخرى تشغل الوظائف الثانوية بالقصر ويعرفون بالخدم، وكانت عدتهم تبلغ أحياناً زهاء الألف ويلحق بهم صبيان الخاص ، وهم الذين يتولون خدمة الخليفة فى حياته الخاصة وعدتهم نحو خمسمائة ، ثم صبيان الحجر ، وهم عدة آلاف[1] ؛ ومن رجال الخاص أيضاً طبيب الخاص وهو طبيب الخليفة وأسرته ، ويعاونه عدة أطباء آخرين ؛ وقراء الحضرة وهم الذين يقرأون القرآن بحضرة الخليفة فى مجالسه وفى ركوبه وفى مختلف المناسبات الأخرى ، وشعراء الخاص وهم يتبعون ديوان الانشاء

وقد انشئت فى الخلافة الفاطمية لأول مرة هيئة رسمية خاصة للنظر فى شؤون

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨١ و ٤٨٤ و ٤٨٥

العلوية والمنتسبين الى آل البيت، وعرفت هذه الهيئة يومئذ بنقابة الطالبيين [١] . ثم عرفت فى العصور المتأخرة بنقابة الاشراف ، ولا تزال قائمة الى يومنا ؛ وكان يتولى النظر عليها واحد من أكبر شيوخهم وأجلهم قدراً ، يسهر على صحة الانساب واثباتها ، ورعاية شؤونهم ، وقضاء مصالحهم ، ويعود مرضاهم ، ويسير فى جنائزهم ، ويعمل على توثيق أواصر الوفاق والمحبة فيما بينهم

وكانت الخلافة الفاطمية تضم ثلاث ممالك أو أقطار كبيرة ؛ هى مصر ، وهى مركز الخلافة العامة، والشام وافريقية ؛ ونواب الخليفة فيها يعرفون بالولاة ؛ وللشام واليان ، هما والى دمشق ووالى الرملة ويشمل حكمه سائر فلسطين . وكان القطر المصرى ينقسم الى أربعة أقاليم أو ولايات هى : ولاية قوص وهى أعظمها وكانت تشمل الوجه القبلى كله، والشرقية والغربية والاسكندرية وهى أقلها ؛ وأما إفريقية فقد لبثت مدى حين تابعة للخلافة ثم استقلت بشؤونها فيما بعد واستأثر الأمراء البربر بالسلطان فيها ؛ وكانت أعمال الحرمين أيضاً تابعة للخلافة الفاطمية من الوجهة المذهبية يدعى فيها للخليفة الفاطمى ولكنها كانت مستقلة بشؤونها

هذه خلاصة شاملة للنظم الأساسية الدينية المدنية والعسكرية التى قام عليها صرح الدولة الفاطمية والحكم الفاطمى بمصر ؛ وفي هذا الاستعراض الموجز مايدلى بما كان يطبع هذه النظم من روح الابتكار والطرافة في كثير من نواحيها ، وفيه ما يلقى ضياء على سير الحوادث والشؤون فى العصر الفاطمى

(٢) نسبة الى على ابن أبى طالب

الفصل الثانى

الأعياد والرســـوم الفاطمية

بهاء العصر الفاطمى وبذخه . فخامة المواكب والرسوم الفاطمية . الاعياد الفاطمية الرسمية . الاعياد المذهبية . الفطر والأضحى . سماط الفطر . ركوب الخليفة الى الصلاة . الموكب الرائع . سماط العيد . عيد الاضحى . ركوب الخليفة الى النحر . اشتراكه فى رسوم النحر . توزيع لحم الاضاحى . المآدب الفاطمية وبذخها الطائل . سماط الحزن . فتح الخليج . ليالى الوقود . المواكب والانوار الساطعة . الاعياد المصرية القومية . ركوب الخليفة . عطاؤه وبذله . صلاة الجمعة . ماوراء هذا البذخ . رثاء الدولة الفاطمية

والآن نتحدث عن رسوم الدولة الفاطمية ومواسمها ومظاهرها ومواكبها الباذخة . كان عصر الدولة الفاطمية بمصر من أزهر العصور ، يجتمع فيه كثير من أسباب القوة والعظمة والبهاء ؛ وكانت هذه الدولة الشامخة التى قامت تمثل زعامة الاسلام والخلافة فى ظروف دينية وسياسية خاصة ، أشد الدول الاسلامية حرصاً على أن تطبع الشعب والمجتمع بطابعها الخاص ، وان تصوغ روح الشعب وعقليته وتفكيره وحياته العامة والخاصة ، وفقاً لمناهجها ورسومها ؛ فنرى الحياة الاجتماعية المصرية فى العصر الفاطمى تتخذ صوراً ومظاهر خاصة ، وتتقلب بين ألوان من البذخ والترف والبهاء ، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الاسلامية ؛ ونراها أحيانا تمتاز بألوان من التطرف والاغراق المدهش . وقد كانت هذه الحياة الاجتماعية الباهرة المغرقة معاً ، مرآة الدولة الفاطمية ، تشع بكثير من خواص قوتها وفخامتها وبهائها ، ووحى مناهجها السياسية والدينية والعقلية . وكان الشعب المصرى ، على تحفظه في مشايعة الدولة الجديدة فى مناهجها وغاياتها المذهبية ، يشهد بمرحه المأثور ، هذا الفيض الفاطمى من البذخ والترف والبهاء فى إعجاب وحماسة . أجل كانت مواكب الخلافة الفاطمية ، وحفلاتها الرسمية والشعبية ، ورسومها الفخمة ، ومآدبها الشهيرة ، وبذلها المأثور ، أياماً ومواقف مشهودة ، تثير من حولها

أيما إجلال وروعة ؛ وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة ، ولياليها الساطعة مثار البهجة والمرح العام ؛ وما زالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل فى كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية ؛ فاذا رأيت بعض هذه الأعياد والمواسم يجنح الى نوع من الفخامة ، وإذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء ، فانما ذلك يرجع فى الأغلب الى أثر الدولة الفاطمية في بث هذه الروح البهجة الباذخة الى كثير من نواحى الحياة العامة والخاصة فى مصر الاسلامية

وقد انتهت الينا عن هذه المواكب والحفلات والليالى الفاطمية صور رائعة من أقلام مؤرخين معاصرين مثل ابن زولاق والمسبحى وابن الطوير وابن المأمون ؛ وقد يخيل الينا ونحن نستعرض هذه الصور الفخمة أنها ليست من مشاهد العصور الوسطى وأنها بالعكس خليقة بأعظم مشاهد العصر الحديث وأروعها[1]. ولم يخل عصر الحاكم بأمر الله رغم اضطرابه من هذه المظاهر والمشاهد الباذخة ولاسيما فى البداية قبل أن تصدر مراسيم التحريم المدهشة ، وتضطرب لها أوضاع الحياة الاجتماعية ؛ وقد رأينا كيف بدأ الحاكم عهده باقامة الحياة الليلية ، وكيف كانت القاهرة تبدو فى تلك الفتره بالليل كأنها شعلة مضيئة ، وتضطرم جنباتها بحياة السمر واللهو من كل ضرب ، وكيف الغيت حياة الليل بعد ذلك فتحولت العاصمة الساطعة المرحة الى مدينة مقفرة موحشة ؛ وكانت المواكب الخلافية تقام فى بداية عهد الحاكم وفقا لرسومها ومظاهرها الفخمة ، ولكن الحاكم جنح بعد ذلك الى البساطة ، وزهد فى تلك الرسوم الباذخة ، فاختفت لمدى قصير حتى نهاية عهده ؛ ثم عادت بعد ذلك واستمرت حتى نهاية الدولة الفاطمية ؛ وفى عهد الحاكم أيضاً الغى كثير من الأعياد المصرية المشهودة وكانت الخلافة الفاطمية تشترك فى احيائها فى بذخ طائل ؛ بيد ان بعضها كان يقام أحيانا وفقا للرسوم المأثورة ، ويحتفى بها الشعب أيما احتفاء

وكانت المواكب والحفلات الفاطمية ، تبلغ ذروة البهاء والبذخ أيام الأعياد والمواسم الرسمية ؛ وكانت الأعياد الدينية الرسمية فى عهد الدولة الفاطمية عديدة

---

(١) نقل الينا المقريزى فى الخطط عن هؤلاء المؤرخين الذين لم تصل كتبهم الينا ، شذورا كثيرة ساحرة فى وصف الحفلات والمواكب الفاطمية (الخطط ج ٢ ص ٢٥٥ وما بعدها) وأورد لنا القلقشندى فى صبح الاعشى شذوراً كثيرة منها فيما كتب عن المواكب والحفلات الفاطمية (ج ٣ ص ٤٩٩ وما بعدها)

منوعة ، ومنها أعياد خاصة بها شرعت لغايات دينية وسياسية ؛ أما الأعياد العامة فهى رأس السنة الهجرية ، وليلة المولد النبوى الكريم ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، وغرة رمضان ، ويوم الفطر ، ويوم النحر أو عيد الأضحى ؛ وأما الأعياد المذهبية فهى الاحتفال بمولد أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبى ، وهى التى ينتسب اليها الخلفاء الفاطميون ، ويوم عاشوراء أو عاشر المحرم ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على فى كربلاء (سنة ٦١ هـ) ؛ هذا الى عدة أعياد ومواسم مصرية قديمة كعيد فتح الخليج ، ويوم النيروز ، وعيد الشهيد . وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد في فيض من الروعة والبهاء والبذخ ، فينتظم الركب الخلافي برسومه ومظاهره الفخمة ، وتقام المآدب والحفلات الشائقة ، ويكثر البذل والعطاء ؛ ويستقبل الشعب هذه الأيام المشهودة فرحاً ، وتغمره البهجة والسعة والمرح . واليك صورة موجزة من هذه المشاهد والمناظر الشهيرة فى تاريخ البذخ والبهاء

كان الاحتفال بالعيدين - عيد الفطر وعيد الأضحى - من أعظم مشاهد الخلافة الفاطمية ، وكان موكب العيد من أفخم مواكبها وأورعها ؛ ففى ليلة عيد الفطر ، كان ينظم بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، وتنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية مما أعد فى دار الفطرة الخلافية ؛ فاذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد الى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والايوان على مصاريعها ، وهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط الخلافي وتخاطفوا محتوياته بمشهد من الخليفة ووزرائه ؛ وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى موكبه الى الصلاة ويخرج من باب العيد الى المصلى ؛ ونحن نحيل القارىء على تلك الفصول البديعة الشائقة التى ينقلها الينا المقريزى عن هذه المواكب الخلافية الرائعة عن المؤرخين المعاصرين (١) ، ونكتفى بأن ننقل اليك هذه الصورة الموجزة من أقوال المسبحى مؤرخ العصر الأول من الدولة الفاطمية ، قال : « وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢١٤ وما بعدها

والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والكافورية ؛ وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب ؛ وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر ، والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة ، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف »(١) ؛ فاذا عاد الخليفة من الصلاة كان ثمة سماط آخر أبهى وأروع ؛ فيجلس الخليفة فى مجلسه وأمامه مائدة من فضة يقال لها « المدورة » وعليها أوانى الذهب والفضة غاصة بأفخم الألوان وأشهاها ؛ وقبالة المائدة الخلافية سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو ، وقد نثرت عليه الأزهار والرياحين (٢) ، وصفت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى البديعة ، وجلس اليه رجال الدولة والعظماء والأكابر من كل ضرب ، فيأكل من شاء دون الزام حتى لا يرغم على الافطار من لا يرى الافطار فى ذلك اليوم ؛ وعند الظهر ينفض المجلس وينصرف الناس . وهنا نحيل القارىء على ما كتبه ابن الطوير ، ونقله الينا المقريزى فى وصف هذه المآدب الخلافية الباهرة ، وما كانت تمتاز به من البذخ والأناقة والبهاء ، مما لا يكاد يضارعه شىء فى المآدب الملكية أو الرسمية فى عصرنا (٣)

وأما عيد الاضحى أو عيد النحر كما كانت تؤثر تسميته فى ظل الدولة الفاطمية تنويها بأبرز مظاهره ألا وهو نحر الأضحية ، فقد كان يحتفل به بركوب الخليفة الى الصلاة على النحو المتبع في صلاة عيد الفطر ، ثم يخص بسماط حافل يقام فى أول يوم منه ؛ بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات فى أيامه الثلاثة الأولى ، ويمتاز بالأخص باشتراك الخليفة نفسه فى اجراءات النحر ؛ وكان قيام الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر والرسوم التى جرت عليها الخلافة الفاطمية فى الأعياد العامة . فلنتصور أمير المؤمنين متشحا بثوب أحمر قان يسير في موكبه ماشيا الى دار النحر الخلافية ـ وقد كانت تقوم فى ركن خارجى من القصر ـ وبين يديه

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٢٣

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٢٠ ومن ذلك نرى أن تزيين المائدة بالازهار ليس عادة محدثة وليس بالأخص عادة غربية

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢١

الوزير وأكابر الدولة والأساتذة المحنكون (وهم المشرفون على شؤون الخاص) ؛ وقد أعد في المنحر برسم التضحية واحد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة يعلوها الخليفة وحاشيته ، وقد فرشت حافتها بأغطية حمراء يتقى بها الدم ، وحمل الجزارون كل بيده اناء مبسوطاً يتلقى به دم الضحية ؛ ثم تقدم رؤوس الاضاحى الى الخليفة واحدة فأخرى ، فيدنومنها وبيده حربة يمسك بها من الرأس ، ويمسك القاضى بأصل سنانها ويجعله فى عنق الدابة فيطعنها به الخليفة ، وتجر من بين يديه ، وهكذا حتى يأتى عليها جميعا ؛ وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير ؛ ويقدد لحم الضحية الأولى ويفرق قطعاً صغيرة فى الأولياء والمؤمنين ؛ وفى اليوم التالى ينظم نفس الموكب الخلافى الى المنحر ، وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأسا ؛ وفي اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين ؛ ويجرى توزيع لحم الأضحية خلال هذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم فى أطباق خاصة للتبرك ، ويقوم بالتوزيع قاضى القضاة وداعى الدعاة ، ويخص نقباء الدعوة وطلبة دار الحكمة (دار العلم) بقسط من اللحوم الموزعة ؛ فاذا انقضت رسوم النحر خلع الخليفة عند العودة الى القصر على الوزير ثيابه الحمر ومنديلا ملوكياً بغير سمة ، والعقد المنظوم ؛ فيركب الوزير وعليه الخلع المذكورة فى موكب حافل من القصر ، ويشق القاهرة حتى باب زويلة ، ثم يدخل من باب القنطرة الى دار الوزارة وبذلك تنتهى حفلات النحر

وكان العزيز بالله أول من سن سنة إعداد الأضحية وتفريق لحومها على هذا النحو بين أولياء الدولة على قدر مراتبهم ، وكان مايخرج منها غير ما ينحره الخليفة بنفسه يبلغ بضعة آلاف من مختلف الأصناف ، هذا عدا ما يفرق فى أرباب الدولة من الخلع والأموال ؛ وقد نقل المؤرخون المعاصرون الينا تفاصيل دقيقة عن مقادير النفقة فى تلك المواسم ؛ ومنها ان نفقة سماطى الفطر والأضحى تبلغ زهاء أربعة آلاف دينار ؛ ويذبح من البقر والجاموس والنوق فى أيام النحر نحو ألفين وخمسمائة ، ومن الغنم نحو هذا القدر

وكانت المآدب الفاطمية من الأحداث الاجتماعية الشهيرة فى هذا العصر ؛ وكان القصر الفاطمى يعنى بتنظيم المآدب والأسمطة الرسمية عناية خاصة ويبالغ في إعدادها وتجميلها ؛ وكانت تقام فى ليالى الأعياد الرسمية ، وفى رمضان ؛ ففى كل

مساء من مستهل رمضان حتى السادس والعشرين منه تقام المأدبة الملكية فى البهو الكبير (الديوان) ويرأسها قاضى القضاة ، ويشهدها مئات من الأمراء والكبراء ؛ وفى يوم عيد الفطر ، وفى يوم الاضحى تقام مأدبة ملكية رسمية كبرى يشهدها ويرأسها الخليفة بنفسه على النحو الذى ذكرنا ؛ وتقام المآدب الرسمية فى الأعياد والمواسم الأخرى التى ذكرناها ؛ وتقترن الحفلات الرسمية ، بالحفلات والمآدب الشعبية ؛ ويستقبل الشعب هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة الا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام ، وتعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون الى الجامع الأزهر ، وهنالك يلقون الأناشيد المحزنة فى رثاء الحسين ؛ وفى نفس اليوم يقام بالقصر سماط يسمى سماط الحزن ؛ وينظم بمنتهى البساطة فى بهو بسيط ويجهز بالأصناف الخشنة مثل خبز الشعير والعدس الاسود والجبن، ويحضره الخليفة ملثما وفى ثياب قاتمة ، ويشهده الأمراء ورجال الدولة حفاة ملثمين ، ايذانا بالحزن العميق (١)

ومن المواسم الفاطمية الشهيرة ليلة فتح الخليج أو وفاء النيل ؛ وهو عيد قومى كان يحتفل به دائما في جميع الدول الاسلامية ؛ ولكنه كان كباقى الأعياد فى هذا العهد يمتاز بكثير من الرونق والبهاء ، فيركب الخليفة الى الخليج في موكب فخم ، وينصب هنالك سرادق هائل تبلغ مساحته نحو الف الف ذراع ، وتنصب فيه قاعة الخلافة وتوزع الكسى والهبات الملكية ، وتصطف العشارى (السفن) الرسمية فى النيل ، وتصطف الجنود على الشاطئين ؛ وعندما يعلن وفاء النيل الى الخليفة ، تقام عند المقياس مأدبة حافلة ؛ ويحتفل الشعب المصرى كله بهذا العيد ، وتقام المآدب وتنظم الملاهى ومجالس الانس والغناء فى كل مكان ويعم الحبور والمرح ؛ وقد ذكرت لنا الرواية المعاصرة أن الحاكم بأمر الله كان يجرى على سنة أبيه وجده فى الركوب لفتح الخليج كل عام ، مما يدل على ما كان لهذا العيد القوى من حرمة خاصة لم تنل منها احداث العصر (٢)

ومنها ليالى الوقود الاربع ، وهى ليلة مستهل رجب وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه ؛ وفيها يجلس الخليفة فى منظرة عالية أقيمت عند باب الزمرد من

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٩٠

(٢) المقريزى عن المسبحى فى الخطط ج ٢ ص ٣٥٣

أبواب القصر ، وبين يديه شمع ساطع يرى وجهه على ضوئه ؛ ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب ، وقد أنير بين يديه الشمع المحمول اليه من خزانة الخليفة وعدده ستون شمعة كبيرة من كل جانب ثلاثون ، وبين الصفين المؤذنون يدعون للخليفة والوزير ، ويحجبه ثلاثة من نواب الباب ، وعشرة من حجاب الخليفة ، غير حجاب الحكم المستقرين وهم خمسة فى زى الأمراء ، وفى ركابه القراء يقرأون ، ومن وراثه الشهود على ترتيب جلوسهم فى الحكم ، وحولهم الشمع المنير ؛ ويسير الموكب على هذا النحو الى ما بين القصرين حتى باب الزمرد ، وينتظم فى الميدان الواقع تحت المنظرة التى يجلس فيها الخليفة ؛ وبعد برهة تفتح إحدى طاقات المنظرة ، ويطل منها الخليفة ، وعلى رأسه عدة من خواص الاستاذين المحنكين ، ويفتح أحد الاساتذة طاقة أخرى ، ويخرج منها رأسه ويده اليمنى ويشير بكمه قائلا : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، ثم صاحب الباب ، ثم الجماعة الباقية دون تعيين أحد ؛ ويقرأ القراء بعد ذلك ؛ ثم يلقى خطيب الجامع الأزهر خطبة فى فضائل هذا الشهر ، ويتلوه خطيب الجامع الحاكى بخطبة مماثلة ؛ فاذا انتهت الخطب أخرج الاستاذ الأول يده من الطاقة فيرد السلام على الجماعة ثم تغلق الطاقتان وينفض الناس ؛ ثم يركب القاضى فى موكبه الى دار الوزير ، وأحيانا الى بعض المساجد الجامعة

وفى ليالى الوقود أيضاً ، يخرج الناس الى الجامع الازهر ، ويبدو فيها المسجد الشهير كأنه شعلة من النور ، وتضاء على حافاته المشاعل والوقدات الساطعة ، ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برآسة قاضى القضاة ويبعث الخليفة اليهم بسلال من الاطعمة والحلوى ، وتضاء جميع المساجد الأخرى ، وتبدو العاصمة الفاطمية كلها فى حلل بديعة من الأنوار الساطعة ؛ وكانت ليالى الوقود من أشهر المواسم والحفلات التى اختصت بها الدولة الفاطمية (١)

وكانت ثمة أعياد رسمية أو قومية أخرى ، كانت تقام أحياناً فى فيض من البذخ والمرح ، وأحيانا تفرض فى إقامتها فروض معينة ، وأحيانا تلغى ؛ وذلك أنها لم تكن أعيادا اسلامية ؛ ومنها عيد النيروز أو النوروز وعيد الشهيد القبطيين ، وعيد

---

(١) صبح الاعشى ج ٧ ص ٥٠١

الميلاد وأعياد الغطاس والشعانين والفصح النصرانية ؛ وقد فرضت في أوائل الدولة الفاطمية قيود كثيرة على إقامة النيروز والغطاس والشهيد ، وذلك لأن النصارى كانوا يتخذونها فرصة لاقامة المظاهرات الدينية الصاخبة ، ولما كان يقترن بها من إسراف في اللهو والقصف ؛ وفي عهد الحاكم بأمر الله ألغيت الأعياد النصرانية مدى حين ، حسبما قدمنا ؛ بيد أنها كانت فيما خلا هذه الفترة تقام في ضجيج وبذخ ، وتسطع العاصمة خلالها ، ويشترك الشعب كله في الاحتفاء بها

وكان الخلفاء الفاطميون يشهدون في معظم الأحيان هذه الحفلات والليالي ؛ ويعقد الحفل الخلافي في احدى المناظر الملوكية الفخمة : وكانت عدة ، منها منظرة القصر الكبير ، ومنظرة قصر اللؤلؤة ، ومنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة المقس وغيرها ؛ وكان حضور الخليفة بموكبه الرسمي الفخم يبث في هذه الحفلات والليالي كثيراً من البهاء والروعة ويبث في نفوس الشعب كثيراً من الحماسة والبهجة ، ويقترن في الوقت نفسه بفيض من البذل والعطاء اللذين امتازت بهما الدولة الفاطمية طوال عهدها

وكان الخليفة الفاطمي يركب لصلاة الجمعة بالناس ويخطبهم ثلاث مرات في العام ، في الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ؛ الأولى بالجامع الأنور ، والثانية بالجامع الأزهر ، والثالثة والأخيرة بالجامع العتيق أو جامع عمرو : وكان للخلافة الفاطمية رسوم وتقاليد مذهبية معينة في اجراء صلاة الجمعة وصفتها لنا روايات العصر . وقد نقل الينا المقريزي عن ابن الطوير وهو مؤرخ معاصر ، هيئة صلاة الجمعة في هذه الأيام المشهودة ؛ وخلاصة ذلك أن يركب الخليفة في موكبه الفخم الى الجامع ، وقد ارتدى ثياب الحرير البيض الساذجة توقيراً للصلاة ، ويدخل من باب الخطابة ؛ وتتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله ، فيأتي صاحب بيت المال وبين يديه الفرش المختص بالخليفة محمولا بأيدي الفراشين المميزين ملفوفاً في العراضي الديبقية ، فيفرش في المحراب ثلاث طراحات فاخرات إما شاميات وأما ديبقي أبيض منقوش بالحمرة ، واحدة فوق أخرى ، ويعلق ستران يمنة ويسرة ، يكتب في أولها بالحرير الأحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، ويكتب في الستر الثاني سورة المنافقين كتابة واضحة ؛ ويصعد قاضي القضاة الى المنبر ، وفي يده مدخنة لطيفة من الخيزران يقدمها صاحب

بيت المـال ، وفيها ند خاص بالخليفة ، ويبخر بها ذروة المنبر ؛ فاذا وصـل الخليفة بموكبه الفخم من المظلة والآلات ، وبين يديه القراء يرتلون منذ خروجه من القصر ، ومن حوله الجند والركابية ، دخل من باب الخطابة الى قاعة الخطابة وجلس فيها ، وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار الجند ، ومن الداخل حتى الباب بصبيان الخاص وغيرهم ؛ فاذا أذن بالجمعة دخل اليه قاضى القضاة وسـلم عليه بقوله : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله » فيخرج الخليفة وحوله الأساتذة المحنكون والوزراء والأمراء والحرس المسلح ، ويصعد الى ذروة المنبر تحت القبة المبخرة ، ويقف الوزير بباب المنبر ووجهه اليه ؛ فاذا جلس أشار الى الوزير بالصعود ، فيصعد اليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزر تلك القبة حتى تصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلا للخليفة ويقف ضابطا للمنبر ؛ وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الانشـاء ، يتلو فيها آية من القرءن الـكريم ، ثم يصلى على أبيه أى على بن أبى طالب وجده أى النبى عليه السلام ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ، ويذكر من سـلف من آبائه حتى يصل الى نفسه ، ويتوسل بدعوات فخمة تليق به ، ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ، ثم يختتم بقوله « اذكروا الله يذكركم » فيصعد اليه الوزير ويفك ازرة القبة ويعود القهقرى ؛ فينزل الخليفة ، ويقف للصـلاة فوق الطراحات المذكورة فى المحراب وحده إماما ، وخلفه الوزير والقاضى ، ومن ورائهما الأسـاتذة والأمراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ؛ فاذا سمع الوزير الخليفة ، أسمع القاضى ، وأسمع القاضى المؤذنين فأسمعوا الناس ؛ ويقرأ الخليفة فى الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر الأيمن ، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر ؛ فاذا انتهت الصـلاة خرج الناس وركبوا تباعا ؛ ثم يعود الخليفة بموكبه الى القصر ، والطبول والبوقات تضرب ذهابا وإيابا . ويتـكرر هذا الترتيب والنظام في المرتين الأخريين (١)

وكانت هذه الحفلات الدينية الرسمية من الأيام المشهودة تزين فيها المدينة أعظم زينة ، ويكثر الخليفة فيهـا من الصلة والهبات ؛ وكان الخليفة يركب أيضاً مرة أو

(١) راجع المقريزى عن ابن الطوير ج ؟ ص ٦١ و ٦٢ ؛ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٩ - ٥١١

مرتين فى الأسبوع للتنزه فى البساتين والقصور الملكية فى ضواحى المدينة ، وفيها أيضاً تنثر الصلات والصدقات

هكذا كانت الخلافة الفاطمية تحتفى بأعيادها ومواسمها ولياليها فى بذخ طائل ؛ وهكذا كانت رسومها ومواكبها ومظاهرها مثال الروعة والبهاء ؛ وقد نقل الينا المؤرخون المتأخرون ، ولا سيما المقريزى ، عن مؤرخى الدولة الفاطمية الذين شهدوا بذخها وفخامتها شذوراً رائعة عن هذه الحفلات والليالى المشهودة ، وهى شذور تذكى الخيال الى الذروة ؛ وكانت الخلافة الفاطمية ترمى بترتيب هذه الرسوم والحفلات الباذخة الى غايتين : الاولى أن تبث هيبتها الدينية بما تسبغه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم المذهبية ، والثانية أن تغمر الشعب المصرى بفيض من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة ، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر ، وأن تنثر عليه ما استطاعت من دواعى البهجة والمرح ، وذلك لكى تكسب ولاءه وعرفانه وتأييده ؛ وقد كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائماً أنها لم تكسب كل ولائه ، وأن سياستها المذهبية تبث الى نفسه شيئاً من الوحشة والريب . بيد أن الدولة الفاطمية كانت بحق دولة البهاء والبذخ الطائل ، وكانت هذه الرسوم والمظاهر الرائعة من بعض مظاهر قوتها وعظمتها وغناها ؛ وكانت هذه الروح الفخمة الباذخة تطبع كل رسومها ومظاهرها ، فى القصر وفى الخارج ، فى السياسة وفى الدين والادارة وفى الحياة العامة والحياة الخاصة ؛ وتطبع على العموم كل أعمالها وتصرفاتها

وللفقيه الشاعر عمارة اليمنى (١) قصيدة مؤثرة فى رثاء الدولة الفاطمية التى شهد آخر مظاهر لرسومها وجودها وبذخها ، وأدرك نهايتها وسقوطها ، وهذا مطلعها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور فان ... قدرت من عثرات الدهر فاستقل

ومنها :

مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد ... من الاعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسف دمعى غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل

---

(١) سنعود الى ذكر عمارة اليمنى فيما بعد

أبكى على ما تراءت من مكارمكم حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما يهتز ما بين قصريكم من الاسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الأ طباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللا ضيف المقيم وللطاوى من الرسل
وللجوامع من احسانكم نعم لمن تصدر فى علم وفى عمل
أئمتى وهداتى والذخيرة لى اذا ارتهنت بما قدمت من عملى
باب النجاة هم دنيا وآخرة وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى ومحـ ل الغيث ان ربت الأنواء فى المحل
أئمة خلقوا نوراً فنورهم من محض خالص نور الله لم يفل

الفصل الثالث

الحركة الفكرية

العلوم والآداب . أثر الروح المذهبية في سيرها . قوتها في عهد الدولة الاخشيدية. قيام الأزهر.جامعة دار الحكمة. تقدم الدراسات المذهبية . بنو النعمان. الوزير ابن كلس نصير الحركة الفكرية . الحسن بن زولاق ، رعاية الحاكم للعلوم والآداب . عز الملك المسبحي . ركود الحركة الأدبية في عهد المستنصر . ابو عبد الله القضاعي . أعلام التفكير الآخرون . شعراء هذا العصر . الكتاب والمؤرخون . كتاب الانشاء . ابن الصيرفى . القاضي الفاضل . ازدهار النثر في أواخر الدولة الفاطمية . الاعلام الوافدون على مصر . أمية بن ابي الصلت . ابو بكر الطرطوشي . الشعراء الوافدون . عمارة اليمني .

لم تبلغ العلوم والآداب في ظل الدولة الفاطمية من التقدم والازدهار ما كان خليقاً أن تبلغه في ظل هذه الدولة القوية الباذخة ؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت لظروفها الدينية والسياسية ترمى الى الانشاء فى كل شيء ، ولم ترد أن تقوم على تراث الماضي أو أن تستأنف السير به ؛ ولم يمد لها فى عصر الانشاء الفنى أكثر من قرن ، ولم يأت منتصف القرن الخامس الهجرى حتى كانت عوامل الانحلال والوهن قد سرت اليها ، وأخذت تقوض من دعائم صرحها الباذخ

وكانت الروح والاعتبارات المذهبية تحول في الوقت نفسه دون تفتح البحث الحر والأدب الطليق ، فلم تطلق أعنة التفكير والكتابة لتزدهر ما شاءت فى آفاقها الحرة ، ولم يزدهر منها إلا ما حبته الروح المذهبية وارتضت أن يزدهر ؛ وكان لذلك أثره فى ضعف الحركة العقلية والأدبية فى العصر الفاطمى . بيد أن هذه البواعث المذهبية ذاتها كانت من جهة أخرى عاملا في ازدهار فنون خاصة من الأدب والكتابة ، فمثلا نجد السجلات والخطب الخلافية ، ولغة الدواوين الفاطمية تمتاز بروعة فى الأسلوب والتعبير قلما نجدها فى عهد دولة اسلامية أخرى

قامت الدولة الفاطمية بمصر ، والحركة العقلية المصرية تجوز طوراً من أطوار

قوتها . ذلك أن الدولة الاخشيدية التى استخلص الفاطميون منها تراث مصر، كانت نصيرة للعلوم والآداب ؛ وفى ظلها ازدهرت الحركة الأدبية ونبغ عدة من المفكرين والكتاب الممتازين مثل ابن يونس المحدث والمؤرخ ، والفقيه أبو بكر الحداد، وأبو عمر الكندى المؤرخ ، والأديبين الشاعرين أبو جعفر النحاس وأبو القاسم بن طباطبا الحسينى، والحسن بن زولاق الفقيه والمؤرخ[1] ؛ ووفد المتنبى على مصر فى عهد كافور (سنة ٣٤٦ هـ) فبثت حلقاته الأدبية الى الشعر روحاً جديداً . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر شغلت مدى حين بتوطيد ملكها الفتى ، ولم تول الحركة العقلية كبير عناية ؛ بيد أن الحركة العقلية لم تلبث أن لقيت ملاذها في قيام الجامعة الفاطمية الكبرى ، أعنى الجامع الأزهر الذى أقيم فى البداية ليكون مسجد الدولة الجديدة ومنبرها الرسمى ، ثم أنشئت فيه منذ عهد العزيز بالله تلك الحلقات الدراسية التى استحالت فيما بعد الى جامعة حقة ؛ وكانت الدولة الفاطمية تعنى منذ قيامها بناحية معينة من الدراسات الدينية هى الناحية المذهبية ، وفى سبيل بثها واذاعتها نظمت مجالس الحكمة فى القصر وفى الجامع الأزهر ، وأنشئت جامعة دار الحكمة الشهيرة في عهد الحاكم بأمر الله حسبما فصلنا ، وأنشىء منصب داعى الدعاة ليشرف على بث الدعوة على يد نوابه ونقبائه ؛ وتولى تدريس الأصول الشيعية وفقه آل البيت منذ البداية جماعة من الفقهاء الممتازين فى مقدمتهم بنو النعمان وهم أسرة مغربية نابهة قدمت الى مصر فى ركب المعز لدين الله ، وتعاقب بنوها في قضاء مصر زهاء نصف قرن ؛ وكان عميدها القاضى أبو الحسن بن على النعمان أول من درس فى الجامع الأزهر ، فعقد أول حلقاته سنه ٣٦٥ هـ ، وقرأ فيها مختصر أبيه فى فقه آل البيت ، وكان فوق تضلعه فى العلوم الدينية ، أديباً شاعراً ، وتوفى سنة ٣٧٤ هـ ؛ فخلفه فى منصبه ومهمته الدراسية أخوه القاضى محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، ثم ولده الحسين بن النعمان الذى تولى القضاء فى عهد الحاكم بأمر الله ، وقتله الحاكم سنة ٣٩٤ هـ ثم أخوه القاضى عبد العزيز بن النعمان الذى قتله الحاكم سنة ٤٠٣ هـ [2] ؛ وكان

---

(١) توفى ابن يونس سنة ٣٤٧ هـ وابو بكر الحداد سنة ٣٤٥ هـ ، والكندى سنة ٣٥٠ هـ وابو جعفر النحاس سنة ٣٣٨ هـ ، وابن طبا طبا سنة ٣٤٥ هـ ، وابن زولاق سنة ٣٨٧ هـ

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٣ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٦٨ ، وذيل القضاة (ملحق كتاب قضاة مصر للكندى) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١

لجهود هذه الأسرة النابهة التي قضى عليها الحاكم بأمر الله أثر كبير فى بث الدراسات الدينية الشيعية ، وفي توجيه الحركة الفكرية والأدبية فى أواخر القرن الرابع

ويجب ألا ننسى ما كان للوزير ابن كلس ، وزير المعز لدين الله ثم ولده العزيز من أثر بارز في توجيه الأزهر الى مصيره الجامعى ، فقد كان هـذا الوزير المستنير أول من رتب للأزهر أول فوج من الأساتذة الدائمين فى عهد العزيز بالله، وبذلك أسبغ عليه صفة الجامعة المستقرة ؛ وكان ابن كلس نفسه ضليعا فى الفقه شاعراً أديباً يقرأ دروسه بنفسه أحيانا فى الجامع الأزهر وأحيـانا بداره ؛ وقد ألف كتباً فى علوم الدين والفقه وكتاباً فى علم الأبدان ؛ وكان فوق ذلك نصيراً للحركة الفكرية يتعهد العلماء والأدباء والشعراء برعايته ، ويغدق عليهم عطاءه وصلاته ، ويجمعهم فى داره فى حلقات علمية أدبية كان لها أكبر صدى فى العصر (١)

وقد أدرك الحسن بن زولاق المصرى عميد الحركة الأدبية فى عصر بنى الاخشيد الدولة الفاطمية ، وأخذ بقسطه فى زعامة الحركة الأدبية فى عهد المعز والعزيز ؛ وأولاه المعز عطفه ورعايته ، وألف كتابا فى سيرة المعز لدين الله ، لم يصل الينا ، ولكن نقلت الينا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين تدلى بأهميته فى وصف أحداث هذه المرحلة الأولى من عصر الدولة الفاطمية ؛ وتوفى سنة ٣٨٧هـ فى بداية عصر الحاكم وقد أربى على الثمانين

وفى عصر الحاكم بأمر الله كانت الحركة الأدبية قد استقرت واتخذت وجهتها الجديدة فى ظل الدولة الجديدة ؛ وقامت دار الحكمة الفاطمية يومئذ تغذى الحركة العقلية الى جانب الأزهر ، والمسجد الجامع (جامع عمرو) الذى كانت حلقاته العلمية والأدبية دائما عنصراً بارزاً فى تكوين الحركة الفكرية المصرية فى تلك العصور ؛ وأولى الحاكم الحركة العقلية شيئا من رعايته حسبما أشرنا الى ذلك فى موضعه (٢) ، فأجزل النفقة لدار الحكمة وزودها بخزائن الكتب الجليلة ، وعقد مجالس المناظرة للعلماء والأدباء ، وغمرهم بصلاته ، وقرب اليه عدة من أقطاب المفكرين والأدباء فى هذا العصر مثل المسبحى الكاتب والمؤرخ الكبير ؛ ومحمد بن

(١) المقريزى ج ٣ ص ٩
(٢) راجع ص ٨٣ من هذا الكتاب

القاسم بن عاصم شاعر الحاكم وجليسه ، وكان من أشهر شعراء العصر ؛ وأبى الحسن على بن محمد الشابشتى الكاتب صاحب كتاب الديارات وقد توفى سنة ٣٩٠ هـ ؛ وابن يونس العلامة الرياضى والفلكى وصاحب الزيج الشهير الذى الفه خصيصاً للحاكم ، وكان أيضا أديباً وشاعراً وقد كتب تاريخا لمصر ؛ والمهندس البصرى الكبير أبو على بن الحسين بن الهيثم ؛ وغيرهم ممن تولوا قيادة الحركة الفكرية فى هذا العصر ونبغ فى تلك الفكرة عدة من أكابر الأطباء منهم محمد بن احمد بن سعيد التميمى طبيب العزيز بالله ، وأبو الفتح منصور بن مقشر النصرانى طبيب العزيز أيضاً ثم طبيب ولده الحاكم من بعده ، وكانت له منزلة سامية بالقصر.

وكان المسبحى أعظم شخصية في الحركة الادبية فى عصر الحاكم بأمر الله ؛ وهو الامير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن احمد الحرانى : ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ ؛ وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية ؛ تولى بعض المناصب الوزارية والادارية الهامة في عصر الحاكم ؛ وقربه الحاكم اليه ونال لديه حظوة كبيرة وكان من جلسائه وخاصته ؛ وأخذ المسبحى بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ، وشغف بتدوين التاريخ ، والف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والامراء والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والآثار ، وذكر نيلها وخواصها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ؛ ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمته ونفاسته ؛ وكتب المسبحى كتبا أخرى فى التاريخ والأدب والفلك والاجتماع ، ولكننا لم نتلق شيئاً منها(١)

وازدهرت الحركة الفكرية المصرية نوعا خلال النصف الأول من القرن الخامس ، بيد أنها ضعفت فى أواخر هذا القرن فى عهد المستنصر بالله ، وكانت هذه الفترة غاصة بالمحن والأحداث والفتن الداخلية والخارجية ، فلم تلق الحركة الأدبية كثيرا من الرعاية أو التعضيد ؛ بيد أنها عادت فى أوائل القرن السادس فانتعشت ، واستمرت على انتعاشها وقوتها حتى نهاية الدولة الفاطمية (سنة ٥٦٩ هـ)

---

(١) راجع فى ترجمة المسبحى وذكر مؤلفاته ، ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

وظهر من أعلام التفكير والأدب خلال هذه الحقبة جمهرة لا بأس بها ، وان كانت فى مجموعها وقوتها لا تتناسب مع عظمة الدولة الفاطمية وبهائها ؛ فنهم القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ ؛ وهو أبو عبد الله محمد بن سلامه بن جعفر القضاعى ، ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى سنة ٤٥٤ ﻫ ؛ وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ؛ وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد المستنصر بالله ؛ وأوفده المستنصر الى تيودورا أمبراطورة قسطنطينية سنة ٤٤٧ ﻫ ليحاول عقد الصلح بينهما ؛ وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ منها «الشهاب» «ومسند الصحاب» وهما فى الحديث . و«مناقب الامام الشافعى»و «أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء » و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ؛ وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره (١)

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى ؛ وهو أبو الحسن على بن ابراهيم بن سعيد ؛ كان من أئمة الأدب واللغة فى عصره، واشتغل حينا بالتدريس فى مصر والقاهرة وألف كتبا فى النحو والأدب منها كتاب « اعراب القرآن » وتوفى سنة ٤٣٠ ﻫ

ومنهم أبو العباس احمد بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين ، واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفى سنة ٤٤٥ ﻫ

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ؛ وهو أبو الحسن طاهر بن احمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ؛ كان امام عصره فى النحو واللغة وألف فيهما عدة تصانيف ضخمة ، واشتغل حينا بديوان الانشاء فى عهد المستنصر بالله ، وتوفى سنة ٤٦٩ ﻫ

ومنهم أبو الحسن الرشيد بن الزبير ، وكان متضلعاً فى الرياضيات والهندسة والمنطق ، بارعاً فى النثر والنظم ؛ توفى قتيلا فى سنة ٥٦٣ ﻫ

ومنهم الحافظ أبو طاهر السلفى ؛ كان امام عصره فى الحديث والنقد والرواية ، واليه انتهت رياستها عصراً طويلا ؛ توفى سنة ٥٧٦ ﻫ وقد جاوز المائة من عمره

ومن الشعراء فى هذه الفترة هاشم بن العباس المصرى ، وقد اشتهر بتصوير الاقليم والطبيعة ؛ وظافر بن القاسم الجذامى الاسكندرى المتوفى سنة ٥٢٩ ﻫ ؛

---

(١) راجع فى ترجمة القضاعى ، ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ ، والسبكى فى طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨

وأبو الغمر محمد بن على الهاشمى ، وقد كان من أعظم شعراء هذا العصر ، وتوفى سنة ٥٤٤ ﻫ ؛ ومحمود بن اسماعيل أبو الفتح الدمياطى كاتب الانشاء فى عهد الخليفة العاضد وشيخ القاضى الفاضل ، وكان يعرف بذى البلاغتين ، وقد توفى سنة ٥٥١ ﻫ ؛ والصالح طلائع بن رزيك وزير العاضد ، وكان شاعراً مجيداً حماسى النزعة ، وفقيها بارعاً فى علوم الشيعة ، صنف كتاباً فى امامة على ، وتوفى قتيلا فى سنة ٥٥٦ ﻫ ؛ وعبد العزيز بن الحسين بن الجباب المعروف بالجليس لأنه كان من جلساء الخليفة العاضد ، وتوفى سنة ٥٦١ ؛ والقاضى موفق الدين يوسف بن محمد المصرى المعروف بابن الخلال ، كان أعظم شعراء عصره ، وتولى ديوان الانشاء حينا فى عهد العاضد مع القاضى الفاضل وتوفى سنة ٥٦٧ ﻫ ؛ وأبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الاسكندرى تلميذ السلفى ، وصاحب الديوان المشهور باسمه ، وقد توفى سنة ٥٦٧ ﻫ(١)

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا في تلك الفترة ، أعنى فى أواخر الدولة الفاطمية ، ابن المأمون البطائحى ، ولد المأمون وزير الخليفة الآمر بأحكام الله ، وقد ألف تاريخاً استعرض فيه كثيرا من نظم الدوله الفاطمية ورسومها فى أواخر عهد المستنصر ، وعهد الآمر ، ومنه ينقل المقريزى فى مواضع كثيرة ؛ وابن القيسرانى أبو محمد بن عبد السلام المعروف بابن الطوير المصرى مؤلف كتاب « نزهة المقلتين فى اخبار الدولتين » وهو مؤلف لم يصلنا ، ولكن المقريزى يدلل على أهميته وطرافته بما يقتبس منه فى أخبار المواكب والحفلات الفاطمية ؛ وابن بركات النحوى تلميذ القضاعى ، كان من أقطاب اللغة والأدب وتوفى سنة ٥٢٠ ﻫ ؛ والشريف الجوانى ، وقد ألف كتاباً فى الخطط ، ينقل المقريزى عنه فى مواضع كثيرة وتوفى سنة ٥٨٨ ﻫ

وقد امتازت هذه الفترة الأخيرة من عصر الدولة الفاطمية بازدهار النثر وبراعته ، وروعة أسلوبه وافتنانه ؛ وتعاقب فيها فى ديوان الأنشاء عدة من أئمة البيان الرائع ، الذين جعلوا من رسائلهم الخلافية والديوانية نماذج من الفصاحة الباهرة ؛ وكان من هؤلاء أبو الفتح الدمياطى شيخ القاضى الفاضل ، وابن الخلال الشاعر حسبما قدمنا فى ثبت الشعراء ؛ ونبغ منهم بالأخص الوزير أبو القاسم على بن منجب الشهير بابن الصيرفى ، والقاضى الفاضل . وكان الأول من أعظم كتاب الدولة الفاطمية ،

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٩ و ٢٧٠

وتولى ديوان الانشاء حيناً للخليفة الآمر بأحكام الله ، وكان إمام عصره فى النثر والبلاغة ، وبرع في النظم أيضاً : ومن مؤلفاته كتاب « الاشارة الى من نال الوزارة » ألفه للمأمون وزير الآمر بأحكام الله ، واستعرض فيه ذكر وزراء الدولة الفاطمية منذ عصر العزيز بالله حتى عصره ، وتوفي سنة ٥٤٢ ه وقد جاوز التسعين . وأما القاضى الفاضل فهو أبو على عبدالرحيم بن على البيسانى ثم المصرى ، كان من أئمة النثر والبلاغة ، وتولى فى شبابه ديوان الانشاء للعاضد ، وبرع فى الكتابة براعة فائقة ، وله طائفة كبيرة من الرسائل تعتبر نماذج حقة للبلاغة الرائعة ؛ ولما سقطت الدولة الفاطمية وزر القاضى الفاضل لصلاح الدين ، ونال لديه حظوة كبيرة ، وكتب القاضى الفاضل أيضا تاريخ عصره فى حوليات تعرف بالمتجددات . وتوفى سنة ٥٩٦ ه

وقد أورد لنا القلقشندى في كتابه « صبح الأعشى » طائفة كبيرة من السجلات والمراسيم والرسائل القوية من انشاء هؤلاء الكتاب الأعلام ، تشهد أساليبها الرفيعة ، وبيانها الساحر بما بلغه النثر فى أواخر العصر الفاطمى من القوة والروعة والبهاء (١)

هذا وقد وفد على مصر فى العصر الفاطمى طائفة من أعلام التفكير والأدب من المشرق والمغرب وكان لهم أثر قوى في سير الحركة العقلية يومئذ

ومن هؤلاء الأعلام الوافدين ، العلامة الأندلسى أمية بن عبد العزيز بن ابى الصلت ، وفد على مصر فى أوائل القرن السادس أيام الأفضل شاهنشاه ، وأقام حيناً بالقاهرة يتصل بمعاهدها وعلمائها وأدبائها ؛ وكان بارعاً فى الرياضة والفلك والموسيقى والعلوم الطبيعية، أديباً شاعراً فائق النثر والنظم ؛ ألف كثيراً من الكتب فى مختلف العلوم ، ووضع رسالة عن علماء مصر وأدبائها فى عصره ، وتوفى سنة ٥٢٨ ه

ومنهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ ه ؛ وقد وفد على مصر أيام الآمر بأحكام الله ، وألف كتابه الشهير « سراج الملوك » للمأمون وزير الآمر ، وكان نصيراً للعلوم والآداب ؛ وكان كتاب « سراج الملوك » فتحاً جديداً فى موضوعه ، وهو السياسة الملكية التى يتناولها بافاضة ممتعة ، ويطرق فيها أبواباً لم تطرق من قبل ؛ وقد نوه ابن خلدون فى مقدمته بأهميته وطرافته

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر أيام الدولة الفاطمية ، وتغنوا بمحاسنها

---

(١) راجع صبح الاعشى ج ١٠ ص ٣١٠ وما بعدها

ومغانيها ، ابو حامد احمد بن محمد الانطاكى المعروف بأبى الرقعمق الشاعر الماجن المتفنن ، وفد على مصر فى أوائل الدولة ومدح المعز وولده العزيز والوزير ابن كلس وتوفى سنة ٣٩٩ ه ؛ وأبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى المعروف بصريع الدلا ، قدم الى مصر أيام الحاكم بأمرالله ومدحه ، وهو صاحب المقصورة الهزلية الشهيرة التي يعارض فيها مقصورة ابن دريد ، وتوفى سنة ٤١٢ ه ؛ وأبو اسحاق ابراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق شاعر المغرب ، وفد على مصر أيام الحاكم غير مرة موفداً من بلاط المغرب الى البلاط المصرى ليعمل على توثيق الروابط بينهما ؛ ولقى من الحاكم وأخته ست الملك وافر الاكرام والرعاية ؛ وأشاد بمصر ومحاسنها في عدة قصائد رائعة ؛ وكانت وفاته سنة ٤١٨ ه

ومنهم الشاعر والفقيه الأشهر أبو محمد عمارة بن أبى الحسن اليمنى ، الذى سبقت الاشارة اليه ؛ قدم الى مصر لأول مرة سنة ٥٥٠ ه ، فى خلافة الفائز بالله سفيراً ؛ ثم وفد عليها مرة أخرى أيام العاضد بالله ، وبقى فيها حتى وفاة العاضد وسقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ ه ؛ ولقى من البلاط الفاطمى رعاية كبيرة ، ولبث على ولائه للفاطميين رغم زوال دولتهم . وفى سنة ٥٦٩ ه اتهم مع جماعة من المصريين العلويين بالتآمر على صلاح الدين ، فقضى عليه بالاعدام معهم ، وأعدم صلباً . ومن أشهر قصائده رثاؤه للدولة الفاطمية الذى نقلنا بعضه فيما تقدم ، وقد كان من أدلة اتهامه ؛ وله عدة مؤلفات تاريخية ، منها تاريخ اليمن ، وكتاب النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ، وله أيضاً ديوان شعر فائق

تلك لمحة موجزة فى سير الحركة الأدبية فى العصر الفاطمى ؛ وليس من موضوعنا أن نتبسط فى التحدث عن النظم والرسوم الفاطمية ، وعن الحركة العقلية فى العصر الفاطمى ؛ ولكنا شعرنا ونحن نكتب عن عصر الحاكم بأمر الله ، وهو فترة من أغرب فترات العصر الفاطمى ، وأشدها غموضاً وخفاء وطرافة ، وأبعدها أثراً فى سير العصر كله ، أن استعراض نظم العصر ورسومه ، وخواصه السياسية والاجتماعية ، مما يلقى ضياء على كثير من نواحى العصر الذى عنينا به ، ويعاون فى فهم كثير من أحداثه وتطوراته

وثائق وسجلات فاطمية

١

أمان جوهر الى الشعب المصرى

وهو نص الأمان الذى أصدره جوهر الصقلى فاتح مصر الى أهل مصر عند افتتاحها فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ منقول عن كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الخلفا للمقريزى ص ٦٧ - ٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم ؛ انه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاه وأبو اسماعيل الرسى أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمى أيده الله ، وأبو جعفر احمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ؛ وذكروا عنكم انكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم ، فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمة لكم ، العايدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو انه صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، الا لما فيه اعزازكم وحمايتكم ، والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتكم الأيدى ، واستطال عليكم المستذل ، والممعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، باخراج العساكر المنصورة وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم ، وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزى ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصايب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ، فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم ، وأبكا عينه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه ، واحسانه لديه ، وما عوده وارجاه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم ، وعذاب أليم ، وأن يؤمن من

استولى عليه المهل ، ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وأثر اقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، واذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات ، وقطع عيث العايثين فيها ، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات اذ كان قد انتهى اليه صلوات الله عليه ، انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، اذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ، ثم تجويد السكة وصرفها الى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغش منها ، اذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين الا اصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ، وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليـه ، الى عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ، واعانة المظلوم ، مع الشفقة والاحسان ، وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، وافتقاد الأموال ، وحياطة أهل البلد ، فى ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم الا على ما لم شعثهم ، واقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم ، وألف كلمتهم على طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وما أمره به مولاه من اسقاط الرسوم الجايرة التى لا يرتضى صلوات الله عليه باثباتها عليكم ، وأن أجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، واضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن اتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم، وادرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال لا باحالة على من يقبض منهم ، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، مما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم ، وتطميناً لانفسكم ، فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الاسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة ،

وهى إقامتكم على مذاهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سالف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الامصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الاذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ، ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته ، واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه ، ولكم على أمان الله التام العام الدايم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتاكد على الأيام وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض (عليكم) معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ، فلا يتعرض الى اذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ، ويصل اليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ولكم على الوفا بما التزمته ، وأعطيكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الايمة موالينا امراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف اليها ، وتخرجون الى وتسلمون علىّ وتكونون بين يدى ، الى أن أعبر الجسر وأنزل من المناخ المبارك ، وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون الى فروضها ، ولا تخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين

وكتب جوهر القايد الأمان بخطه فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثماية ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار ؛ وكتب بخطه فى هذا الكتاب قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وابنائه الاكرمين ، كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى الوفا بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم ؛ على ما شرطت فيه والحمد الله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين .

٧

كتاب المعز لدين الله الى الحسن الأعصم زعيم القرامطة

وهو نص الكتاب الذى أرسله الخليفة المعز لدين الله الى الحسن بن احمد القرمطى الملقب بالأعصم حينما زحف بقواته على مصر ؛ وفيه يستعرض المعز خواص الامامة الفاطمية وميزاتها ودلالاتها وينوه بقدسيتها وقدرتها الروحية ، ويشير الى ماكان عليه القرامطة من الطاعة للخلافة الفاطمية ثم نكثهم لها ، ويتوعد القرامطة بسوء العاقبة . منقول عن كتاب اتعاظ الحنفاء للمقريزى ص ١٣٣ - ١٤٣ وبه نقص فى الأصل

من عبد الله ووليه وخيرته وصفيه معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل على أفضل الوصيين ، الى الحسن بن احمد

بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقا ومذاهب الأئمة والأنبيا ، ومسالك الرسل والأوصيا السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا وعلى آبائنا أولى الأيدى والأبصار ، فى متقدم الدهور والأكوار وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصابهم لأمر الله ، الابتدا بالاعذار والانتها بالانذار ، قبل إنفاذ الأقدار ، فى أهل الشقاق والآصار ، لتكون الحجة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسب ما قال الله جل وعز « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقوله سبحانه « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم فى شقاق » . أما بعد أيها الناس ، فانا نحمد الله بجميع محامده ونمجده بأحسن مماجده ، حمداً دائماً أبداً ، ومجدا عاليا سرمداً ، على سبوغ نعمائه وحسن بلائه ، ونبتغى اليه الوسيلة بالتوفيق ، والمعونة على طاعته ، والتسديد فى نصرته ، ونستكفيه ممايلة الهوى ، والزيغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه اتمام الصلوات ، وافاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفايه التالين ، منا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون . أيها الناس ، «قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » ليذكر من يذكر وينذر من أبصر واعتبر . أيها الناس ، ان الله

جل وعز إذا أراد أمراً قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحاً ، وأبرزنا أرواحاً ، بالقدرة مالكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماء مبنية ، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ، ولا كوكب يجرى ، ولا ليل يجن ، ولا أفق يكن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار . فنحن أول الفكرة وآخر العمل ، بقدر مقدور ، وأمر فى القدم مبرور ؛ فعند تكامل الأمر ، وصحة العزم ، وأنشاء الله جل وعز المنشآت ، وأبداء الامهات من الهيولات ، طبعنا أنواراً وظلماً ، وحركة وسكوناً ؛ وكان من حكمه السابق فى علمه ما ترون من فلك دوار ، وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما فى الآفاق من آثار معجزات وأنوار باهرات ، وما فى الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع ، من كثيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ومحسوس وملموس ، ودان وشاسع ، وهابط وطالع ؛ كل ذلك لنا ، ومن أجلنا دلالة علينا ، واشارة الينا يهدى به الله من كان له لب سجيح ، ورأى صحيح ؛ قد سبقت له منا الحسنى فدان بالمعنى . ثم انه جل وعلا أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم ، آدم وحواء أبوين ذكراً وأنثى سبباً لانشاء البشرية ، ودلالة لاظهار القدرة القوية ؛ وزاوج بينهما ، فتوالد الأولاد ، وتكاثرت الأعداد ؛ ونحن ننتقل فى الأصلاب الزكية ، والأرحام الطاهرة المرضية ، كل ما ضمنا صلب ورحم ، أظهرمنا قدرة وعلم ، وهلم جراً ، الى آخر الجد الأول والأب الأفضل سيد المرسلين وامام النبيين احمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله فى كل ناد ومشهد ، فحسن آلاؤه ، وبان غناؤه ، وأباد المشركين ، وقصم الظالمين وأظهر الحق ، واستعمل الصدق ، وظهر بالأحدية ، ودان بالصمدية ؛ فعندها سقطت الأصنام ، وانعقد الإسلام ، وانتشر الإيمان ، وبطل السحر والقربان ، وهربت الأوثان ، وأتى بالقرآن شاهداً (بالحق) والبرهان فيه ، خير ما كان وما يكون الى يوم الوقت المعلوم ، مبيناً عن كتب تقدمت فى صحف قد تنزلت تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة ونوراً وسراجاً منيراً

وكل ذلك دلالات لنا ومقدمات بين أيدينا ، وأسباب لاظهار أمرنا ، هدايات وآيات وشهادات ، وسادات قدسيات ، إلاهيات أزليات ، كاينات منشآت ،

مبديات معيدات ؛ فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر الا وقد أشار الينا ، ولوح بنا ودل علينا فى كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ومرموز كلامه ، فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن يعلمه من سمع الندا ، وشاهد ورأى من الملأ الأعلى ، فمن أغفل منكم أو نسى أو ضل أو غوى ، فلينظر فى الكتب الاولى ، والصحف المنزلة ، وليتأمل الى القرآن وما فيه من البيان ، وليسأل أهل الذكر ان كان لا يعلم ؛ فقد أمر الله عز وجل بالسؤال فقال « فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » وقال سبحانه وتعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . ألا تسمعون قول الله حيث يقول « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » وقوله تقدست أسماؤه « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » وقوله له العزة « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » ومثل ذلك فى كتاب الله تعالى جدا كثير ، ولولا الاطالة لأتينا على كثير منه ؛ ومما دل به علينا وأنبأ به عنا قوله عز وجل « كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » وقوله فى تفضيل الجد الفاضل والآب الكامل محمد صلى الله عليه وعليه (السلام) اعلاما بجليل قدرنا وعلو أمرنا « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » هذا مع ما أشار ولوح وأبان وأوضح فى السر والاعلان من كل مثل مضروب ، وآية وخبر واشارة ودلالة ، حيث يقول « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » وقال سبحانه وتعالى « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » وقوله جل وعز « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » فان اعتبر معتبر ، وقام وتدبر ما فى الأرض وما في الأقطار والآثار ، وما فى النفس من الصور المختلفات ، والاعضاء المتولفات والآيات والعلامات والاتفاقات ، والاختراعات والاجناس والانواع ، وما في كون الابداع من الصور البشرية والآثار العلوية ، وما يشهد به حروف

المعجم والحساب المقوم ، وما جمعته الفرايض والسنن وما جمعته السنون من فصل وشهر ويوم ، وتصنيف القران من تجزيبه وأسباعه ومعانيه وأرباعه ، وموضع الشرايع المتقدمة والسنن المحكمة ، وما جمعته كلمة الاخلاص فى تقاطيعها وحروفها وفصولها ، وما فى الأرض من اقليم وجزيرة وبر وبحر وسهل وجبل وطول وعرض وفوق وتحت الى ما اتفق فى جميع الحروف من أسما المدبرات السبعة والأيام السبعة النطقا ، والأوصيا والخلفا ، وما صدرت به الشرايع من فرض وسنة وحدوسة وما فى الحساب من آحاد وأفراد وأزواج وأعداد تثاليثه وترابيعه واثناعشريته وتسابيعه وأبواب العشرات والمئين والألوف ، وكيف تجتمع وتشتمل على ما اجتمع عليه وما تقدم من شاهد عدل ، وقول صدق وحكمة حكيم وترتيب عليم ، فلا اله إلا هو له الأسماء الحسنى والأمثال العلى ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . وفوق كل ذى علم عليم . ولو ان مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، وليعلم من الناس من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أنا كلمات الله الازليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدايعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لا يخرج منا أمر ولا يخلو منا عصر ، وانا لكما قال الله سبحانه وتعالى « ما يكون نجوى ثلثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلاهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم » . فاستشعروا النظر فقد نقر فى الناقور وفار التنور ، وأتى النذيرين يدى عذاب شديد ، فمن شاء فلينظر ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول الا البلاغ المبين . وكتابنا هذا من فسطاط مصر وقد جئناها على قدر مقدور ووقت مذكور ، فلا نرفع قدما ولا نضع قدما ، الا بعلم موضوع وحكم مجموع ، وأجل معلوم وأمر قدسبق ، وقضاء قد تحقق ، فلما دخلنا وقد قدر المرجفون من أهلها أن الرجفة تنالهم والصعقة تحل بهم ، تبادروا وتعادوا شاردين ، وجلوا عن الأهل والحريم والأولاد والرسوم ، وانا لنار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة فلم أكشف لهم خبراً ولا قصصت لهم أثراً . ولكنى أمرت بالنداء وأذنت بالامان لكل باد وحاضر ومنافق ومتشاقق ، وعاص ومارق ، ومعاند ومسابق ،

ومن أظهر صفحته وأبدى لى سوءته فاجتمع الموافق والمخالف والبـاين والمنافق ، فقابلت الولى بالاحسان والمسيء بالغفران ،حتى رجع الناد والشارد، وتساوى الفريقان واتفق الجمعان ، وانبسط القطوب ، وزال الشحوب ، جريا على العادة بالاحسان ، والصفح والامتنـان ، والرأفة والغفران ، فتكاثرت الخيرات وانتشرت البركات ؛ كل ذلك بقدرة ربانية وامرة برهانية ، فاقمت الحدود بالبينة والشهود في العرب والعبيد ، والخاص والعام والبادى والحاضر ، بأحكام الله عز وجل ، وأدابه وحقه وصوابه ، فالولى آمن جذل ، والعدو خائف وجل . فاما أنت الغادر الخاين النا كث البائن ، عن هدى ابايه وأجداده المنسلخ من دين اسلافه وأنداده والموقد لنار الفتنة والخارج عن الجماعة والسنة فلم أغفل أمرك ، ولا خفى عنى خبرك ، ولا استتر دونى أثرك ، وأنك منى لبمنظر ومسمع كما قال الله جل وعز « انى معكما أسمع وأرى » ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا » فعرفنا على أى رأى أصلت وأى طريق سلكت ؛ اما كان لك بجدك أبى سعيد أسوة ، وبعمل أبى طاهر قدوة ؛ اما نظرت في كتبهم وأخبارهم ، ولاقرات وصاياهم وأشعارهم ؛ أ كنت غايباً عن ديارهم وما كان من آثارهم ؛ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولى بأس شديد وعزم شديد وأمر رشيد ، وفعل حميد ، يفيض اليهم موادنا ، وينشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسادة فسادوا منحة منا ، واسما من أسمائنا ، فعلت أسماؤهم واستعملت هممهم ، واشتد عزمهم فسارت اليهم وفود الافاق وامتدت نحوهم الاحداق وخضعت لهيبتهم الاعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد ، وأن يكونوا لبنى العباس اضداد ، فعبيت الجيوش وسار اليهم كل خميس بالرجال المنتخبة والعدد المهذبة ، والعساكر الموكبة ؛ فلم يلقهم جيش إلا كسروه ولا رئيس إلا أسروه ، وعلى عسكر إلا كسروه ؛ والحاظنا يرمقهم ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله جل وعز « انا لننصر رسـلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا » « وان جندنا لهم الغالبون وان حزبنا لهم المنصورون »

فلم يزل ذلك دأبهم وعين الله ترمقهم ، الى أن اختار لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفنا الى دار البقـا ، ومن نعيم يزول الى نعيم لا يزول فعاشوا محمودين وانتقلوا مفقودين الى روح وريحان ، وجنات النعيم ، فطوبى لهم وحسن مآب ؛

ومع هذا فما من جزيرة فى الأرض ولا اقليم الا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا ، يدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن ؛ وفى كل جزيرة واقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون وهو قول الله عز وجل « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » وأنت عارف بذلك ؛ فيا أيها الناكث الحانث ، ما الذى أرداك وصدك ، اشيء شككت فيه أم أمر استربت به ، أم كنت خلياً من الحكمة وخارجاً عن الكلمة ؛ فأزالك وصدك وعن السبيل ردك ، ان هى الا فتنة لكم ومتاع الى حين ؛ وايم الله لقد كان الأعلى لجدك ، والأرفع لقدرك والأفضل لمجدك ، والأوسع لوفدك ، والأنضر لعودك ، والأحسن لعذرك ، الكشف عن أحوال سلفك وان خفيت عليك ؛ والقفو لآثارهم وان عميت لديك ، لتجرى على سننهم وتدخل فى زمرهم ، وتسلك فى مذهبهم ، آخذاً بأمورهم فى وقتهم وزمرهم فى عصرهم ، فيكون خلفاً قفا سلفاً ، بجد وعزم مؤتلف وأمر غير مختلف ، لكن غلب الران على قلبك ، والصدى على لبك ، فأزالك عن الهدى ، وأزاغك عن البصيرة والضيا ، وأمالك عن مناهج الأوليا ، وكنت من بعدهم كما قال الله عز وجل « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعو الشهوات فسوف يلقون غياً » ثم لم تقنع فى انتكاسك ، وترديتك فى ارتكاسك ، وارتباكك وانعكاسك ، من خلافك الآباء ومشيك القهقرى ، والنكوص على الأعقاب ، والتسمى بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، وعصيانك مولاك وجحدك ولاك ، حتى انقلبت على الأدبار وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ودولة قد طمست . انك لمن الغاوين وانك لفى ضلال مبين ؛ أم تريد أن ترد القرون السالفة ، والأشخاص الغابرة ؛ أما قرأت كتاب السفر وما فيه من نص وخبر ، فأين يذهبون ان هى الا حياتكم الدنيا تموتون وتظنون انكم لستم بمبعوثين ؛ قل بلى وربى ليبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ؛ أما علمت ان المطيع آخر ولد العباس وآخر المترائس فى الناس ، أما تراهم كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ، ختم والله الحساب وطوى الكتاب ، وعاد الأمر الى أهله والزمان الى أوله ، وأزفت الآزفة ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها والآية من

وطنها ، وجيء بالملائكة والنبيين ، وخسر هنالك المبطلون ؛ هنالك الولاية لله الحق والملك لله الواحد القهار ، فله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله ينصر من يشاء ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد . فقد ضل عملك وخاب سعيك ، وطلع نحسك وغاب سعدك ، حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة ، ومال بك الهوى ، فأزالك عن الهدى ، فان تكفر أنت ومن فى الأرض جميعاً فان الله هو الغنى الحميد . ثم لم يكفك ذلك مع بلائك وطول شقايك ، حتى جمعت أرجاسك (وأنجاسك) وحشدت أوباشك وافلاسك ، وسرت قاصداً الى دمشق وبها جعفر ابن فلاح فى فئة قليلة من كتامة وزويلة فقتلته وقتلتهم جرأة على الله ، ورداً لامره ، واستبحت أموالهم وسبيت نساءهم ، وليس بينك وبينهم ترة ولا ثار ولا حقد ولا اضرار ، فعل بنى الأصفر والترك والخزر ؛ ثم سرت أمامك ولم ترجع ، وأقمت على كفرك ولم تقلع ، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان فى زمرة قليلة ، وفرقة يسيرة فاعتزل عنك الى يافا مستكفيا شرك ، وتاركا حربك ، فلم تزل ماكثاً على نكثك ، باكراً وصابحاً ، وغادياً رايحاً ، تقعد لهم بكل مقعد ، وتأخذ عليهم بكل مرصد ، وتقصدهم بكل مقصد كأنهم ترك وروم وخرز ، لا ينهاك عن سفك الدماء دين ، ولا يردعك عهد ولا يقين ، قد استوعب من الردى حيزومك وانقسم على الشقاء خرطومك ، أما كان لك مذكر وفى بعض أفعالك مزدجر ؛ أو ما كان لك فى كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما » فحسبك بها فعلة يلقاك يوم ورودك وحشرك ، حين لا مناص ، ولا لك من الله خلاص ، ولم تستقبلها ، وكيف تستقبلها وأنى لك مقيلها ، هيهات هيهات هلك الضالون وخسر هنالك المبطلون ، وقل النصير وزال العشير ؛ ومن بعد ذلك تماديك فى غيك ومقامك فى بغيك ، عداوة لله ولأوليائه وكفرا لهم وطغيانا وعمى وبهتانا ؛ أتراك تحسب أنك مخلد أم لأمر الله راد أم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله يتم نوره ولو كره الكافرون . هيهات لا خلود لمذكور ولا مرد لمقدور ، ولا طافىء لنور ولا مقر لمولود ولا فرار لموعود ، لقد خاب منك الأمل ، وحان لك الأجل ، فان شئت فاستعد للتوبة بابا

والنقلة جلبابا ، فقد بلغ الكتاب أجله ، والوالى أمله ، وقد رفع الله قبضته عن أفواه حكمته ، ونطق من كان بالأمس صامتا ، ونهض من كان هناك خائفاً ، ونحن أشباح فوق الأمر ، والنفس دون العقل ، وأرواح فى القدس نسبة ذاتية وآيات لدنية نسمع ونرى ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون . ونحن معرضون ثلث خصال والرابعة أردى لك ، وأشق لبالك ، وما أحسبك تحصل الا عليها ، فاختر إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع الى آخر حبة، من عقال ناقه ، وخطام بعير ، وهى أسهل مايرد عليك ؛ واما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ولا سبيل لك الى ذلك ولا اقتدار ؛ واما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فاحكم فيك وفيهم بما حكمت وأجريكم على (إحدى) ثلث ؛ اما قصاص وإما منا بعدُ واما فدى ، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك واقالة لعثرتك ؛ وان أبيت الا فعل اللعين فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ؛ اخرج منها فما يكون لك أن تتكب فيها وقيل اخسوا فيها ولا تكلمون فما أنت الا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلا سما تظللك ولا أرض تقلك ، ولا ليل يجنك ، ولا نهار يكنك ، ولا علم يسترك ، ولا فئة تنصرك ، قد تقطعت بكم الأسباب ، وأعجزكم الذهاب ، فأنتم كما قال الله عز وجل ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجا منه ، وجنود الله فى طلبك قافية ، لا يزال ذو احقاد وثوار الهجاد ورجال انجاد ، فلا تجد فى السما مصعدا ولا فى الأرض مقعدا ولا فى الأرض ولا فى البحر منهجا ولا (فى) الجبال مسلكا ولا الى الهوى سلما ولا الى مخلوق ملتجأ . حينئذ يفارقك أصحابك ويتخلى عنك أحبابك ويخذلك أترابك فتبقى وحيداً فريداً وخايفاً طريداً وهايماً شريداً قد ألجمك العرق وكظك الفلك وأسلمتك ذنوبك وازدراك خزيك كلا لا وزر الى (ربك) . . .

٦

سجل حاكمى بتولية قاضى القضاة

وهو نص السجل الصادر فى سنة ٣٨٩ هـ عن الحاكم بأمر الله بتولية الحسين بن على بن النعمان قضاء الديار المصرية واجناد الشام وبلاد المغرب مع النظر فى دور الضرب والعيار وامر الجوامع والمساجد . منقول عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٥-٣٨٨

هذا ماعهد عبدالله ووليه المنصور أبو على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، للقاضى حسين بن على بن النعمان حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر ، والاسكندرية وأعمالها ، والحرمين حرسهما الله تعالى ، واجناد الشام ، وأعمال المغرب ، واعلاء المنابر ، وأئمة المساجد الجامعة ، والقومة عليها والمؤذنين بها ، وسائر المتصرفين فيها وفى غيرها من المساجد ، والنظر فى مصالحها جميعاً ، ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة ، مع ما اعتمده أمير المؤمنين وانتحاه ، وقصده وتوخاه : من اقتفائه لآثاره ، وانتهائه الى ايثاره ، فى كل علية للدولة ينشرها ويحييها ، ودنية من أهل القبلة يدثرها ويعفيها ؛ وما التوفيق إلا بالله ولى أمير المؤمنين عليه توكله فى الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه من أمورهم وولاه

أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى ، فى السر والجهر والنجوى ؛ ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى ؛ فان تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئل اليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ؛ ووصية الله التى أشاد بفضلها ، وزاد فى سناها بما عهد أنه من أهلها فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »

وأمره ألا ينزل ما ولاه أمير المؤمنين (اياه) من الأحكام في الدماء والاشعار والابشار والفروج والاموال ، (عن) منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة ، وحرماته المعظمة ، وبيناته المبينة فى آياته المحكمة ؛ وأن يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء والمأثور عن أبينا على سيد الأوصياء ، وآبائنا الأئمة النجباء ـ صلى الله على رسوله وعليهم ـ قبلة لوجهه اليها يتوجه ، وعليها يكون المتجه . فيحكم بالحق ، ويقضى بالقسط ، ولا يحكم الهوى على العقل ، ولا القسط على العدل ،

ايثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

وأمره أن يقابل ما رسمه أمير المؤمنين وحده لفتاه برجوان ، من اعزازه والشد على يده ، وتنفيذ أحكامه وأقضيته : والقصر من عنان كل متطاول على الحكم ، والقبض من شكائمه ، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه : من ترك المجاملة فيه ، والمحاباة لذى رحم وقربى ، وولى للدولة أو مولى ؛ فالحكم لله ولخليفته فى أرضه ، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين ، والمتطاول عليه ، والمباين للاجابة اليه ، حقيق بالاذالة والنهوض ؛ فليتق الله أن يستحي من أحد فى حق له ، « والله لا يستحى من الحق »

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم فى المواضع الضاحية للمتحاكمين ، ويرفع عنهم حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه ، قسمة لايحابى فيها قوياً لقوته ، ولا يردى فيها ضعيفاً لضعفه ؛ بل يميل مع الحق ويجنح الى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفى كفته ؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدى الحكم العدل الديان « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه »

وأمره أن ينعم النظر فى الشهود الذين اليهم يرجع وبهم يقطع فى منافذ القضايا ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم إستشفافا شافياً ، ويتعرف دخائلهم تعرفا كافياً ؛ ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم في سرهم وجهرهم ، والجلى والخفى من أمورهم ؛ فمن وجده منهم فى العدالة والأمانة ، والنزاهة والصيانة ، وتحرى الصدق ، والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى ، والطريقة المثلى (ابقاه) ، والا كان بالاسقاط للشهادة أولى ؛ وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليكون فى الأمرين على ما يحد له ويمثله ، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله ؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام ، واليها يرجع الحكام والنظر فيمن يؤهل لها أحق شيء بالاحكام : قال الله تقدست اسماؤه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين

بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين » . وقال تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » .

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلي أموال الأيتام والوصايا وأولى الخلل فى عقولهم ، والعجز عن القيام باموالهم ؛ حتى يحوز أمرها على ما يرضى الله ووليه ، من حياطتها وصيانتها من الأمناء عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم لما يحرم ولا يحل أكله منها ؛ فيتبوأ عندالله بعداً ومقتاً ، آكل الحرام والموكل له سحتا ؛ قال الله تعالى : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » .

وأمره أن يشارف أئمة المساجد والقومة عليها ، والخطباء بها والمؤذنين فيها ، وسائر المتصرفين في مصالحها ؛ مشارفة لا يدخل معها خلل فى شىء يلزم مثله ، من تطهير ساحتها وافنيتها ، والاستبدال بما تبذل من حصرها فى أحيانها ، وعمارتها بالمصابيح فى أوقاتها والانذار بالصلوات فى ساعاتها ، وإقامتها لأوقاتها ، وتوفيتها حق ركوعها وسجودها ، مع المحافظة على رسومها وحدودها ، من غير اختراع ولا اختلاع لشىء منها : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وأمره أن يرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس ، ولا يمكنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس ؛ إذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع ؛ ويبتاع الرقيق ، وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق ؛ فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحة للدين ، وضرر على المسلمين ؛ يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التى لا يمكنه أن يشاهدها بافضل واعلم وأرشد وأحمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين فى استعماله . قال الله عزوجل : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » .

هذا ما عهد أمير المؤمنين فاوف بعهده ، تهتد بهديه ، وترشد برشده ، وهذ. أول امرة أمرها لك فاعمل بها ، وحاسب نفسك قبل حسابها ؛ ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » .

وكتب في يوم الأحد لسبع ليالى بقين من صفر سنة ٣٨٩ .

٤

وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر ودار الحكمة

وهو نص حجة الوقف التى وقف بمقتضاها الحاكم بأمر الله بعض أملاكه بمصر والقاهرة على الجامع الأزهر ودار الحكمة وبعض المساجد الاخرى . منقول عن كتاب الخطط للمقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤٩ - ٥١

هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب اليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة اربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبدالله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله واجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين ، من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم ، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة ، التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وانها كانت من أملاك الحاكم الى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع بالمقس ، اللذين أمر بانشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ؛ منها مايخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم ؛ ومنها مايخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ؛ فمن ذلك ماتصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، الذى كله بفسطاط مصر ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزنين الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية ، فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ، ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى

بفسطاط مصر بالراية أيضاً بالموضع المعروف بحمام الفار، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى، بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه؛ وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب، لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث، ولايستثنى فيها ولايتأول ولايستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات، حتى يرث الله الأرض والسموات، على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى إليه ولايتها ويرجع إليه أمرها، بعد مراقبة الله واجتلاب مايوفر منفعتها، من اشهارها عند ذوى الرغبة فى اجارة أمثالها، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاءالعين ومرمته من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهما، فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الاشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع؛ يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً، ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة الى ذلك، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار، ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسةعشر دينارا، ومن ذلك لنصف قنطارشمع بالفلفلى سبعةدنانير، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطةخمسة دنانير، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى دينار واحد، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلى نصف دينار، ومن ذلك لثمن أردبين ملحاً للقناديل ربع دينار، ومن ذلك ما قدر لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون دينارا، ومن ذلك لثمن

سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير، ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة الف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون دينارا ونصف، ومن ذلك لارزاق المصلين يعنى الائمة وهم ثلاثة وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذنا خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف، منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار فى كل شهر من شهور السنة، والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر ، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون دينارا ، ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل مايخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج اليه فى هذا الجامع فى سطحه واترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسى بقر المصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر دينارا ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة ان عملت بهذا الجامع اثنا عشر دينارا . والى هذا انقضى حديث الجامع الأزهر وأخذ فى ذكر جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثين قنديلا فضة ، فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا ،وشرط أن تعلق فى شهر رمضان وتعاد الى مكان جرت عادتها أن تحفظ به ، وشرط شروطاً كثيرة فى الأوقاف منها أنه إذا فضل شيء اجتمع يشترى به ملك فان عاز شيئاً واستهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وعمر به ، وأشياء كثيرة ؛ وحبس فيه أيضاً عدة آدر وقياسر لا فائدة من ذكرها فأنها مما خربت بمصر

سجل باقامة داعى الدعاة والدعوة للدولة والمشايعة لها

وهو نص أحد السجلات (المراسيم) الفاطمية التى كانت تصدر بتقليد داعى الدعاة منصبه وشرح مهامه ووسائله فى بث الدعوة ، منقول عن كتاب صبح الاعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ - ٤٣٩

الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس ، والمتعالى عن أن تدركه البصائر بالاستدلال والأبصار بالايناس ، الذى اختار الاسلام فاظهره وعظمه ، واستخلص الايمان فاعزه وأكرمه ؛ وأوجب بهما الحجة على الخلائق ، وهداهم بأنوارهما الى أقصر الطرائق ، وحاطهما بأوليائه الراشدين شموس الحقائق ؛ الذين نصبهم فى أرضه أعلاما ، وجعلهم بين عباده حكاما ؛ فقال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين »

يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته وخصه بلطائف حكمته ، واقامه دليلا على مناهج هدايته ، وداعياً الى سبيل رحمته ، ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى ابتعثه رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للسلمين ؛ وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين ، على بن أبى طالب أمير المؤمنين ؛ وفوض اليه هداية المستجيبين والتأليف بين قلوب المؤمنين ؛ ففجر ينابيع الرشاد ، وغور ضلالات الالحاد ، وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل ، حتى أنار وأوضح السبل ، وحسر نقاب البيان ، وأطلع شمس البرهان ، صلى الله عليهما ، وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان ، وأعلام الايمان ، وخلفاء الرحمن ، وسلم عليهم ما تعاقب الملوان وترادف الجديدان .

وأن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الامامة والأئمة ؛ وفوض اليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين — يعلن باقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ؛ وتغذية أفهامهم بلبانها ، وارهاف عقولهم ببيانها ؛ وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وانقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوقيفهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ،

ويفضى بهم الى روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان — ما يزال نظره مصروفا الى نوطها بناشىء فى حجرها ، مغتذ بدرها سار فى نورها ؛ عالم بسرائرها المدفونة ، وغوامضها المكنونة ؛ موفراً على ذلك اختياره ، وقاصية انتقاده ؛ حتى أداه الاجتهاد اليك ووقفه الارتياد عليك ؛ فاسندها منك الى كفئها وكافيها ، ومدرهها المبرز فيها ، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ، ودقائقها المطوية ؛ ثقة بوثاقة دينك ، وصحة يقينك ، وشهود هديك وهداك ، وفضل سيرتك فى كل ما ولاك ، ومحض اخلاصك ، وقديم اختصاصك ؛ وأجراك على رسم هذه الخدمة فى التشريف والحملان ، والتنويه ومضاعفة الاحسان

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى ، عادلا عن الهوى ، سالكا سبيل الهدى ؛ فان التقوى أحصن الجنن ، وأزين الزين ، و « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » فان الله تعالى يقول : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » . وحض على ذلك فقال سبحانه : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين »

وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك اخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه ، فان الله تعالى يقول : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » ، ويقول جل من قائل : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه » و (كف) كافة أهل الخلاف والعناد ، وجادلهم باللطف والسداد ، واقبل منهم من أقبل اليك بالطوع والانقياد ، ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك وان حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة ؛ فان الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً اليه باذنه ، محمد صلى الله عليه وسلم « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين »

ولا تلق الوديعة الا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب الا في مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ؛ وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات ، الى نور البراهين والآيات ، (واتلو) مجالس الحكم التى تخرج اليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ،

والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة : وصن أسرار الحكم الا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ؛ واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ودل على اتصال المتل بالممنون ، فان الظواهر أجسام والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس والظواهر أرواحها ، وأنه لا قوام للأشباح الا بالأرواح ، ولا قوام للأرواح فى هذه الدار الا بالأشباح ، ولو افترقا لفسد النظام ، وانتسخ الايجاد بالاعدام ، واقتصر من البيان على ما يحرس فى النفوس صور الايمان ويصون المستضعفين من الافتتان ؛ وانههم عن الاثم ظاهره وباطنه ، وكامنه وعالنه ، فان الله تعالى يقول : « وذروا ظاهر الاثم وباطنه »

واتخذ كتاب الله مصباحا تقتبس أنواره ، ودليلا تقتفى آثاره ، واتله متبصراً ، ورده متذكراً ، وتأمله متفكراً ، وتدبر غوامض معانيه ، وانشر ماطوى من الحكم فيه ؛ وتصرف مع ماحلله وحرمه ، ونقضه وابرمه ، فقد فصله الله وأحكمه ، واجعل شرعه القويم الذى خص به ذوى الألباب ، وأودعه جوامع الصلوات ومحاسن الآداب ، سبباً تتبع جادته ، وتبلغ في الاحتجاج محجته ، وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ، ولا تعدل عن منهجه وسبله ، واضمم نشر المؤمنين ، واجمع شمل المستجيبين وأرشدهم الى طاعة أمير المؤمنين ، وسو بينهم في الوعظ والارشاد ، والله تعالى يقول فى بيته الحرام : «سواء العاكف فيه والباد» وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول ، وما يظهر لك من جودة المحصول ؛ ودرجهم بالعلم ووف المؤمن حقه من الاحترام ولا تعدم الجاهل عندك قولا سلاماً كما علم رب السلام ، وتوخ رعاية المؤمنين ، وحماية المعاهدين وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الايمان والدين ، وألن لهم جانبك واحن عليهم والطف ، وابسط لهم وجهك وأقبل اليهم واعطف ، فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، ولا تفسح لأحد منهم في التطاول بالدين ، ولا الاضرار بأحد من المعاهدين والذميين ، وميزهم بالتواضع الذى هو حلية المؤمنين ، واذا البس عليك أمر وأشكل ، وصعب لديك مرام وأعضل ، فانهه الى حضرة الامامة متبعا قول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » وقوله : « فان تنازعتم فى شيء

فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » ؛ ليخرج اليك من بصائر توقيفها ، ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة ، ويذهب (بك) فى لاحب الطريقة ، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزى والأخماس والقربات ومايجرى هذا المجرى ، وتتقدم الى كاتب الدعوة باثبات أسماء أربابه ، واحمله الى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله اليه ، وتبرأ ذممهم عند الله منه ، واستنب عنك فى أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بدياناته ، وتسكن فيه الى وفور صناعته ؛ واعهد اليهم كما عهد اليك ، وخذ عليهم كما أخذ عليك ، واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته ، واستخدم كاتباً ديناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً ، حقيقاً بالاطلاع على أسرار الحكمة التى أمر الله بصيانتها وكتمانها عن غير أهلها ، نقياً حصيفاً لطيفاً ، ينزلهم فى مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل

هذا عهد أمير المؤمنين اليك فتدبره متبصراً ، وراجعه متدبراً ، وبه الوصايا تهدى وتسدد ، وتوفق وترشد ، واستعن بالله يمدك بمعونته ، ويدم حظك من هدايته ، ان شاء الله تعالى

٦

السـجل المعلق

وهو نص السجل الذى زعم الدعاة الملاحدة أنه وجد معلقاً على المشاهد عقب اختفاء الحاكم بأمر الله وهو أول رسائل حمزة بن على حسبما ذكرنا فيما تقدم ، منقول عن مجموعة خطية قديمة بدار الكتب محفوظة برقم ٣٧ عقائد النحل

نسخة السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الامام الحاكم

بسم الله الرحمن الرحيم

والعاقبة لمن تيقظ من وسن الغافلين، وانتقل عن جهل الجاهلين، وأخلص منه اليقين ، فبادر بالتوبة الى الله تعالى ، والى وليه وحجته على العالمين ، وخليفته فى أرضه وأمينه على خلقه أمير المومنين ، واغتنم الفوز مع المطهرين والمتقين ، ولم يكذب بيوم الدين ، وكان بالغيب من المسدقين به والموقنين ، واعتقد ان الساعة آتية بغتة لاريب فيها وان الله لايضيع أجر المحسنين، ولاعدوان الا على الظالمين المردة الشياطين، الفسقة المارقين ،وكل حلاف مهين الناكثين الباغين المفسدين الطاغين، أهل الخلاف والمنافقين المكذبين بيوم الدين ، المغضوب عليهم والضالين ، والحمد لله حمد الشاكرين ، حمداً لا نفاد لآخره أبد الآبدين ، وصلى الله على سيد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن الى الخلق أجمعين ، ومبشراً ونذيراً بأئمة من ذريته هاديين مهديين ، كراما كاتبين ، شهداء على العالمين ، ليبينوا للناس ما هم فيه مختلفون ، وعنه يتساءلون ، ويرشدونهم الى النبأ العظيم ، والصراط المستقيم ، سلام الله السنى السامى عليهم الى يوم الدين . أما بعد أيها الناس فقد سبق اليكم من الوعد والوعظ والوعيد ، من ولى أمركم وامام عصركم ، وخلف أنبيائكم وحجة باريكم ، وخليفته الشاهد عليكم بموبقاتكم ، وجميع ما اقترفتم فيـه ، من الاعذار والانذار ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع ، واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا ؛ وأنتم مع ذلك فى وادى الجهالة تسبحون ، وفي تيه الضلالة تخوضون وتلعبون ، حتى تلاقوا يومكم الذى كنتم به توعدون . كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ؛ وقد علمتم معشر الكافة ، ان جميع ما ورثه الله تعالى لوليه

وخليفته فى أرضه ، أمير المؤمنين سلام الله عليه ، من النعم الظاهرة والباطنة ، قد خول امام عصركم لشريفكم ومشروفكم من خاصتكم وعامتكم ، من ظاهر ذلك وباطنه ، على الاكثار والامكان بفضله وكرمه ، حسب ما رأى سلام الله عليه ، ولم يبخل بجزيل عطائه ، وهنا كم منة منه ، مع ذلك ما أوجبه الله تعالى له عليكم ، فى كتابه من الحق ، فيما ملكته ايمانكم ، ولم يشارككم فى شيء من أحوال هذه الدنيا ، نزاهة عنها ورفضاً منه لها ، على مقداره ومكنته ، لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه أعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ، ما لم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم ، ولا أدرك قوة أنبأ منه أحد من الأمم الذين خلوا من قبلكم من المهاجرين والأنصار ، فى متقدم الأزمان والأعصار ، ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ، ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ، بل منة منه عليكم ، ولطفاً بكم ورأفة ورحمة ، واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ولتعرفوا قدر ما خصصكم به فى عصره من نعمته وحسن منته وجميل لطفه ، وعظيم فضله واحسانه دون من قد سلف من قبلكم ، فاشكروا الله ووليه كثيراً على ما خولكم من فضله ، ولعلكم تشكرون ، وتعملون عملا يرضى ويضاهى أعمال الأمم السالفين أضعافاً ، حسب ما ضاعفه لكم ولى الله فى عصره من نعمه الظاهرة الجليلة ، من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والانعام الى غير ذلك من الأرزاق والاقطاع والضياع وغيره من أغراض الدنيا ، على اختلاف أصناف احسانه ، ورقى خاصتكم وعامتكم الى الدرجات العالية ، والرتب السامية ، لتقفوا مسالك أولى الألباب ، وأمركم وشرفكم بأحسن الألقاب ، وجولكم فى الأرض مشرقاً ومغرباً ، وسهلا وجبلا ، وبراً وبحراً ، فأنتم ملوكها وسلاطينها وجباة أموالها تفك لكم بمادة ولى الله الرقاب ، وتنقاد اليكم الوفود والأحزاب ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، فعشتم في فضل أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، رغداً بغير عمل ؛ وترجون بعد ذلك حسن مآب . ومن نعمه الباطنة عليكم ، تمسككم في ظاهر امركم بموالاته ، تعتزون بمعانى دنياتكم وترجون بها نجاتكم والفوز فى آخرتكم ، فقد تمنون على الله وعلى وليه بايمانكم ، بل الله يمن عليكم إذ هداكم الى الايمان ، فأنتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية ، ولو استقمتم على الطريقة الوسطى

لا سقيتم ماء غدقاً . ثم من نعمه الباطنة عليكم احياؤه لسنن الاسلام والايمان التى هى الدين عند الله ، وبه شرفتم وطهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، وميزتم من عبدة الأوثان، وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان ، وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم ، وقد كانت قديمة من قدم الأزمان ، وانقادت الذمة اليكم طوعاً وكرهاً ، فدخلوا فى دين الله أفواجاً ؛ وبنى الجوامع وشيدها ، وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلوة فى أوقاتها ، والزكوة في حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد ، وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الاسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وخفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة السدقات وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات التى جعلها الله تعالى عليكم من المفترضات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً وداولها بين الناس حينا ودهرا ، وفتح لكم أبواب دعوته وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليهديكم بها الى رحمته ويحثكم على طاعته ، وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، لتبلغوا مبالغ الصالحين ؛ فشنئتم العلم والحكمة ، وكفرتم الفضل والنعمة ونبذتم ذلك وراء ظهوركم ، وآثرتم عليه الدنيا كما آثروها قبلكم بنو اسرائيل ، فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته ، وأظهر لكم الحكمة ، وفتح لكم خارج قصره دار علم ، حوت من جميع علوم الدين وآدابه ، وفقه الكتاب ، فى الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، بما هو في صحف الأولين وصحف ابراهيم وموسى صلى الله عليهم أجمعين ؛ وأمدكم بالأوراق والأرزاق والحبر والأقلام لتدركوا بذلك ما تخطون به وتستبصرون ، وبه من الجهل تفوزون ، وقد كنتم من قبل ذلك فى طلب بعضه تجهدون ، فرفضتموه وقصرتم ، وعن جميعه أعرضتم اعراض المضلين ، ولم يزيدكم ذلك الا فرارا ، ومال بكم الهوى الى الموبقات ؛ ومكنتم من اكتساب السيئات ونقضتم العلم وأظهرتم الجهل ، وكثر بغيكم ومرحكم على الأرض حتى كاد لها أن تضج الى الله تعالى فيكم من كثرة جوركم ومرحكم عليها ، وولى الله سلام الله عليه ، مكافح لها فيكم رجاء أن تتيقظ خاصتكم وتستفيق من السكر والجهل عامتكم ، فما ازددتم الا طغيانا وعصيانا واختلافا ؛ تتناجون بالاثم والعدوان ومعصية

الرسول، وعدو الله وعدو أمير المؤمنين، قدقصرعن الفساد يده مخافة من سطوات ولى الله ورضى منه بالمسالمة والمهادنة، حتى ليس لأمير المؤمنين سلام الله عليه عدوا يجاهده، ولا ضدا يعانده، والكل من هيبته خايف وجل وأنتم معشر الخاص والعام بحضرته، تضمكم دولته، وتشملكم ولايته وتلزمكم طاعته، وأنتم مع ماتقدم ذكره من مساوئكم متحادقين متعاندين متزاحفين يجاهد بعضكم بعض كالروم والخزر جرأة على الله بغير مخافة منه ولا ترقب، ولا ينهيكم عن سفك الدماء وهتك الحريم دين من الله ولا وقارا من أمامكم ولا يقينا، قد غلب عليكم الجهل فلن ترجوا لله وقارا، ولن تقولوا ان امام عصركم واحد، وان الاسلام والايمان قد شملكم، وجمعكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله، ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه، فانا لله وانا اليه راجعون. فأى نازلة هى أكبر منها وأين شماتة للعدو، ويلكم أعظم من مثلها. لقد أصبتم أيها الناس فى أنفسكم وأديانكم، وأصيب فيكم أمير المؤمنين سلام الله عليه فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، افأمنتم أيها الغافلون أن يصيبكم ما أصاب من كان قبلكم من أصحاب الايكة وقوم تبع، ألم تسمعوا قول الله تعالى: ألم تر كيف فعل ربك بعاد، ارم ذات العماد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك صوت عذاب، أن ربك لبالمرصاد؛ وقوله تعالى، ألم نهلك الأولين، ثم نتبعهم الآخرين، كذلك نفعل بالمجرمين. ومثل هذا كثير في كتاب الله عز وجل، مما أصاب أهل الفساد والخلاف والمنافقين والمفسدين فى الأرض فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه، من عظم اسراف الكافة أجمعين، ولذلك خرج من أوساطكم. قال الله ذو الجلال والاكرام، وما كان الله يعذبهم وأنت فيهم؛ وعلامة سخط ولى الله تعالى، تدل على سخط الرب تبارك وتعالى. فمن دلائل غضب الامام، غلق باب دعوته، ورفع مجالس حكمته، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره، ومنعه عن الكافة سلامه، وقد كان يخرج اليهم من حضرته، ومنعه لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه، وامتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد وفى شهر رمضان، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الأذان، ولا يذكرونه، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا، ولا يقبلوا له التراب، وذلك مفترض له على جميع أهل طاعته، وانهاؤه جميعهم عن الترجل له من ظهور

الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الاتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه اقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون ؛ استحوذ عليهم الشيطان ، فانساهم ذكر الله ؛ اولئك حزب الشيطان ، الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون . فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى ، الذى آثروه على الهدى ، كما ترك موسى قومه حتى آن الهلاك أن يهجم عليهم وهم لا يعلمون ، وخرج عنهم وهم فى شك منه مختلفون ، مذبذبون بين ذلك ، لاالى الحق يطيعون ، ولا الى ولى الله يرجعون ، قال الله تعالى ، ولو ردوه الى الله والرسول ، وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ؛ أيها الناس كلام الله أوعظ واعظٍ ، وبين منه وعظكم بهذه الموعظة ، من الفقر والحاجة الى عفو الله تعالى ، وعفو وليه أمير المؤمنين سلام الله عليك ، أعظم منكم . فبالنسيان تكون الغفلة وبالغفلة تكون الفتنة ، وبالفتنة تكون الهلكة ؛ وقد قال الله تبارك وتعالى ، ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفرلهم الرسول ، لوجدوا الله غفورا رحيما . وقال عز من قائل ، الا من تاب وآمن وعمل صالحاً ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ وقال تبارك وتعالى ، فاذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى . فالبدار البدار معشر الناس أن وقفتم على براح من الأرض يكون أول طريق سلكها أمير المؤمنين سلام الله عليه وقت أن استتر نضو أعينكم وتجتمعوا فيها بأنفسكم وأولادكم ، وطهروا قلوبكم واخلصوا نياتكم لله رب العالمين وتوبوا اليه توبة نصوحا وتوسلوا اليه بأوجه الوسائل بالصفح عنكم والمغفرة لكم ، وأن يرحمكم بعودة وليه اليكم ويعطف بقلبه عليكم ، فهو رحمة عليكم وعلى جميع خلقه ، كما قال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله ، وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ؛ فالحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين سلام الله عليه أثرا ، ولا تكشفوا له خبرا ، ولا تبرحوا فى اول طريق يتوسل جميعكم ، كذلك أمراؤنا ؛ فاذا أطلت عليكم الرحمة ، خرج ولى الله أمامكم باختياره راضيا عنكم ظاهرا فى أوساطكم فواظبوا على ذلك ليلا ونهارا قبل أن تحق الحاقة وتقرع القارعة ويغلق باب الرحمة ، وتحل

بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر، ونصح من قبلكم نفسه وحذر ، والخطاب لأولى الألباب منكم، والتعيين عليهم والمشيئة لله تبارك وتعالى، والتوفيق به والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى وسدق بكلمات ربه الحسنى . وكتب مولى دولة أمير المؤمنين سلام الله عليه فى شهر ذى القعدة سنة احدى عشر وأربع ماية. وصلى الله على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وسلم على آله الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل . تحتفظ أصحاب العمل بهذه الموعظة من المتقن ، ولا يمنع أحد من نسخها وقراءتها ، نفع الله من وفق للعمل بما فيها من طاعة الله وطاعة وليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، حرام حرام على من لاينسخها ويقرأها على التوابين فى جامع أسفل ، وحرام حرام على من قدر على نسخها وقصر والحمد لله وحده

٧

ميثاق ولى الزمان

وهو نص العهد الذى وضعه حمزة بن على ليؤخذ على الداخلين فى دعوته ، ولا يزال يؤخذ اليوم على الدروز الذين ينتظمون فى سلك «العقلاء» . منقول عن المجموعة الخطية التى أشرنا اليها

توكلت على مولانا الحاكم الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن الأزواج والعدد ؛ أقر فلان بن فلان اقرارا أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، فى صحة من عقله وبدنه ، وجواز أمر طائعا غير مكره ولا مجبر ، انه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات ، كلها على أصناف اختلافاتها ، وانه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة هى العبادة ، وانه لا يشرك فى عبادته أحدا مضى أو حضر أو ينتظر ، وانه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه غير معترض ولا منكر لشىء من أفعاله ساءه ذلك أم سره ، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذى كتبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، أو أشار به الى غيره ، أو خالف شيا من أوامره ، كان بريا من البارى المعبود ، واحترم الافادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من البار العلى جل ذكره؛ ومن أقر أن ليس له فى السما اله معبود ، ولا فى الأرض امام موجود ، الا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين ، الفايزين . وكتب فى شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا من سنين عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة ابن على ابن احمد هادى المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين ، بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده .

تنـــــــويه

عن رسائل الدعاة : كنت أثناء مباحثي في المجموعات الخطية التي تحتوى رسائل الدعاة السريين اعتمد فى استعراض رسـائل حمزة بن على ، على مجموعة دار الـكتب التى تحمل رقم ١٣٣ عقائد النحل والتى أملك منها نسخة فتوغرافية ؛ وهذه النسـخة تنقص رسـالتين هما « السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الامام الحاكم » و « السجل المنهى فيه عن الخمر » ، وبضع أوراق من رسالة « خبر اليهود والنصارى » ، وقد أشرت خلال الـكتاب الى ذلك غير مرة (ص ١٤٥ و ١٨٥) ولـكنى وفقت بعد ذلك الى العثور على مجموعة خطية قديمة أخرى بدار الـكتب تحمل رقم ٣٧ عقائد النحل ، وهى تحتوى على مجموعة من رسـائل حمزة وفى أولها القسم الناقص من المجموعة الأولى أى رسـالة السجل المعلق وما بعدها ؛ وقد نقلت عنها نص السجل المعلق حسبما هو مسطور فى قسم الوثائق ؛ وأثبت فى أول الـكتاب صورة فتوغرافية من بعض صفحاتها . كذلك يوجد بالدار مجموعتان أخريان من رسـائل الدعاة تحملان رقمى ٣٨ و ٣٩ عقائد النحل لم نشر اليهما فيما تقدم ، فيهما بعض رسائل وردت فى المجموعات الأخرى ، وبذلك تـكون المجموعات التى تحتفظ بها دار الـكتب من رسائل الدعاة ثمانية لا خمسة كما ذكرنا فيما تقدم وهى مجموعة ثمينة نادرة .

عن الجامع الأنور : ذكر المقريزى فى حديثه عن جامع الحاكم بأنه هو المسمى بالجامع الأنور (الخطط ج ٤ ص ٥٥) وأشار فى موضع آخر الى ركوب الخليفة لصـلاة الجمعة بالجامع الأنور الـكبير (ص ٦١) والمقصود به جامع الحـاكم ؛ والمقريزى حجة وثيقة فى مسائل الخطط ، ولذلك لم نتردد فى الأخذ بقوله (ص ٨٢ من هذا الـكتاب) ولـكن القلقشندى صـاحب صبح الأعشى يشير فى غير موضع من كتابه خلال حديثه عن المواسم الفاطمية الى « الجامع الأنور الذى بباب البحر » (ج ٣ ص ٥٠٢ و ٥٠٩) وهى اشارة غامضة قد يفهم منها أن الجامع الأنور هو غير جامع الحاكم الذى يقع بجوار باب النصر (لا باب البحر) . بيد أنه مهما كان سبب هذا اللبس ، فان المعول عليه هنا هو قول المقريزى

ثبت المصـــادر

نورد فيما يلى : أهم المصادر التى رجعنا اليها أو استشرناها في البحث والتحقيق من شرقية وغربية :

١ — المصادر العربية

كتاب ولاة مصر وقضاتها لابى عمر الكندى (المطبوع بعناية المستشرق جست)

خطط المقريزى أو كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الطبعة الأهلية)

اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزى

الاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفى

عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف لأبى عبد الله القضاعى (نسخة دار الكتب الخطية رقم ١٧٧٩ تاريخ)

أخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين أبى الحسن بن على بن كمال الدين الخزرجى المصرى ، ويوجد منه بدار الكتب مجلد فتوغرافى محفوظ برقم ٨٩٠ تاريخ

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لشمس الدين أبى المظفر يوسف بن قزأوغلى المعروف بسبط بن الجوزى ، الجزء الحادى عشر ، ضمن نسخة دار الكتب المصورة ، ويوجد منها سبعة عشر مجلداً تحفظ برقم ٥٥١ تاريخ

تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام للذهبى ، نسخة دار الكتب الفتوغرافية المحفوظة برقم ٤٢ تاريخ (مجلدات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤)

تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ، المذيل به على كتاب نظم الجوهر المعروف بتاريخ سعيد بن بطريق (طبع الآباء اليسوعيين)

كتاب سير الآباء البطاركة لساويرس بن المقفع اسقف الأشمونين ، وملحقه المسمى « سير البيعة المقدسة » نقلته دار الكتب المصرية أخيراً عن نسخة مكتبة باريس ويحفظ بها برقم ٦٤٣٤ ح

تاريخ أبى هلال الصـابى (القطعة التى نشرت منه ضمن كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه)
تاريخ ابن الراهب (طبع الآباء اليسوعيين)
مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (طبع الآباء اليسوعيين)
تاريخ المكين ابن العميد المسمى « بتاريخ المسلمين » (طبع ليدن سنة ١٦٢٥)
تاريخ الأديار والكنائس المعروف « بتاريخ ابى صالح الأرمنى »
تاريخ ابن الأثير (الطبعة الأهلية)
المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا
كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر لابن خلدون (بولاق)
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق)
تاريخ القفطى المسمى اخبار العلماء بأخبار الحكماء
نهاية الأرب للنويرى (نسخة دار الكتب الفتوغرافية رقم ٥٤٩ معارف عامة) المجلدات ٢٠ الى ٢٦
كتاب صبح الأعشى لأبى العباس القلقشندى
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب)
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى
كتاب الفرق بين الفرق لأبى منصور عبد القاهر البغدادى
الملل والنحل للشهرستانى (على هامش كتاب الفصل لابن حزم)
رسالة الرد على الباطنية للغزالى المطبوعة بعناية المستشرق جولد سيهر
تاريخ جبل لبنان ، لمؤلف مجهول (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦ م)
معجم البلدان لياقوت الحموى
مصر الاسلامية لمحمد عبد الله عنان

رسائل الدعاة السرية

ومنها بدار الكتب المصرية عدة مجموعات مخطوطة

(١) رسائل حمزة بن على (ناقصة) وتحفظ برقم ١٣٣ عقائد النحل
(٢) مجموعة كاملة أخرى من رسائل حمزة بن على وتحمل رقم ٣٧ عقائد النحل

(٣) رسائل المقتنى وآخرين وتحفظ برقم ١٣٨ عقائد النحل
(٤) الرسالة الدامغة فى الرد على النصيرى وغيرها وتحفظ برقم ٥٤ عقائد النحل
(٥) مجموعة رسائل تحمل رقم ٣٥ عقائد النحل
(٦) مجموعة أخرى تحمل رقم ٢٠ عقائد النحل
(٧) مجموعة رسائل أخرى تحمل رقم ٣٩ عقائد النحل

٢ — المصادر الغربية

Von Mueller : Der Islam.
Wuestenfeld : Geschichte der Fatimiden.
Goldziher : Die Religionen des Orients.
Goldziher : Streitschrift des Gazali gegcn die Batinijà-Sekte (Einleitung).
Silvestre de Sacy : Exposé de la Réligion des Druzes.
Dozy : Essai sur l'Histoire de l'Islamisme.
Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages.
Encyclopédie de l'Islam.
Finlay : Byzantine Empire.
W. Besant & E. H. Palmer : Jerusalem.

فهرس الموضوعات

صفحة

الكتاب الثالث

خواص العصر الفاطمى

السياسية والاجتماعية والعقلية

وثائق وسجلات فاطمية

فهرس أبجــــدى عام

د ـ ز

س ـ ظ

ع ـ غ

دار النشر الحديث
مطابع احمد الصاوى محمد
٧ شارع فؤاد الأول ـ القاهرة

كتب اخرى

بقلم محمد عبد الله عنان

١ — ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى

فيه تاريخ مسهب لمحاكم التحقيق (التفتيش) الشهيرة ونظمها واجراءاتها وتفصيل ضاف لمأساة الموريسكيين (العرب المتنصرين) واخراجهم من الأندلس ؛ ومجموعة كبيرة من أشهر المحاكمات والمآسي التاريخية الكبرى فى مختلف العصور والامم يقع فى ٥٥٠ صفحة كبيرة ومزين بستين صورة تاريخية . طبع دار الكتب

ثمنه ٣٥ قرشاً

٢ — مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام

يتناول أهم المواقف الحاسمة بين الاسلام والنصرانيـة ، مثل حصار العرب لقسطنطينية ، وبلاط الشهداء ، والغزوات البحرية الاسلامية ، وغزو المسلمين لرومة ، وموقعة الزلاقة ، وسقوط غرناطة ، ومصرع الحضارة الاندلسية وغيرها

الطبعة الثانية طبع دار الكتب ثمنه ١٥ قرشاً

٣ — مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية

يتناول تاريخ مصر القاهرة ومؤرخى خططها وآثارهم باسهاب ؛ وبه عدة مباحث ومواقف شائقة أخرى فى تاريخ مصر الاسلامية . طبع دار الكتب

خفض ثمنه الى ١٠ قروش (بعد ١٥ قرشاً)

٤ — ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى

به عرض نقدى مستفيض لحياة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون وتراثه الفكرى والاجتماعى ووصف ضاف لآثاره ومنهجه وأسلوبه ومذهبه الاجتماعى

ثمنه ٨ قروش

وهذه الأثمان عدا البريد لكل كتاب . وتطلب جميعاً من مؤلفها بمصلحة الصحافة بالقاهرة ومن لجنة التأليف والترجمة بشارع الكرداسى ، ومن مجلة الرسالة ، وسائر المكاتب


Bibliotheca Alexandrina
04332470